بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنيّة

كليّة الدراسات العليا

أدب الأخلاق عند الجاحظ

إعداد

عماد محمود أبو رحمة

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع.......التاريخ.........

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في

اللّغة العربيّة وآدابها

كلّيّة الدراسات العليا

الجامعة الأردنيّة

آب/ ١٩٩٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نُوقشت هذه الرسالة وأُجيزت بتاريخ ١٧ / ٨ / ١٩٩٩م.

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
١ – الأستاذ الدكتور هاشم ياغي	(**مشرفاً**)	
٢ – الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي	(**عضواً**)	
٣ – الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين	(**عضواً**)	
٤ – الأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي	(**عضواً**)	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى ذلك الفيض السخيّ من المحبّة والعطاء والحنوّ ... **أمّي** .

إلى تلك النّسمة الرقيقة التي بدأت تداعب أغصان حياتي ... **قرينتي** .

إلى ذلك الرّكـــن الذي أفزع إليـــه في المُلمّات ، وأتقـــوّى بـــه على النائبات ... **أبي وإخوتي** .

إلى ذلك المَقيل الهانئ الذي أُلقي عنده أعبائي ، وأستريح من تكاليف الحياة ... **أصدقائي** .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

وأجد من الحقّ عليّ أن أتوجّه بالشّكر الجزيل والاعتراف بالفضل إلى جماعة مِن الأساتذة والزملاء والأصدقاء ، كانت لهم أيادٍ بيضٌ في مساعدتي على إتمام هذا العمل ، وإخراجه على هذه الصورة ؛ فهم شركائي فيما تجد فيه مِن إحسانٍ وصواب ، وعليّ – وحدي – وِزْرُ ما قد تقع عليه مِن خطأ وقصور . وأخصّ منهم :

أستاذي الجليل ؛ الدكتور هاشم ياغي ، الذي تفضّل بالإشراف على الرسالة ، وتعهدّها بإرشاداته النافعة في جميع مراحل إعدادها .

كما أشكر الأساتذة الكرام :الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، والأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين ، والأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي ؛الذين تحمّلوا عبء مناقشة هذه الرسالة ، وتزويد صاحبها بآرائهم وملحوظاتهم ، التي سيكون مِن شأنها أن تساهم في تصويب أخطائها ، وسدّ ثغراتها ، وتدارُكِ ما قد يعتريها مِن أسباب الخلل والنقص .

وأُسجّل شكراً موصولاً لذلك الأخ الكريم ، الذي فتح لي بيته ، ووسّع صدره ، ولم يضنّ عليّ بوقته ولا بجهده ، على كثرة مشاغله وثِقل أعبائه ؛ الدكتور الفاضل خليل أبو رحمة ؛ الأستاذ بقسم اللغة العربيّة وآدابها في جامعة اليرموك ؛ فقد تابع الرسالة : فصلاً فصلاً ، وقرأها : كلمة كلمة ، وقوّمها بتوجيهاته وتعليقاته السّديدة ، التي تدلّ على دقّة في الفهم وعمقٍ في النظر .

ثمّ أسعى بخالص الشّكر إلى الصديق الحميم ؛ زكي العوضي ، الذي استضافني في مكتبة معهد البحوث والدراسات الإسلاميّة بعمّان أكثرَ مدّة كتابتي للرّسالة ، بكلّ الكرم والحفاوة الجديرَين بمثله . وأشكر – معه – كلّ الإخوة القائمين على شؤون هذه الدار .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفوتني أن أشكر كلَّ مَن ساهم – بكثيرٍ أو قليل – في إعانتي على إنجاز هذا البحثِ ؛ مادّياً أو علمياً أو نفسيّاً ، وأسأل الله – سبحانه – أنْ يجزيهم عنّي خيرَ الجزاء ، وأن يجعل أجره في ميزان حسناتي وحسناتهم ؛ إنّه قريبٌ مجيب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

المحتوى	رقم الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د – هـ
فهرس المحتويات	و – ز
ملخّص باللّغة العربية	ح – ط
المقدّمة	١ – ٦
الفصل الأوّل : خصائص منهج الجاحظ في معالجة المسألة الخُلُقيّة :	٧ – ٥٦
أولاً : النـزعة التعليليّة – التأصيليّة	٨ – ١٥
ثانياً : مصادر أحكامه الخلقيّة .	١٦ – ٣١
(١) النّص .	١٦ – ٢٥
(أ) النصوص الدينية .	١٦ – ٢٣
(ب) النصوص التراثيّة الأدبيّة .	٢٤ – ٢٥
(٢) الطبع والفطرة .	٢٦ – ٢٩
(٣) النظر العقليّ .	٢٩ – ٣١
ثالثاً : النـزعة النقديّة الحرّة .	٣٢ – ٤٩
١ – نقد جانب من القِيَم المتعلّقة بالوضع الاجتماعيّ للمرأة .	٣٥ – ٤٢
٢ – نقد طائفة من الأخلاق الرّذلة الشائعة في المجتمع ، أو بين فئات محدّدة منه .	٤٢
٣ – نقد جماعة من المفسّرين والقضاة ، والمقلّدين من أصحاب الحديث .	٤٣ – ٤٥
٤ – نقد آراء وأخبار متضمّنة أحكاماً خلُقيّة .	٤٥ – ٤٩
رابعاً : النظرة الواقعيّة .	٥٠ – ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني : الطرائق الأدبيّة التي يترسّمها الجاحظ
في عرض القيم الخلقيّة ، وأبرز سماتها الفنيّة :---------------٥٧ – ٨٨
أولاً : السخرية .--٥٩ – ٧٢
ثانياً : المناظرة .--٧٣ – ٧٦
ثالثاً : القصّة – الطُّرفة .------------------------------------٧٧ – ٨٠
رابعاً : المشاهد المسرحيّة .-----------------------------------٨١ – ٨٨

الفصل الثالث : سمات أسلوب الجاحظ في خطابه الأخلاقيّ :---------------٨٩-١٤٤
أولاً : أسلوب الجاحظ في تنظيم رسائله الخلُقيّة .------------------٩١ – ٩٤
ثانياً : وصف المفاهيم الأخلاقيّة وصفاً بلاغياً ينأى عن الحدود المنطقيّة .----------٩٥ –٩٩
ثالثاً : تضمين الأحاديث الخلقيّة ألواناً شتّى من معارف العصر .--------١٠٠-١٠٣
رابعاً : الدقّة في اختيار الألفاظ الدالّة على المعاني الأخلاقيّة .-----------١٠٤-١٠٨
خامساً : توجيه الحديث إلى المتلقّي بصيغة الخطاب المباشر .--------------١٠٩-١١٢
سادساً : الاستقصاء والتتبّع .-----------------------------------١١٣-١١٩
سابعاً : الجنوح إلى الإطلاق والتعميم في تقرير بعض الأحكام المتّصلة بالأخلاق .-----١٢٠-١٢٤
ثامناً : تمثيل المفاهيم الخلقيّة في شكل أزواج من الأضداد :------------------١٢٥-١٤٤
١ – ثنائيّة العقل / الهوى .-----------------------------------١٢٧-١٣١
٢ – ثنائيّة الجِدّ / الهزْل .-----------------------------------١٣١-١٣٧
٣ – ثنائيّة الصداقة / العداوة .---------------------------------١٣٧-١٤٠
* أصول نظرة الجاحظ الثنائيّة إلى المفاهيم الخلقيّة .----------------------١٤٢-١٤٤

الخاتمة .---١٤٥-١٤٨
المصادر والمراجع .--١٤٩-١٥٠
الملخّص باللّغة الإنجليزية .---------------------------------------١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

أدب الأخلاق عند الجاحظ

إعداد

عماد أبو رحمة

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

تُعنى هذا البحث بتجلية آثار نزعة الجاحظ الفنيّة في تناوله موضوعات الأخـــلاق ، ودراستها دراسةً تفصيليّة معمّقة ؛ بوساطة الوقوف على أبرز الطرائق والأساليب الأدبيّة التي عمد الجاحظ إلى توظيفها لوصف الحالة الأخلاقيّة في عصره وما تضمّنه ذلك من نقدٍ لكثيرٍ من القِيَم والعادات والسلوكات التي كانت سارية في المجتمع أو بين طبقاتٍ وفئات معيّنة منه

وقد جاء هذا البحث في ثلاثة فصول : أمّا الأوّل : فكان الغرض منه رسم صـــورة تقريبيّة لنهج الجاحـــظ في معالجـــة المسألة الخُلُقيـــة ، وقد بيّنتُ أنّ من أبرز ســـــمات ذلك المنهج : النـــزعةَ التعليليّة – التأصيليّة ، واعتمادَه على النصوص الدينيّـــة والأدبيّـــة ، وعلى الطبع ، والعقل – مصادرَ أساسيّة في تفكيره في القضايا الخلقيّة وما يصدره فيها مـــن أحكام ، ومن سماته – أيضاً – النـــزوع إلى النقد الحرّ في تصويره أخـــلاق العصـــر ، وأخيراً : النظرة الواقعيّة ، التي تُعنى بتصوير القِيَم الخلقيّة المنعكسة عن الواقـــع الاجتمـــاعيّ والسياسيّ والدينيّ المعاصر للكاتب ، تصويراً صادقاً ، في سياق أدبيّ يميّزه مـــن التســـجيل التاريخيّ التوثيقيّ . أمّا الفصل الثاني : فخصّصته لدراسة أبرز الطرائق الأدبيّة التي ترسّـــمها الجاحظ في عرض القِيَم والآراء الخلقيّة ، وتبيان سماتها الفنيّة ، وهي : السخرية والمنـــاظرة ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمشهد المسرحيّ ، والقصّة – الطُّرفة . وأمّا الفصل الثالث – وهو الأخير – : فقد أفردتـه لاستقراء سمات أسلوب الجاحظ في خطابه الأخلاقيّ ، في ذلك النوع من كتاباته الخلقيّة التي غلبتْ عليها صفةُ التنظير المباشر ، وجاءت على هيئة مواعظ خلقيّةٍ أو وصايـا تربويّـة ، بخلاف النوع الآخر من كتاباته الذي غلبت عليه النـزعة الأدبيّة الخالصة ، وهو الذي كان موضوعاً للحديث في الفصل الثاني من البحث كما بيّنتُ آنفاً .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

بدأتْ عنايتي بكتب الجاحظ وأنا طالبٌ في بداية المرحلة الجامعيّة الأولى ، ومع مـرور الزمن نمت العلاقة بيني وبينها ، وتوثّقت أسبابها ؛ كلّما تقدّمتُ في قراءتها ، وأمعنت الفكـر فيها . وكان مـمّا استرعى انتباهي أنّ غير قليل من كتبه ورسائله موسومةٌ بعناوين تشـير بوضوح إلى موضوعات ومضامين خلُقيّة أو تشتمل على معانٍ وآراء وأحكام داخلة في بـاب الأخلاق ؛ فأثار ذلك اهتمامي ، ووقع في نفسي – وأنا بصدد تحديد موضـوع لرسـالة الماجستير – أن أجعل من هذه المادّة الأخلاقيّة مداراً لبحث يُعنى – على وجه الخصـوص – بالطرائق والأساليب الفنيّة التي انتهجها الجاحظ في تناول القضايا الخلقيّة وعرضِـها علـى القارئ . فسارعتُ إلى مقابلة الأستاذ الجليل هاشم ياغي وشرحت له الفكرة ، فرحّب بها ، وشجّعني على الشروع في متطلّبات هذا البحث ؛ فذهبتُ أُردّد النظر في كتب الجـاحظ ، ثمّ أقرأ كثيراً ممّا كُتب عنه ، وبعضَ ما كتب في (علم الخلاق) ؛ لكي أقف على مفاهيم هذا العلم ومصطلحاته وأبرز القضايا التي يُعالجها ، حتّى استوفيتُ منها جميعاً ما يكفي لإقامـة أوَد هذا البحث الذي جاء في ثلاثة فصول ؛ تناول الأوّل منها **خصائص منهج الجـاحظ في معالجة المسألة الخلقيّة** ، وقد حاولتُ فيه أن ارسم صورة تقريبيّة للمنـهج الـذي سـلكه الجاحظ في تناول موضوعات الأخلاق ، وما يميّزه – بصفة خاصّة – عن مناهج الفلاسـفة ، الذين دأبوا على فسح مجال واسع لهذه الموضوعات في كتبهم ؛ مؤكّداً أنّني لا أهـدف إلى أخذ الموضوع من ناحيته الفلسفيّة ، وإنّما من ناحيته الأدبيّة الفنيّة ، وقد يتبدّى ذلك بصورة أوضح في الفصلين الأخيرين .

أمّا الفصل الثاني ، فخُصِّص لدراسة **الطرائق الأدبيّة التي ترسّمها الجاحظ في عرض القيم الخلقيّة** ، وقد ضمّنـته طائفةً من الأشكال الأدبيّة التي اعتاد الجاحظ أن يتوسّل بهـا في تناول القيم والآراء الخلقيّة التي كانت سائدة في مجتمع عصره ، أو بين طائفة بعينـها مـن طوائفه ؛ كالجواري والغلمان ، والقيان ، والخِصيان ، والبخلاء ، والمعلّمين ، والقضـاة ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يظهر بوضوح أثر النـــزعة الفنيّة التي تغلب على الجاحظ في سائر كتاباته ، بما يميّزهـــا عن كتابات العلماء المتخصّصين التي تتّسم بما يتّسم به العلم البحت مِن جدّيّة وصرامة . أمّـا الجاحظ فإنّه يعرف – بوحي من نزعته الأدبيّة – كيف يُسبغ على ما يتناوله مِـــن أبـــواب العلم ثوباً مِن الجاذبيّة والإمتاع والعذوبة وسهولة المأخذ ، دون أن تفقد كثيراً مِن قيمتـــها المعرفيّة ، ولذلك ما وُصف الجاحظ – بحقّ – بأنّه " معلم العقل والأدب " . وتتجلّى هـــذه النـــزعة بصفة خاصّة عندما يعمد إلى تجسيد القيم والعادات الخلقيّة – الـــتي يلمحـــها في مجتمعه – في نماذج من شخصيات عصره أو العصور السابقة .

وأمّا الفصل الثالث ، ففي **سمات أسلوب الجاحظ في خطابـــه الأخلاقـــيّ** . وقـــد خصّصته لتتبّع أبرز الملامح التي تغلب على أسلوب الجاحظ في حديثـــه عـــن الأخـــلاق ، وخاصّة في تلك الرسائل – أو المواضع من كتبه الطّوال – التي يبسط فيها أفكـــاره وآراءه المتصلة بالأخلاق بطريقة تنظيريّة مباشرة ، تأخذ شكل الوصيّة التربويّة ، دون أن تخلوَ مـــن آثار النـــزعة الأدبيّة التي أشرنا إليها فيما سبق .

ولا أعلم أحداً من الباحثين خصّ هذا الموضوع – موضوع الأخلاق عند الجاحظ – بدراسة وافية ، من ناحيته الأدبيّة . وكل ما هنالك إشاراتٌ مقتضبـــة في بعـــض الكتـــب والدراسات التي اتّخذتْ مـــن أدب الجاحظ عامّة أو من حياتـــه أو فِكْره موضوعاً لهـــا ، منهـــا – على سبيل المثال – : كتاب (المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ) لعلي أبي ملحـــم ، وهو في الأصل أُطروحة جامعيّة تقدّم بها صاحبها لنيل درجـــة الماجســـتير في الفلســـفة ، وضمّنها فقرة مختصرة عن القِيَم الخُلقيّة ، باعتبارها إحدى تلك المناحي الفلسفيّة ، التي حـــال تعدّدها دونَ إعطاء جانب الأخلاق ما يستحقّ من بحث وعناية حتّى من ناحيته الفلســـفيّة . وأمّا النواحي الأدبيّة فلم تكن مِن غايات تلك الأطروحة أصلاً . في حين أنّها تشكّل الغرض الأساس من بحثنا هذا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك اضطررت إلى أن أتّخذ من المصادر الأوليّة – أعني كتب الجاحظ نفسه – مصادرَ أساسيّة شبه وحيدةٍ ، وأستغنيَ بها عن غيرها في أغلب الأحيان وخاصّة تلك التي وضعها أصلاً للبحثِ في موضوعاتٍ خلقيّة ، أو لها علاقةٌ – مِن ناحية أو أخرى – بتلك الموضوعات . وأهمُّها :

١ – رسالة المعاش والمعاد ، أو الأخلاق المحمودة والمذمومة .

٢ – رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان .

٣ – رسالة في الجِدّ والهَزْل .

٤ – رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .

٥ – رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان .

٦ – كتاب القِيان .

٧ – رسالة ذمّ أخلاق الكتّاب .

٨ – رسالة التربيع والتدوير .

وقد اتّخذتُ مصدراً رئيساً في الوقوف على تلك الرسائل مجموعَ (رسائل الجاحظ) ، بتحقيق عبد السلام محمد هارون ، ما عدا رسالة (التربيع والتدوير) ، فكان مرجعي فيها تلك النسخة التي حقّقها شارل بلا ؛ ويقع كتاب (رسائل الجاحظ) المشار إليه في مجلّدين ، كلٌّ منهما مقسوم إلى جزأين ؛ فأمّا المجلّد الأوّل فيشتمل على طائفةٍ من الرسائل وصلتْ إلينا عن الجاحظ كاملةً ، ومن جملتها تلك التي سردناها آنفاً ، باستثناء رسالة (التربيع والتدوير) . وأمّا المجلّد الثاني فيضمّ أشلاءً اقتطعها عُبيد الله بن حسّان مِن عددٍ من رسائل الجاحظ ، بعضُها شملته المجموعة الأولى ، وبعضها جديد . ومّما يدخل في موضوعنا منها ولم يرد ذِكْره في المسرد السّابق :

١ – رسالة الحاسد والمحسود .

٢ – رسالة النساء .

٣ – رسالة النّبل والتنبُّل وذمّ الكِبْر .

٤ – رسالة الشّارب والمشروب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالإضافة إلى (كتاب البخلاء) الذي أفدتُ منه كثيراً في هذا البحثِ ، وخاصّة في الفصل الثاني الذي أفردتُه لدراسة (الطرائق الأدبيّة التي ترسّمها الجاحظ في عرضِ القيم الخُلُقيّة وأبرز سماتها الفنيّة) ، ولم أغفُل عن الانتفاع – كذلك – بالفصل المفيد الذي قدّم به الدكتور طه الحاجريّ تحقيقه المتقَن للكتاب نفسه .

ورجعتُ كثيراً إلى (كتاب الحيوان) ، بتحقيق عبد السلام هارون ، وقليلاً إلى كتاب (البيان والتبيين) بتحقيقه أيضاً ، لاستكمال ملامح صورة البحث ، التي أقمتُ عمودها على الرسائل المذكورة آنفاً ، وعلى كتاب البخلاء ؛ لأنّ النزعة الفنيّة أظهرُ فيهما من غيرها ؛ ولأنّ احتفالهما بالموضوعات الأخلاقيّة أو التي لها صلّةٌ ما بها ، أشدُّ من احتفال سواهما .

كانت هذه هي المصادرَ الرئيسة للبحث . أمّا المصادر الثانويّة فهي تلك التي تُلقي ضَوءاً على حياة الجاحظ ، والبيئتين : الماديّة والاجتماعيّة اللتين نشأ وعاش فيهما . ويكاد يقتصر اعتمادي في هذا اللون من المصادر على كتاب (شارل بيلاّ) : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ؛ لأنّه استطاع – بحَقٍّ – أن يستوفي معظم المادّة التراثيّة التي أُتيحت له عن الجاحظ وبيئته في كلّ مرحلة مهمّةٍ مِن مراحل حياته ، ويُنسّقها في معرضٍ علميّ منظّم . علاوةً على أنّ كثيراً من الذين كتبوا عن الجاحظ بعدَه يرجعون إليه ويُفيدون مِن مادّته .وكان لا بدّ من الرجوع – أيضاً ، في إطار المصادر الثانويّة – إلى بعض المصنّفات التي تبحث في علم الأخلاق عامّةً ، من أجل التمرّس بمصطلحاته ، والوقوفِ على نوعيّة المسائل المطروحة فيه ، وأساليب الفلاسفة في طرحها . فقرأت كتاب أرسطو : (علم الأخلاق إلى نيقو ماخوس) قراءة متأنّية ، ولم أُخلِ البحث مِن طائفةٍ من نصوصه ؛ على سبيل الاستئناس بها وتوضيحِ بعض الأفكار من ناحية ، والتدليل – من ناحيةٍ أخرى – على رُجوح تأثُّر الجاحظ – إلى حدّ ما في هذا الموضوع – بالفلسفة اليونانيّة ، متمثّلةً في شخص هذا الفيلسوف الكبير . هذا ، وقد أفدتُ من المقدّمة المفصّلة التي وضعها المترجم الفرنسي عن اليونانيّة (بارتلمي سانتهلير) ، توطئةً للكتاب ، والتي جاءتْ أشبه بمقدّمة عامّة في علم الأخلاق عرضتْ لمناهجه وقضاياه الأساسية وتتبّعتْ مسيرتَه في الثقافة اليونانيّة مِن خلال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبرز فلاسفتها ؛ مثـــل : سقراط وأفلاطون ، أستاذَي أرسطو صاحب الكتاب ، والـــذي يُعدّ الثمرة الناضجة في شجرة تلك الثقافة . وقد توقّف عنده المترجم مطوّلاً ، فشرح نظريّته في الأخلاق ، المُسّماة بنظريّة " الأوساط " ، ونظريّاته الأخرى في العدل والصداقة . واختتم مقدّمته تلك — التي شغلت ما يربو على نصف المجلد الأوّل من الكتاب – بعرض مذهـــب " كنت " في الأخلاق وهو عنده أكبرُ الأخلاقيّين المتأخّرين (في القرن الثامن عشر)

ولا يخلو البحث — بعد ذلك — مِن إشاراتٍ إلى كتبٍ أخرى ، أقلّ أهميّةً بالنسبة إلى موضوعه من هذين الكتابين ، سنأتي على ذِكْرهـــا في الفهرس المخصّص لهـــا في عَقِـــب الدراسة ، إن شاء الله .

ولعلّ السبيل الوحيد للوقـــوف على حقيقة الجهد الذي بُذل مِن أجل إتمـــام هـــذا البحث ، إنّما يتمثّل في قراءته قراءةً مستوفيـــة ، وتتبّع فصولـــه وأبوابـــه جميعاً . وأكتفـــي – فقط – بالإشارة إلى جوانب ثلاثةٍ يتبدّى فيها أثر ذلك الجهد بوضوح أكثر من غيرها :

– الأوّل : استخلاص النصوص المتعلّقة بموضوع الأخلاق ، واستيفاؤها من كتُـــب الجاحظ ورسائله ، على كثرتها وتنوُّع موضوعاتها .

– الثاني : محاولةُ إيجاد نَسَقٍ منهجيّ ملائم ينتظم جميع تلك النصوص ، مـــن غـــير تناقض ؛ للوصول إلى رؤيةٍ واحدة منسجمة ومتكاملة لموضـــوع الأخـــلاق عنـــد الجاحظ .

– الثالث : الوقوف على الأشكال الأدبيّة المختلفة التي صِيغتْ على وَفقـــها تلـــك النصوص ، وتلمُّسُ ملامحها ، وإبرازُ سماتها .

أمّا الصعوبات التي واجهتْ صاحب هذه الرسالة ، فهي عينُها الصعوبات التي تُواجه أكثرَ مَنْ يتصدّى للبحث في تراث الجاحظ ، بصرف النظر عن موضوع بحثه ، وأهمُّها :

١ — قلّةُ الترتيب ، وضعفُ النظام ، اللّذان تُعانيهما كتب الجاحظ ، خاصّةً الطِّـوال منها ؛ أعني : (كتاب الحيوان) ، وكتاب (البيان والتبيين) . إذ بالرّغم من كثرة الفهارس التي ألحقها بهما المحقّق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، ودقّتها ، فإنّهـــا تظـــلّ عســـيرةَ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلك على الباحث ، ولا بدّ له – إذا أراد أنْ يتقصّى موضوعه – مِن قراءتها بتمامها ، على تشعُّب موضوعاتها وتباينها وتداخلها . وهذا التشعُّب والتباين والتداخُل يفرضُ على الباحث كثرةَ التردُّد بين النصوص ، مرّة بعد أُخرى ، ليس مِن أجل فهم مضمونها فقط ؛ ولكنْ مِن أجل وضعها في نَسَقٍ تنظيميّ ما ، يمكّنه من التعامل معها ، وتشكيل رؤيةٍ معقولة ومتماسكةٍ تجاه موضوع دراسته .

٢ – حاجة الدارس إلى طول معاشرة كُتُب الجاحظ ؛ حتّى يتمرّس بأساليبه ، ويختبر مجاري كلامه ؛ فيعرف مواضعَ جِدّه مِن مواضع هَزْله ، ويُميّز كلامه مِن كلام غيره مّمن يروي عنهم ؛ وحتّى يُلمَّ إلماماً كافياً بمعجم مصطلحاته الخاصّ بموضوع الدراسة ، ويقفَ على مرامي ألفاظه وعباراته بحقيقتها ومجازها وكنايتها ... الخ .

بالإضافة إلى صعوبةٍ أخرى خارجةٍ عن نطاق كُتُب الجاحظ ، تتمثّل في قلّة المصادر العربيّة المصنّفة في مباحث الأخلاق عامّةً ؛ فأكثرها إمّا مكتوبٌ بلغات أجنبيّة ، لا يستطيع أن يُفيد منها إفادةً وافيةً إلاّ من يُتقن بعضَ تلك اللّغات ، وإمّا مُترجَم ، يعاني كلَّ نواحي القصور والضّعف والخلل التي تُعانيها الترجمةُ إلى العربيّة في هذا العصر ؛ مِن التّواءٍ في العبارة ، وغرابةٍ في المصطلح ، وغثاثةٍ في الأسلوب . وحتّى المصادرُ القليلة المكتوبةُ – ابتداءً – بالعربيّة ، يفتقر أغلبُها إلى صفة الأصالة ، ويكاد يكون ترجمةً أو شبه ترجمةٍ لبعض الكتب الأجنبيّة .

عماد أبو رحمة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

خصائص منهج الجاحظ في معالجة المسألة الخُلُقيّة

أولاً : النزعة التعليليّة التأصيليّة .

ثانياً : مصادر أحكامه الخلقيّة .

(١) النّـــص :

(أ) النصـــوص الدينيـــة .

(ب) النصوص التراثية الأدبية .

(٢) الطبع والفطرة .

(٣) النظـر العقليّ .

ثالثاً : النزعة النقديّة الحرّة .

(١) نقد جانب من القيَم المتعلّقة بالوضع الاجتماعي للمرأة .

(٢) نقد طائفة من الأخلاق الرّذلة الشائعة في المجتمع ، أو بين فئات محدّدة منه .

(٣) نقد جماعة من المفسّرين والقضاة ، والمقلّدين من أصحاب الحديث .

(٤) نقد آراءٍ وأخبار متضمّنة أحكاماً خلقيّة .

رابعاً : النظرة الواقعيّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: النزعة التعليلية - التأصيلية:

الكشف عن العِلَل، وردُّ الفروع إلى أصولها ، غرضان أساسان من أغراض البحث الخلقيّ عند الجاحظ ، يتمشّى مع مبادئ عقله الاعتزاليّ في النظر والتفكير. وهو غرضٌ منهجيّ متقدّم حقّاً ؛ إذ إنّ مرحلة التأصيل ، وإرساء القواعد ، وربط الظواهر بأسبابها الحقيقيّة ، هي الغاية التي يتطلّع إليها كلُّ فنّ من فنون المعرفة حتّى يكتسب صفة " العلم ".

وتتبدّى نزعة الجاحظ التعليليّة – التأصيليّة بشكلٍ بارز في رسالة " المعاش والمعاد أو الأخلاق المحمودة والمذمومة "، [١] إذ يؤكّد في مقدّمتها غيرَ مرّة أهميّة عناية البحث الخلقيّ بالتفتيش عن الأصول ، وبيانِ العِلَل والأسباب التي تقف وراء الممارسات السلوكيّة الظّاهرة . يقول في وصف منهجيّة هذه الرسالة الموجَّهة – على الأرجح – إلى القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد [٢]: " فرأيت أن أجمع لك باباً من الأدب [٣]، جامعا لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء، وأخبرك بأسبابها" [٤]" وما العلل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سببا لغيره ... ، وكيف دواعي قلوب الناس ...، وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ ... وراسمٌ لك في ذلك أصولاً ، ومبين لك مع كلّ أصلٍ منها علّته وسببه "[٥]. "فاحفظْ هذه الأبواب التي يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضَمِنْتُ لك أوائلُها كونَ أواخرها. فاعرِفْها واقتبِسْها. واعلمْ أنّه متى كان الأوّل منها، وجب ما بعده ، لا بدّ منه. فاحذر المقدّمات اللاتي يُعقبها المكروه ، واحرصْ على توطيد الأمور التي على أثرها السّلامة ، وألقحْ في البديّ الأمورَ التي نِتاجها العافيةُ" . [٦]

---

(١) انظر الاختلاف في عنوان هذه الرسالة ، وفيمن أُهديت إليه ، في رسائل الجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١ ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢) انظر الحاشية الأولى .

(٣) يختلف معنى كلمة (الأدب) هنا وفي جميع المواضع التي ترد فيها من كلام الجاحظ ، عن المعنى المتعارف في إيّامنا هذه ؛ فهي تعني عنده : " قواعد السلوك الاجتماعيّ [والسياسيّ] ، أو مبادئ المعاملة بين الناس ، كما ينبغي أن تكون ". الجاحظ – رسالة المعاد والمعاش ، في مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق محمد طه الحاجريّ ، ص ١١٥ .

(٤) المعاش والمعاد ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ص ٩٥ .

(٥) المعاش والعاد ، ص ٩٧.

(٦) المعاش والمعاد ، ص ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاهتمامُه – كما ترى – مُنصبّ على المبادئ العامّة وطرق الاستدلال التي يستطيع المرءُ – متى وعاها – أن يحدس حدساً علمياً صائباً أو مُقارباً كثيراً ممّا تنطوي عليه نفوس النّاس ، " ولا يكون بـه وَحشةٌ إلى معرفـة كثير ممّا يغيب عنه، إذا عرف العِلَل والأسباب ، حتّى كأنّه مشاهد لضمير كـلّ امرئ ؛ لمعرفته بطبعه وما رُكّب عليه ، وعوارضِ الأمور الداخلة عليه" [١]

وهكذا ، فإنّ المعرفة الخلقيّة – عند الجاحظ – لا بدّ أن تقوم على معرفةِ العِلَل والمعلـولات المرتبطة مع بعضها بعلاقاتٍ سببيّة على هيئة مقدّمات ونتائج ، تدور مع بعضها وجوداً وعدماً . وهـذا الربط السببـيّ بين المقدّمات والنتائج ، أو بين العِلَل ومعلولاتها ، في دراسة الأخلاق يكشف عن عقليّة علميّة ناضجةٍ ؛ ذلك أنّ السببيّة تُعدّ مرحلة متقدّمة من مراحل التفكير العلميّ. وتلك ميزةٌ للجـاحظ على مَنْ سبقه من المنظّرين للأخلاق في الثقافة العربيّة – الإسلاميّة ؛ إذ كانـوا – كمـا يقـول – يقرّرون الصّفاتِ الأخلاقيّة : محمودَها ومذمومَها – تقريراً ، دون بيانٍ للأصول والفـروع ، والعِلَـل والمعلولات . ولستُ أتحدّث – عند الجاحظ – عن برهانٍ فلسفيّ منطقيّ ، مؤلّف من مقدّمتين مسلّمٍ بهما ، تُبنى عليهما نتيجة ضروريّة ، على هيئة القضايا المنطقيّة ؛ وإنّما عن نوعٍ من العلاقة بين المقدّمات والنتائج أبسطَ من هذا بكثير ؛ ذلك أن الجاحظ لا يتوصّل إلى النتائج وَفق نمطٍ من القيـاس البرهـانيّ المتسلسل ، كما يفعل أرسطو – مثلا – في مباحثه الخلقيـّة ، فتخرج النتيجة عنـده – إذا صحّـت المقدّمات ، وسلمت من المغالطة – صادقةً وحتميّة ، [٢] بل إنّ طائفـة من نتائـج الجاحظ – فيمـا يبدو – احتماليّةٌ أو جائزة أكثر منها ضروريّة أو حتميّة ؛ لأنّها مبنيّة على مقدّمـات مُسـتنبَطة مـن النصوص الدينيّة ، أو مستفادة من استقراء التجارب العمليّة اعتماداً على الملاحظة الذاتيّة ، أو من طول تصفّح الكتب التي تحمل خبرات الأجيال السّابقـة[٣] أكثر من كونها مبنيّة على بدهيّـات عقليـّة

٥١٣٢٥٩

(١) المعاش والمعاد ، ٩٨ ، مع تغيير في بعض ضمائر النصّ ، حتّى يلتئم مع سياق الكلام قبله . ولعلّ هذا النصّ – بالإضافة إلى جملـة النصوص السابقة – يتضمّن ردّاً واضحاً على ما ذهب إليه الجابريّ من أنّ " العقل العربيّ " – مع تحفّظنا ابتداءً على إطلاق هذا المصطلـح للدلالة على عقل عربيّ واحد ثابت ، على اختلاف العصور والبيئات الاجتماعيّة والجغرافيّة – يخلو مـن مبـادئ التفكـير العلمـيّ السـببيّ ، وتُعوزه أساليب النظر المنطقيّ في المسائل العقليّة وتفسير الظواهر الطبيعيّة . انظر محمد عابـد الجابريّ – نقد العقل العـربيّ ، وخاصّة الجزأين الأوّلين : تكوين العقل العربيّ ، ط٦ ، ١٩٩٤ ، وبنية العقل العربي ، ط٤ ، ١٩٩٢ .

(٢) راجع كتاب أرسطو – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، نقله إلى العربيّة عن الفرنسيّة أحمد لطفي السيّد ، في مجلّدين .

(٣) انظر فيما يلي من هذا البحث (مصادر الأحكام الخلقيّة عند الجاحظ ، ص ١٦ وما بعدها) ، وانظر – بالإضافة إلى ذلك – قولـه في أوّل (كتاب القيان) : وكلّ شيء لم يوجد محرّماً في كتاب الله وسنّة رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – فمباحٌ مُطلَق " الرسـائل ، ج٢ ، ١٤٧ ، وقولَه في أوّل (رسالة المعاش والمعاد) : " فأرى ما أعرف به ، وبما قد بلوتُ من غيرك ، وما قد شهدتْ لي به التجـارب – أنّ ذلك منكَ طبعٌ غير تكلّف " ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٩٤ ، ثمّ يُضيف في الصفحة التالية : " ولم أزل – أبقاك الله – بـالموضع الذي قد عرفتَ ، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها . ومعلومٌ أنّ طول دراستها إنّما هو تصفّـح عقول العالمين ، والعلـمُ بـأخلاق النبيّين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم ، وكتبِ أهل المِلَل ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوّليّة . ولعلّ هذا يتّضح أكثر بالتمثيل عليه من كلام الجاحظ نفسه ، يقول :" فمن الأمور التي يُوجب بعضُها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبّة ، والمضرّة توجب البغضاء ، والمضادّة توجب العداوة ، وخِلاف الهوى يوجب الاستثقال ، ومتابعته [خلاف الهوى] توجب الأُلفة ، والصدق يوجب الثّقة ، والكذب يُورث التُّهمة ، والأمانة توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجَوْر يوجب الفُرقة ، وحُسْن الخُلق يوجب المودّة ، وسوء الخلق يوجب المُباعَدة ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوَحشة ، والتكبّر يوجب المَقْت والتواضع يوجب المِقة [المحبّة] ، والجُود بالقصد [الاعتدال] يوجب الحمد ، والبخل يوجب المَذمّة ، والتواني يوجب التضييع ، والجِدّ يوجب رخاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحسرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتغرير يوجب الندامة ، والحَذر يوجب العُذْر ، وإصابة التدبر توجب بقاء النّعمة ، والاستهانة توجب التّباغي ، والتباغي مقدّمة الشرّ وسببُ البَوار " [١].

فهذه كلّها استقراءاتٌ أثمرها تأمّلاتُه الذاتيّة في الواقع التجريبيّ المعيش ، ودوامُ نظره في الكتب ، وليست قضايا عقليّة منطقيّة مثبتة بمنهجيّة موضوعيّة صارمة .

هذا ما قصدتُه بالسببيّة في "نظريّة" الجاحظ الخلقيّة [٢]. وليس في اختلاف هذه السببيّة عن سببيّة الفلاسفة أيُّ انتقاص من قيمتها على الصعيد العمليّ التطبيقيّ ؛ فهي صادقةٌ بالتجربة ، وإنْ كانت على المستوى النظريّ أقلّ متانةً وتماسكاً من القياس البرهانيّ . والجاحظُ – على أيّة حال – لم يكن – قطُّ – فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحيّ الدقيق للكلمة ، بالرغم من اشتمال أدبه على بعض الملامح الفلسفيّة التي لَمْلمها أحد الدارسين المعاصرين في أُطروحة جامعيّة خصّصها لدراسة تلك الملامح وإبرازها ؛ [٣] إذ " إنّ الفيلسوف هو الباحث العقليّ الذي يعيدُ بناء خبرته ؛ لكي يصوغها لنا في حدود تصوّريّةٍ أو مقولات منطقيّة ... تنتظم فيها الحقائق على صورة كلٍّ واحد متماسك ... وفق مبادئ ميتافيزيقيّةٍ معينة " [٤]؛ وإنّما كان الجاحظ أديباً متكلّماً ، وللكلام موضوعاته ومبادئه وطرق استدلاله التي تميزه من الفلسفة .

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١١٠ .

(٢) شيء من التجوّز ؛ لأنّها لا تصل إلى مستوى النظريّة ؛ ولذلك أسمّيها حيناً " نظرة ، وحيناً " تصوراً " .

(٣) انظر علي أبو ملحم – المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ ، رسالة ماجستير أصلاً ..

(٤) زكريا إبراهيم – مشكلة الفلسفة ، الكتاب الرابع في سلسلة مشكلات فلسفيّة ، ص ٧٣ – ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك يكون الجاحظ – بالرغم من غلبة نزعته الأدبيّة في طرح المسائل الخلقيّة – قد خطا خطوةً لا بأس بها في سبيل إعطاء البحث الأخلاقيّ في العربيّة طابعَ العلم. لقد كان الجاحظ يحسّ بالنقص الذي يُعانيه درس الأخلاق عند مَنْ سبقه من المؤلّفين داخل الثقافة العربيّة – الإسلاميّة ؛ كابن المقفّع مثلا ؛ فأراد أن ينقل محاولاتهم الخلقيّة من مرحلة السّرد المحايد للروايات المتوارَثة ، والمُرسَلة هكذا ، إلى مرحلة المسائل المعلّلة التي ترتدّ فيها الفروع إلى أصولها والظّواهر إلى أسبابها . وفي هذا السياق يقسّم الجاحظ العِلَل الأخلاقيّة أو علاقة الأسباب بالنتائج في الأخلاق إلى : علاقة حتميّة ، وأخرى جوازيّة [١].

ولعلّ من الخير أن أُبين عن تلك الرغبة في التأصيل والتعليل عند الجاحظ بعبارته هو ، حيث يقول :" ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي ، قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقّ ، وأحسنوا فيها الدّلالة ، إلاّ أنّي رأيتُ أكثرَ ما رسموا من ذلك فروعاً لم يبيّنوا عِلَلها ، وصفات حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها" [٢]. ثمّ يُنحي بلومٍ رفيق على الأدباء والحكماء السابقين له ممّن تعرّضوا للحديث في الأخلاق ؛ إذ كانت عادتهم أن يُوردوا أحكامها مُجْمَلةً دون بيانٍ للأصول التي تنبثق عنها الفروعُ ، أو للأسباب والبواعث المؤدّية إليها ، يقول : " فإنْ كان ما فعلوه من ذلك رواياتٍ رَوَوْها عن أسلافهم ، ووِراثات ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة مَن استنبط ، وإن كانوا تركوا الدلالة على عِلَل الأمور – التي بمعرفة عِلَلها يُوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنتَهى إلى غاية الاستبصار منها – فلم يَعْدُوا في ذلك منزلةَ الظنّ بها" [٣]. وفي الحالتين تظلّ كتاباتهم في الأخلاق قاصرةً عن أن تُسمّى علماً ، حتّى يقفوا على العِلَل اليقينيّة لـ" الأمور" الخلقيّة .

ثمّ يُعلن عن عزمه سدَّ تلك الخلّة في البحث الخلقيّ ، إذ يقول : " فألّفت لك كتابي هذا [المعاش والمعاد] إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطّبائعَ التي رُكّب عليها الخَلْقُ، وفُطرتْ عليها البرايا كلُّهم ، ثمّ مبيّن لك كيف تفترق بهم الحالاتُ ، وتفاوتُ بهم المنازلُ ، وما العِلَل التي يُوجب بعضُها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ؛ متى كان الأوّل كان ما بعدَه ، وما السّبب الذي لا يكون الثاني فيه إلاّ بالأوّل ، وربما كان الأول و لم يكن الثاني ، وفرقَ ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً ، ولِمَ اختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ؟ ... وما

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ٩٧ . وكذلك ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ٩٦ .

(٣) المعاش والمعاد ، ص ٩٦ – ٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتّى تُستمال ... ؟ وكيف يُتأتّى لِيُنتَقَضَ ما فيهم من الطبائع المذمومة ، حتّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ - وراسمٌ لك في ذلك أصولاً ، ومبيّن لك مع كلّ أصلٍ منها علّته وسببه" (١).

وهذا النـــزوع المستمرّ نحو التأصيل وبناءِ معرفة خلقيّة تقوم على عِلَل وأسباب واضحة ، يأخذ أحياناً شكل الدعوة إلى إنشاء علمٍ أشبه ما يكون – حديثا – بعلم نفس الشخصيّة ، وأحياناً بعلم نفس المجتمع ، عندما يدعو الجاحظ إلى معرفة ما طُبع عليه الناسُ من استعدادات خلُقيّة ، وأنواعِ الروابط التي تصل بينهم ، وعِلَل ذلك كلّه ؛ حتى يصبح من السّهل على الإنسان أن يتواصل مع غيره مـــن النـــاس ويتعاملَ معهم على بيّنـــة ، وهـــو قادرٌ على حَدْس كثيرٍ مّما يدور في نفوسهم . يقول :" فَمَنْ عرف ما طُبع عليه الخلقُ وجرتْ به عاداتُهم ، وعرف أسباب اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصّى عِلَل ذلك ، كان خليقاً – إنْ لم يُحِطْ بعلم ما في قلوبهم – أن يقع من الإحاطة قريباً" (٢).

فالجاحظ – إذن – معنيٌّ باستكشاف عِلَل سلوكات الناس ، واستبطان طبائعهم وما فُطـــروا عليه ، والوقوف على الأصول العميقة لتصرّفاتهم وأخلاقهم ، دون الاكتفاء بمعرفة ظواهرها ، وما يطفو منها على السّطح القريب المشاهَد . ولذلك تجده يُكثر من طرح الأسئلة التعليليّة التي تبدأ بـــ (لمـــاذا) و(لِمَ) و (كيف) ، ثم يجتهد في وضع الفرضيـــات الملائمة للإجابة عنها . ولكنّ هذا كلّه يتـــم – عند الجاحـــظ – بصورة أوليّة فجّة ، يُعوزها بعض النظام وصرامةُ المنهج واطّـــراده . بيـــد أنّ هـــذا الأسلوب – على كلّ حال ، وبالرغم من هناته التي لا تخفى – يفترق عن أسلوب القدماء : السّـــابقين للجاحظ ، والمعاصرين له ، في تناول الموضوعات الخلقيّة ، وخاصّة ابن المقفّع ، الذي لم يكن يتجـــاوز تقرير الأحكام ، ونقلَ آثار المتقدّمين ، في شيء من النظام والتنسيق ، من غير تعليل أو تأصيل أو إظهار للعلاقات الضمنيّة التي تربط بين بعض الأخلاق ، وبمعنى آخر : دون إرســـاءٍ لقواعد منـــهجٍ علمـــيّ مقبول في دراسة الأخلاق . (٣) وهو يصرّح بذلك في قوله – في معرض بيان طريقتـــه في التـــأليف في الأخلاق – : " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيـــل ، وأن يقولوا قـــولاً بديعـــاً فلْيعلـــم الواصفون المخبِرون أن أحدهم – وإن أحسن وأبلغ – ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصـــوص ،

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ٩٧ ، وانظر – كذلك – ص ٩٥ ، الفقرة الأخيرة ، وأيضاً ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ١٢١ .

(٣) انظر مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق محمد طه الحاجريّ ، مقدمّة المحقّق لرسالة المعاد والمعاش ، ص ١١٧ – ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائدَ وسموطاً وأكاليل ، ووضع كلّ فصّ موضعَه ، وجمع إلى كلّ لون شبهه ، ممّا يزيد بذلك حسناً ، فسُمّي بذلك صانعاً رفيقاً " (١).

ولتوضيح تعلُّق الجاحظ بالبحث عن العِلَل والأصول في معالجاته الأخلاقيّة – نأخذ المثال التالي من رسالة " كتمان السرّ ، وحفظ اللسان " ؛ ففي صدد تفسيره شغف الناس بإفشاء الأسرار وتناقل الأخبار ، وما يجدونه من مشقّة وكَرْب في كتمانها وحفظ ألسنتهم ، لم يكتفِ بالنظر إلى المسألة في ظاهرها ؛ وإنّما أخذ يبحث في أصولها البعيدة ، محاولاً استنباط عللها الجذريّة العميقة . ولذلك أعاد طرح المسألة / المشكلة بصيغةٍ جديدة أكثر شموليّة ، ووسّع نطاقها لتضمّ – بالإضافة إلى البحث في أسباب إفشاء الأسرار والتحدّث بفُضول الكلام – البحث في أسباب حرص الإنسان – عموماً – على كلّ ما مُنِع منه ، وإنْ لم يكن له فيه نفعٌ ، وامتهانه – بالمقابل – لما ظفر به وكثُر بين يديه ، وزهده فيه ، وإنْ كان قبل حصوله عليه شديدَ الطلب له ، والتشوّق إليه (٢)

فيضع لهذه المسألة العامّة – التي أصبحت معها مسألةُ إفشاء الأسرار مسألةً فرعيّة منبثقةً عنها – فرضيّةً تقوم على مبدأين :

الأوّل : أنّ الله – سبحانه – فطر الناس على طبائعَ عامّةٍ ، وأنّ كلّ طبيعة من تلك الطبائع يترتّب عليها أفعالٌ وتصرّفات معيّنة ، وأنّ تلك الأفعال تلبّي رغبةً وتُشبع لذّة عند الإنسان ؛ إذ كانت موافقةً لهواه المسايرِ للطبْع الذي فُطر عليه . وأمّا مغالبة تلك الطبائع ومحاولة كبح جماحها ، فذلك أمرٌ يكلّف الإنسان جهداً وعَنَتاً ؛ لأنّه يَحمله على امتثال أوامر العقل المخالفةِ لدواعيْ الطبع والهوى المستحكمَين فيه . وحبُّ الإخبار والاستخبار فطرةٌ طُبعَ عليها الإنسان ، يجد في الاستجابة إليها لذّةً كبيرة ، ويصعب عليه مفارقتُها . وبذلك فإنّ إفشاء السّر وإطلاقَ اللسان بفضول الكلام فعلٌ يتمشّى مع فطرة الإنسان ويجد علّته في جبلّته الأولى ؛ فلا عجب إذا كان يستمتع به ويستريح إليه . بينما " كتمان السرّ وحفظ اللسان " هما خلقانِ مخالفان لتلك الفطرة ؛ فكان الإنسان يجد فيهما كرْباً ومشقّة . والمرءُ إلى فعلِ ما يعود عليه بالمتعة واللّذة – أقربُ منه إلى ما يكلّفه العنَت والكرْب (٣).

---

(١) ابن المقفّع – الأدب الصغير ، ص ١٢ – ١٣ .

(٢) انظر رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان ، في رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١

(٣) كتمان السر ، ص ١٤٣ – ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا المبدأ الثاني الذي وضعه الجاحظ لتفسير هذا السلوك ، فهو مرتبط بالمبدأ الأوّل ؛ وخلاصتُه : أنّ الله – سبحانه – قد جعل لكلّ نفسٍ وُسعاً ، ولكلّ حاسّة قوّةً من الرّغبة أو الشّهوة ، لا يمكنها تجاوزها أو الزّيادة عليها . وما دامت تلك القوّة لم تمتلئ من محسوسها الذي تشتهيه ، بقيت توّاقةً إليه ، راغبةً في الحصول عليه ؛ إمّا لحاجتها إليه إذا كان ضرورياً لها ، وإمّا لأنّه من طُرَف شهواتها . فإذا ما أدركتْ حاجتها منه ، وبلغت مداها في تحصيله ، زهدتْ فيه ، وانقلب حبّها له كُرْهاً وتقزّزاً ؛ كذلك في المأكل والمشرب والشمّ والسماع والباه . والأمرُ في هذا متفاوتٌ بحسب مقدار قضاء الحاسّة لوطرها من المحسوس ، ومدى قرب عهدها به وبعدها عنه .[١]

وبعد إرساء هذين المبدأين يعودُ الجاحظ إلى المسألة العامّة ؛ وهي وُلوع الناس بكلّ ممنوع ، وإنْ لم يكن لهم فيه نفعٌ ، فيقرّر أنّ " الحِرْص على الممنوع الذي لا يُنتفع به ، والعجب ممّا [لا][٢] يُتعجّب من مثله ، ليس من أخلاق العُقلاء ، وما لم يكن في أخلاقهم ، فلا نظر فيه ، ولا قياس عليه ؛ وإنّما ذلك فعلُ مَن استوحش من الحُجّة ، وشرد عن علم العلل والأسباب ".[٣]

وأمّا المسألة الفرعيّة المتمثّلة في شغف الناس بإفشاء الأسرار ، فَحُكْمُها حكْمُ المسألة العامّة ؛ أي أنّ إفشاء السرّ الذي ليس فيه جَلْبُ منفعة ولا دفعُ ضرر ولا أيُّ تدبير معروف ليس من أخلاق العُقلاء ، ولا قياس عليه ؛ لأنّه لا يحقّق لذّة لأية حاسّة من حواسّ الإنسان ؛ لعدم حاجتها إليه ، ولأنّه لا يُعَدّ من طُرَف شهواتها ، بناءً على المبدأين السّابقين . وأمّا ما يكون فيه النظرُ ، ويجري عليه القياس ، فهو " إفشاء السرّ المتّصل بالخبر الرائع ، والخَطْب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنع الأبلق[٤] ؛ مثل سرّ الأديان ؛ لغلبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك في كَيْد أعدائهم ، ومكنون شهواتهم ، ومستور تدبيراتهم ، ثمّ مَنْ يليهم من العظماء والجِلّة ؛ لنفاسة العوامّ على الملوك . ثمّ عداوات الإخوان ؛ فإنّما صارت العداوة بعدّ المودّة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه وإحصائه معايبَه ، وربّما كان في حال الصداقة يجمع عليه السّقطات ويُحصي العيوب ويحتفظ بالرّقاع ؛ إرصاداً ليوم النّبْوة ، وإعداداً لحال الصّريمة "[٥]. فهذا

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .

(٢) ساقطة من الأصل ، وأرى المعنى يقتضيها ؛ لأنّ العقلاء إنّما يتعجبون ممّا يجوز أن يُتعجّب من مثله ، وأمّا التعجّب ممّا لا يُتصوّر العجب فليس هذا من صفتهم .

(٣) كتمان السرّ ، ص ١٥٨ .

(٤) الأشنع : الفظيع والقبيح . اللّسان ، مادّة (شنع) . والبلق : سواد وبياض ، وعن ابن سيده : ارتفاع التحجيل إلى الفخذين . اللّسان ، مادّة (بلق) . ولعلّ المقصود بها قريب ممّا قُصد بالكلمة السابقة ؛ وهو الشهرة والظهور .

(٥) كتمان السرّ ، ص ١٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلّه ممّا تستطرفه النفوس ، ويلذّ الآذانَ سماعُه ؛ لأنّــه يملأ وُسْعها ، ويستفرغ جزءاً من قواهــا الــتي تُنازعها إلى سماع كلّ طريفٍ ونادر ، تمشّياً مع طبيعة النفس في حبّ الإخبار والاستخبار .

فهذه هي الأسباب التي تُغري الناس بتعقّب الأسرار ، ثمّ إذاعة ما يظفرون به منها ونشــــره ، ومبالغتهم في الحرص على ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً :مصادر الأحكام الخلقيّة عند الجاحظ :

يرتكز الجاحظ فيما يقرّره من أحكام خلقيّة على مصادر معرفيّة ثلاثة ، نوردُها مجملةً في النصّ التالي مِنْ كلامه ثمّ نأخذ في تفصيل القول فيها :

يقول في فاتحة " كتاب الحيوان " ، في سياق الردّ على مَنْ أزرى على كتبه وعابه بها : "فإن كنّا أسأنا في هذا التقريع والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن ، ولا بأدب الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، و لم يَفْزَع إلى ما في الفِطَن الصحيحة ، وإلى ما تُوجب المقاييس المُطّردة ، والأمثال المضروبة ، والأشعار السّائرة – أولى بالإساءة ، وأحقُّ باللائمة . قال الله – عزّ وجلّ – : " ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرى " [١]، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا تَجْنِ يمينُك على شِمالك " .
وهذا حُكْم الله تعالى ، وآداب رسوله ، والذي أُنزل به الكتابُ ، ودلّ عليه حُجج العقول " . [٢]

(١) النصّ ، ويشمل :

(أ) النصوص الدينيّة :

يعتمد الجاحظ في تناوله للأخلاق على مضامين التراث العربيّ – الإسلاميّ ، اعتماداً بيّناً . وقد احتلّت النصوص الدينيّة موقعاً متميّزاً في هذا التراث منذ ظهور الإسلام ؛ فليس غريباً أنْ تساهم تلك النصوص – بقدر كبير – في تشكيل الأساس المعرفيّ الذي يصدر عنه الجاحظ في تفكيره في الموضوعات الخُلُقيّة وفي غيرها ، خاصّة إذا علمنا أنّ الجاحظ يُعدّ من أبرز روّاد المدرسة البيانيّة العربيّة ، التي تتّخذ من النصوص التراثيّة أساساً لثقافتها ، في مقابل الثقافتين : اليونانيّة والفارسيّة ، اللتين كانتا تزاحمان الثقافة العربيّة في ذلك العصر [٣]. هذا ، إنْ لم يكن هو أبرزَ روّاد تلك المدرسة على الإطلاق ،

---

(١) سورة الإسراء ، آية ١٥ .

(٢) انظر الجاحظ – كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . ويعضد هذا النصّ نصٌّ آخر يعدّد فيه الجاحظ مصادره فيما يسوق من أدلّة وشواهد ، في أثناء المناظرة التي عقدها في الكتاب بين صاحب الكلب وصاحب الدّيك ، ج١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) انظر بعض صور هذه المزاحمة في حديث د . شوقي ضيف عن الشعوبيّة – في كتاب العصر العباسيّ الثاني ، ص ٩٧ – ١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتاب " البيان والتبيين " الذي يهدف إلى تأسيس ثقافة بيانيّة عربيّة خالصة – دليلٌ واضحٌ على ذلك [١].

صحيحٌ أنّ الجاحظ – شأنه شأن غيره من علماء المعتزله – يُولي العقل عنايةً بالغة ، ويعتدّ به مصدراً أساسياً لتحصيل المعرفة ، ولكنّه مع ذلك لا يقدّمه على النصّ الدينيّ إنْ صحّ لديه ، بل يجعل من وظيفته فهمَه وحُسْن تأويله ؛ ولذلك يكثر عنده الاستشهاد والاستدلال بالنصوص الدينيّة من آيات وأحاديثَ في مناقشة المسائل الخلقيّة . [٢]

وبناءً على ذلك ، يمكننا أن نُرجع كثيراً من معايير الجاحظ الأخلاقيّة إلى أصول دينيّة ، تستند إلى نصوص القرآن والسنّة النبويّة . مِنْ ذلك – مثلاً – ما يقرّره من أنّ الحُكم على الإنسان في الدنيا بالصلاح أو الفساد إنّما يحدّده الغالبُ من أفعاله ؛ فإنْ غلبتْ عليه الأفعالُ الصالحة فهو عَدْلٌ في الجملة وإنْ هفا ، وإنْ غلبت عليه الأفعالُ الجائرة فهو فاسد وإنْ أحسن في بعض الأمور . ويصرّح الجاحظ بأنّه يستلهم هذا الحكمَ من معيار دينيّ أُخرويّ متّفقٍ مع ما هو " قائمٌ في العقول ، وما جرتْ عليه المعاملةُ ، واستقامت به السياسةُ" [٣]، وهو المعيار الذي به يُقضَى على الإنسان بأنّه من أهل الجنّة أو من أهل النار ؛ إذ العِبرةُ هناك برجحان الحسنات أو السيّئات في ميزان العبد ؛ " وذلك أنّ أحداً من الخَلْق لا يخلو من هفوةٍ أو زلّة أو غفلة ، فأخبر [الله سبحانه] أنّ مَنْ كانت حسناته الراجحةَ على سيّئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريقِ الفوز بالإفلاح . ومَنْ مالت سيّئاته بحسناته ، كان العطب والعذاب أولى به " [٤].

---

(١) شوقي ضيف – العصر العباسي الثاني ، ص ٩٨ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) الشواهد الدينيّة مبثوثة بكثرة في ثنايا رسائله الخلقيّة ، انظر على سبيل المثال رسالةَ (المعاش والمعاد) ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ . ورسالة (كتمان السرّ وحفظ اللسان) ، ص ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، و (رسالة الجِدّ والهزْل) ، ج ١ ، ص ٢٥٩ ، ورسالة (مفاخرة الجواري والغِلمان) ، ج٢ ، ص ٩٩ – ١٠٤ ، ورسالة (الحاسد والمحسود) ، ج٣ ، ص ٤ ، ٦ ، ٢١ ، ورسالة (النبل والتنبّل وذمّ الكِبْر) ، ج٤ ، ص ١٧٤ ، ١٧٩ . ويكثر في هذه الرسائل دَوَران المفاهيم والمصطلحات الدينيّة ؛ مثل : التكليف ، والابتلاء ، والنعمة ، والتوبة ، والعذاب ، والحسنات ، والسيّئات ، والميزان ، والفِسْق ، وغير ذلك من مصطلحات ذات دلالات دينيّة . انظر – مثلاً – رسالة (المعاش والمعاد) ، ص – ٩٩ وما بعدها . أمّا ألفاظ : الله ، والدين ، والآخرة ، فيعسر أن نحصيها كثرةً في تلك الرسائل ؛ إذ هي تدلّ على حقائق مركزيّة فيها .

(٣) المعاش والمعاد ، ص ١٠٢ . ويتأكّد هذا الاتّفاق بمقارنة ما ذهب إليه الجاحظ هنا ، بقول أرسطو ، نوحي من عقله : " حقٌّ مَنْ لا يحيد إلاّ قليلاً جدّاً عن الخير لا يستهدف للذمّ ، سواء حاد عنه إلى جهة الأكثر [بالإفراط] ، أو حاد عنه إلى جهة الأقلّ [بالتفريط] . في حين أنّ الذي يبتعد عنه أكثر لا يمكن أن يفرّ من الانتقاد على خطيئةٍ كلٌّ امرئ يراها " ، انظر هذا النصّ في أرسطو – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤) المعاش والمعاد ، ص ١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبني على هذا أنّ الإنسان إن استطاع أن يبلغ بأعماله غايةَ الطّاعة والامتثال لأوامر الله وزواجره فبها ونعمتْ ، وإن لم يستطع فعلى الأقلّ أن يكون الغالب على أفعاله الطّاعة ، مع الندم عند الإساءة.[١] .

وخلاصةُ القول أنّ المعيار الذي يحكّمه الله – سبحانه – في وَزْن أفعال العباد يومَ القيامة ؛ للتمييز بين أهل الجنّة والسّعادة وبين أهل النار والشّقاوة ، هو نفسُه – في رأي الجاحظ – الذي دأب الناس على اتّخاذه لتقييم بعضهم في الدنيا ، والذي ينبغي أن يتّخذه الإنسان موجّهاً لسلوكه في الحياة ؛ فيحرص على أن يكون الصلاح هو الغالبَ على أفعاله ، " كذلك جرتْ معاملات الخَلْق بينهم ، يُعدّلون العادلَ بالغالب من فعله وربّما أساء ، ويُفسّقون الفاسق وربّما أحسن . وإنّما الأمور بعواقبها ، وإنّما يُقضى على كلّ امرئ بما شاكل أحوالَه" [٢]

ولكنّ هذا لا يعني أنّ عقل الجاحظ كان يستسلم للنصوص الدينيّة والمنطق الذي تفرضه استسلاماً كاملاً ، إذن لانتفى الفرق بينه وبين أيّ مفكّر سُنّيّ تقليديّ يتّخذ من نصوص التراث العربيّ ، وفي مقدّمتها النصوص الدينيّة منطلَقاً وحيداً لبحثه وتفكيره في الموضوعات التي يتناولها ، ويقف عند ذلك الحدّ . حقٌّ أنّ الجاحظ كان يستند في تفكيره إلى العلوم البيانيّة العربيّة ، وفيها النصوص الدينيّة غير أنّه لم يكن يرضى بأن يقف عند هذا الحدّ ، حتّى يُعمل عقلَه في تلك النصوص . وإعمالُ العقل هنا يتّخذ منحيين ؛ المنحى الأوّل : يتمثّل في تحقيق تلك النصوص والتأكّد من صحّتها ، خاصّة فيما يتعلّق بالأحاديث والآثار . وقد أسهب الجاحظ في تفصيل وجوه إصابة العلم بها في رسالة " المعاش والمعاد " ممّا لا مجالَ لإثباته هنا ، فيُرجَع إليه في موضعه [٣]. والمنحى الثاني : يتمثل في تأويل تلك النصوص بما يُوافق بدهيّات العقل السّليم . وبذلك يُصبح العقلُ معياراً على النصّ ، كما كان النصّ رافداً للعقل ؛ بمعنى أنّ العقل يُفيد من النصّ مادّة جديدة ، ولكنّه لا يتحجّر عندها ، ولا يركن إليها تماماً ؛ بل يُؤوّلها ويُحاكمها وينتقي منها . وقد صرّح الجاحظ بهذا المنحى في سياق كلامه على أنواع الأشربة وحُكْمِ تعاطيها ؛ إذ قال موضّحاً منهجه في الرّسالة :" وكرهتُ أيضاً تقليد المختلف من الآثار ؛ فأكونَ كحاطب ليل ، دون التأمّل والاعتبار بأنّ ظلام الشكّ لا يجلوه إلاّ مفتاحُ اليقين " [٤]. وبهذه الطريقة يجمع الجاحظ بين المعرفة الدينيّة والمنطق العقليّ في معالجة الأخلاق.

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١٠٢ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ١٠٢.

(٣) انظر المعاش والمعاد ، ص ١١٩ – ١٢٠ ، وانظر -- أيضاً – الفصلَ الثالث من هذا البحث ، ص١٠٩ – ١١٠ .

(٤) رسالة الشارب والمشروب ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك فإنّ " مفهوم العقل " عند الجاحظ لا يمكن فصله عن معطيات الدين ؛ لأنّها أصبحت تشكّل مكوّناً من مكوّناته ، وجزءاً من بنيته الداخليّة ، التي تحدّد منطقَه الخاصّ في التعامل مع الأشياء والظواهر . وبكلمةٍ واحدة : إنّه عقلٌ متديّن ، تمتزج فيه المعرفة الدينيّة بالمعرفة العقليّة لتشكّلا معاً منطقاً واحداً منسجماً وجديداً ، يختلف عن منطق كلّ منهما بمفردها ، مع أنّه يُفيد منهما جميعاً . فليس فكر الجاحظ فكراً دينيّاً صِرْفاً ، وليس – في المقابل – فكراً عقليّاً محضاً ؛ بل هو فكرٌ جديد ، تكوّن من تلاقح هذين الفكرين ، واندماجهما معاً . يظهر ذلك في نصّ صريح يحدّد فيه الجاحظ مصادر التحليل والتحريم ، حيث يقول في معرض الردّ على مَنْ يقنع بالتقليد ويستغني به :" وإنّما يُعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق ، والسنّة المُجمَع عليها ، والعقول الصحيحة ، والمقاييس المُصيبة " [١].

ولتوضيح الفكرة ، أضرب هذا المثال ، وهو من داخل الفكر الاعتزاليّ الذي ينتسب إليه الجاحظُ ،ويُعَدّ قُطباً من أقطابه . ومثالنا خاصّ باثنين من مبادئ المعتزلة التي يُقيمون عليها مقولاتهم ؛ أمّا الأول فهو مبدأ التحسين والتقبيح في الآراء الاعتقاديّة والأحكام الشرعيّة والمسائل الخُلُقيّة . ويعني هذا المبدأ عندهم – فيما يختصّ بالموضوع الذي نحن بصدد دراسته – أن الأحكام الخلقيّة أحكام اصطلاحيّة ؛ راجعة إلى تقدير العقول الصحيحة وتمييز الفِطَر السّليمة ، وأنّ الشّرع يأمر بما هو حَسَنٌ في ذاته منها ، وينهى عمّا هو قبيحٌ في ذاته أيضاً ، وليس أنّ الخُلُق يَحسُن لأنّ الشّرع أمر به ، أو يقبح لأنّ الشّرع نهى عنه ؛ فالحُسْنُ والقُبح سابقان لحكْم الشّرع ، وراجعان إلى رأي العقل والفطرة . يقول الشهرستانيّ في تبيان هذا المبدأ من مبادئ المعتزلة : " واتّفق المعتزلة على أنّ أصول المعرفة وشكر النعمة واجبةٌ قبل وُرود السّمع . والحُسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل . واعتناق الحَسن واجتناب القبيح واجبٌ كذلك . وورودُ التكاليف ألطافٌ للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسّط الأنبياء عليهم السّلام ؛" ليهلِك من هلك عن بيّنة ، ويحيا من حيَّ عن بيّنة " [٢].

هذا المبدأ ينهض بشَطْر المثال ، والشطرُ الثاني يتمّه المبدأ الاعتزاليّ القائل بـ " العَدْل" ، وما ينبثق عنه من قولٍ بالصلاح و الأصلح ؛ بمعنى أنّ الله – سبحانه – لا يفعل إلاّ ما هو حَسَن ، وما فيه مصلحة عباده وخيرهم ، ولا ينهى إلاّ عمّا هو قبيحٌ ، وما فيه شرّ لهم. يقول الشهرستاني :

---

(١) رسالة الشارب والمشروب ، ص ٢٧٧ .

(٢) سورة الأنفال من آية ٤٢ . انظر الشهرستانيّ – الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ج١ ، ص ٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" واتّفقوا على أنّ الله – تعالى – لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعايةُ مصالح العباد ، وأمّا الأصلح واللُّطف ففي وجوبه عندهم خلاف ، وسمّوا هذا النمط عدلاً " [١].

وبذلك يصبح العقل والشريعة مركّباً واحداً ؛ هذا المركّب هو الذي يشكّل حقيقة فكر الجاحظ – والمعتزلة عامّة – في تناول المسائل الخلقيّة ؛ المركّبُ الذي يقترن فيه العقل بالشّريعة ، ليس على سبيل التناقض ، ولا حتّى على سبيل التجاور المُستقِل ؛ وإنّما على سبيل التمازج والتواشج .

ومن الأمثلة على هذا التمازج بين المعرفة الدينية والمعرفة العقليّة في تراث الجاحظ الأخلاقيّ ، ذلك المنحى الذي سلكه في معالجته لمسألة الغناء ، حكايةً عن جماعة من المقيّنين والظرفاء في عصره وهل هو حلال أو حرام ؛ إذ استند فيه إلى حكم الشعر ، وخرج منه إلى أنّه لا بأس بالغناء " إذا كان أصلُه شعراً مكسوّاً نغماً : فما كان منه صدقاً فَحَسنٌ ، وما كان منه كذباً فقبيح . فإذا وجب أن الكلام غيرُ محرّم ، وأنّ وزن الشّعر من جنس وزن الغناء ، وكتاب العَروض من كتاب الموسيقى ، وهو من كتاب حدّ النفوس ، تحدّه الألسُن بحدّ مقنع ، وقد يُعرف بالهاجس كما يُعرف بالإحصاء والوزن – فلا وَجْه لتحريمه " [٢]. هذا من ناحية النظر العقليّ ، وأمّا من ناحية النصوص الشرعيّة ؛ فإنّه " لا أصل لذلك [التحريم] في كتاب الله – تعالى – ولا سنّة نبيّه – عليه السلام –" [٣]. وفوق ذلك فإنّ الجاحظ يستند إلى النصوص الشرعيّة نفسها في بناء حكمه بتحليل الغناء ، انطلاقاً من الحكم بتحليل الشّعر ؛ من ذلك استشهادُه بقول النبيّ – ص – : " إنّ من الشّعر لحكمه " ، وقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – :" الشّعر كلامٌ ؛ فحسَنه حَسَنٌ ، وقبيحه قبيح " [٤].

ولتأكيد العلاقة المتينة التي تربط بين الأخلاق والدين يستشهد الجاحظ بقول لأحد الحكماء ، يُبالغ في الربط بينهما فيه إلى درجة كبيرة ؛ يقول :" إنّ من أصعب الأعمال :إنصافَك في نفسك ، ومواساتَك أخاك في مالك ، وذِكْرَ الله . أمّا إنّي لا أعني قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر ، – وإنّ ذلك لمن ذِكْرَ الله – ؛ ولكنْ ذكرَه عند ما يَعرض من الأمور : فإنْ كان طاعةً

---

(١) الملل والنحل ، ص ٤٥ .

(٢) انظر رسالة القيان ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج٢ ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

(٤) المصدر نفسُه ، ص ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لله فعلتَه ، وإنْ كان معصيةً لله اجتنبته " [١]. فمن الواضح أنّ صاحب هذا القول – والجاحظ يُؤيّده ، ويستشهد به – قد فهم " ذِكْر الله " باعتبار أثره في توجيه سلوك الإنسان في حياته العمليّة ، سيراً على النهج الذي رسمه الدين الإسلاميّ عندما أنكر – في نصوصه التأسيسيّة – الفصلَ بين شؤون الدنيا وشؤون الدين ، وأكّد قيام نوعٍ من الارتباط التكامليّ بينهما ؛ يقول – سبحانه – :" ومَنْ كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً " [٢]، ويقول أيضاً : " يوم يأتي بعضُ آيات ربّك ، لا ينفع نفساً إيمانُها ، لم تكن آمنتْ من قبلُ ، أو كسَبت في إيمانها خيراً " [٣]، والخير – هنا – يعني العمل الصالح ؛ أي العمل الذي يتّفق والمعاييرَ الأخلاقيّة التي تضمّنتها النصوص الدينيّة نفسُها صراحةً أو كانت مصدراً لاستنباطها . وبذلك ، فإنّ الجاحظ – على لسان ذلك الحكيم – يرسّخ ما تضمّنه الإسلام من توسيعٍ لمفهوم العبادة أو " ذِكْر الله " ، متجاوزاً به الصِّيَغ اللفظيّة التي يُؤديها اللسان وحدَه ، ومحرّراً إيّاه من سجن الكلمات ؛ ليشمل جميع السّلوكات والتصرّفات التي تصدر عن الإنسان في مساعيه العمليّة في جوانب حياته كافّة ، وتشترك فيها جميع حواسّه على اختلاف وظائفها . وهذا يؤدّي إلى تحويل العبادة من وظيفة قوليّة إلى طائفةٍ غير محدودة من الوظائف والأنشطة العمليّة السلوكيّة التي ينبغي أن تخضع لمعيارٍ أخلاقيّ واحد ؛ وهو معيار الالتزام بما فيه طاعةُ الله ، واجتناب معاصيه .

ومن آثار النزعة الدينيّة في معالجة الأخلاق أنّ الجاحظ يقف – أحياناً – واعظاً أو مرشداً ، وتلتبس نبرته – حينئذٍ – بنبرة المعلّم أو المربّي ، بما فيها من إشفاق على المتعلّم ، وحرص على منفعته . ولكنّه – على كلّ حال- معلّمٌ يحترم عقل تلميذه وذوقَه [٤]؛ فلا يجعل إرشاده له تقريراً خالصاً ، بل يفصّله بألوان من البراهين العقليّة ، والشواهد التاريخيّة ، والأشعار المرويّة ، والحِكَم المأثورة ، والأمثال السّائرة . وناهيك – في ذلك كلّه – باختيار أبي عثمان لما يلائم الموضع ، ويروق القارئ . من أمثلة ذلك قولُه في أوّل رسالة " المعاش والمعاد " : " فأوّل ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ؛ فإنّها جماع كلّ خير ، وسبب كلّ نجاة ، ولِقاح كلّ رُشد . هي أحرز حِرز ، وأقوى مُعين ، وأمنع جُنّة . هي الجامعة محبّةَ قلوب العباد ، والمستقبلةُ بك محبّة قلوب مَنْ لا تجري عليهم نعمُك . فاجعلها عُدّتك

---

(١) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٦٢ ، وانظر في الصفحة نفسها قولاً آخر يعضّد هذا المعنى ، ويكرّس اعتماد معيار دينيّ في توجيه السّلوك ، وفيه أنّه " ورُوي عن بعضهم أنّه قال : ثلاثةٌ في ظلّ عرش الله ن يومَ لا ظلّ إلاّ ظلّه : ... [منهم] رجلٌ لم يقدّم يداً ولا رجلاً حتّى يعلم ؛ أفي طاعة الله هو ، أم في معصيته ".

(٢) سورة الإسراء ، آية ٧٢ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ١٥٨ .

(٤) ولذلك وُصف بأنّه " معلم العقل والأدب " ، ثمّ اتّخذ شفيق جبري من هذه العبارة عنواناً لكتابه عن الجاحظ . راجع شفيق جبري – الجاحظ ؛ معلم العقل والأدب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسلاحك ، واجعلْ أمر الله ونهيه نُصب عينيك ، وأحذّرك ونفسي الله والاغترارَ به ، والادّهان في أمره ، والاستهانة بعزائمه ، والأمن لمكره ؛ فقد رأيتَ آثاره في أهل ولايته وعداوته ؛ كيف جعلهم للماضين عِبْرة ، وللغابرين مثلاً " [١]. وكذلك قولُه في " كتاب الحيوان " ، في سياق التحذير من أسباب الانحراف الجنسيّ ، خاصّة عند النساء – :" وبابٌ من هذا الشّكل ، فبِكُم أعظم حاجةٍ إلى أن تعرفوه ، وتقفوا عنده ؛ وهو ما يصنع الخبر السّابق إلى السّمع ، ولا سيّما إذا صادف من السّامع قلّةَ تجربة ، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك ، رسخ رسوخاً لا حِيلة في إزالته . ومتى أُلقي إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات ، في وقت الغرارة ، وعند غلبة الطبيعة ، وشباب الشّهوة ، وقلّة التشاغُل . وكذلك متى أُلقي إلى الفتيان شيءٌ من أمورهنّ وأمور الغِلمان ، وهناك سُكْر الشباب ، فكذلك تكون حالهم ... . وكذلك إذا خَلَت العجوز المدرّبة بالجارية الحَدَثة ، كيف تخلبها . وأنشدنا :

فأتتها طَبّةٌ عالمة ... تخلط الجِدّ بأصناف اللعبْ
ترفع الصوت إذا لانت لها ... وتناهَى عند سَورات الغضبْ

وقال الشاعر فيما يشبه وقوعَ الخبر السابق إلى القلب :

نقّلْ فؤادَك حيث شئت من الهوى ... ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ... وحنينُه أبداً لأوّل منزلِ

وقال مجنون بني عامر :

أتاني هواها قبلَ أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكّنا[٢]

ومّما يصحّ أن يُستشهد به على أنّ الدين يشكّل أحد مصادر الإلزام الخلقيّ عند الجاحظ : ما يقرّره – عَقِبَ الإشارة في كتاب الحيوان إلى طِيب لحوم الخنازير ، وتفضيل ملوك الأمم السابقين لها ؛ كالأكاسرة والقياصرة – مِنْ أنّ السّبب في امتناعنا – نحن المسلمين – عن أكلها لا يرجع إلى شيء في جوهرها [٣]، وأنّنا " لم نَدَعْ لحمه من جهة الاستقذار ؛ لشهوته في العَذِرة ، ونحن نجد الشّبوط والجرّيّ [ضربان من السّمك] والدجاجَ والجراد يشاركنه في ذلك ؛ ولكنّ للخِصال التي عدّدنا من

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ٩٩– ١٠٠ .

(٢) الجاحظ – كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١ ، ص ١٦٨ – ١٦٩ . وراجع – كذلك – في الفصل الثالث من هذا البحث : توجيه الحديث إلى المتلقّي بصيغة الخِطاب المباشر ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) الحيوان ، ج٤ ، ص ٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسباب العبادات ، وكيف صار أحقّ بأن تُمسخ الأعداء على صورته في خِلْقته " [١]، " ولولا التعبّد لجرى عندنا مجراه عند غيرنا " [٢].

وكنّا قد أشرنا من قبلُ [٣] إلى أنّ الجاحظ يستند بدرجةٍ كبيرةٍ في آرائه وأحكامه إلى العقل ، ويتّخذ منه أداةً لتأويل النصوص ، وتوجيهها وجهةً يقبلها . وليس بين هذا القول وبين ما أسلفنا آنفاً أيُّ تناقض ؛ فإنّ الاحتكام إلى رأي العقل — مهما اتّسع مداه — له مواضعُ ، وليس قضايا التعبّد مما يجوز فيه ذلك ؛ كمقادير الزكاة ، وأعداد ركعات الصلوات ، وأيّام الصيام ، والمحرّمات من الأطعمة والأشربة ؛ فإنّ الأحكام فيها جميعاً نصيّة وَقفيّة ، لا يُعوَّل فيها على رأي العقل ، كما أنّ التأويل العقليّ إنّما يكون في المتشابه ، وليس في النصوص الصريحة ، والأحكام الثابتة .

وكما أنّ الجاحظ يعتمد كثيراً - في تأسيس أحكامه الخلقيّة — على نصوص ومنطلَقات دينيّة ، فإنّه في أحيانٍ أخر يرتّب على بعض الاستعدادات الأخلاقيّة والطباعِ الراسخة في الإنسان التزاماتٍ أو واجبات دينيّة ؛ كالإيمان بالمُغيَّبات ، والتصديق بالرسل وما جاءوا به . ومن أمثلة ذلك : أنّ الجاحظ — بعد أن يؤكّد صعوبة مجاذبة الطّباع ، في رسالة " كتمان السرّ وحفظ اللسان " — يقرّر أنّ مِن طَبْع الإنسان محبّةَ الإخبار والاستخبار ، وأنّ هذا هو ما يدفعه إلى إشاعة الأسرار وإطلاق اللسان بفُضول الكلام . ثمّ يبني على هذه المقدّمة الأخلاقيّة نتيجةً دينيّة ، مُفادها : أنّه بهذا الطبع المستحكِم في الإنسان " ثبتتْ حجّةُ الله على مَنْ لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرّسل ، وقام مجيءُ الأخبار من غير تشاعر [٤] ولا تواطؤ مقام العِيان ... ، وصار ما ينقله الناس بعضُهم عن بعض ذريعةً إلى قبول الاخبار عن الرسل ، وسُلّماً إلى التصديق ، وعَوْناً على الرّضا بالتقليد " [٥]؛ أي أنّه قد ترتّب على هذا الطّبع الراسخ في الإنسان واجباتٌ دينيّة .

---

(١) الحيوان ، ج ٤ ، ص٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ٢٣٤ .

(٣) ارجع إلى موضع سابق من هذا الفصل ، ص ١٨ — ١٩ ، ثم انظر فيما سيأتي ص ٢٩ — ٣١ .

(٤) أي من غير مخالطة وملابسة ومعاشرة .

(٥) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ب) النصوص التراثيّة الأدبيّة :

وتشمل الأخبار والأشعار والأمثال والحِكَم [1]، سواء أكانت عربيّة أم فارسيّة أم يونانيّة ، ولكنّ للعربيّة فيها الحظّ الأوفر ، وخاصّة تلك التي ترجع إلى العهود العربيّة القديمة ؛ في الجاهليّة والقرن الأوّل من الإسلام . والجاحظُ ، وإن كان يستكثر في معالجاته الخلقيّة من هذه النصوص ، فإنّه لا يتّخذها أساساً أوّلَ لبناء أحكام خلقيّة ؛ وإنّما هي – عنده – على سبيل الشاهد الذي يُستأنس به لا أكثر ، وقد يسوقها لبيان مذاهب الناس المتباينة في خلُقٍ من الأخلاق ، في بعض مناظراته ، وما أكثرها ! ولكنه – على أيّة حال – لا يتّخذ منها معياراً حاسماً في صياغة حُكْمٍ خلُقيّ ما .

والحقُّ أنّ المعيار الأخلاقيّ الذي يعتمده الجاحظ في اختياره للنصوص الأدبيّة في رسائله ، يختلف عنه في كتبه الطّوال . ولسوف أقصر حديثي هنا على تلك النصوص التي يُوردها في سياقات ذات مضمون خلُقيّ : فأمّا الرسائلُ ؛ فإنّ معيار الاختيار فيها واضح ؛ وهو معيار الملاءمة للرأي الذي يصدر عنه ، كما في رسالة " فصل ما بين العداوة والحسد " – مثلاً – إذ ضمّنها الجاحظُ طائفةً كبيرة من النصوص ، كلّها تذمّ الحسد ، وتعيب صاحبه ؛ أو معيار الملاءمة لوجهات النظر المختلفة التي يعبّر عنها إذا كانت الرسالة على ألسنة متناظرين متباينةٍ آراؤهم ، كما في رسالة " مفاخرة الجواري والغِلمان " ؛ إذ أورد على لسان (صاحب الجواري) ما يُؤيّد رأيه وينقض رأي خصمه ، وعلى لسان (صاحب الغلمان) – كذلك – ما يؤيّد رأيه وينقض رأي خصمه . وأمّا في كتبه الطّوال ، فإنّ معياره الأهمّ هو أن يكون لتلك النصوص علاقةٌ بالموضوع الذي يخوض فيه ، بصرف النظر عن الحكم الأخلاقيّ الذي تتضمّنه . ومن هنا ، فإنّ الباحث ، إنْ كان يستطيع أن يستنبط بعض آراء الجاحظ الأخلاقيّة من ثنايا رسائله ، اعتماداً على ما ينقله فيها من نصوص ، خاصّة تلك الرسائل التي يحمّلها آراءه الخاصّة ، فإنّه يبدو من الصعوبة بمكان أن يستنبط مثلَ تلك الآراء من خلال كتاب " البيان والتبيين " – مثلاً – وهو الذي أنشأه صاحبه على صورة منوّعات أدبيّة ، يعسر العثور على الأساس

---

(١) هذه النصوص منتشرة بكثرة في كتب الجاحظ ورسائله ؛ انظر – على سبيل المثال – رسالة (المعاش والمعاد) ، ج١ ، ص ١١٣ – ١١٧ ، ١٢٦ ، ورسالة (كتمان السرّ وحفظ اللسان) ، ج١ ، ص ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، وانظر ص ١٤٥ حكايتين ؛ إحداهما : عن الأعمش ، والأخرى : عن بعض الفقهاء ، وص ١٤٦ خبرين عن معاوية ، وعن هشام بن عبد الملك ، في صعوبة كتمان الأسرار ، وشواهد أخرى ص ١٥٠ ، ١٥١ ، وص ١٥٩ إلى نهاية الرسالة ؛ حيث لا تكاد صفحة تخلو من مثَلٍ أو حكمة أو أبيات شعر أو طائفة من ذلك كلّه . وانظر بعد ذلك رسالة (الجِدّ والهَزْل) ، ج١ ، ص ٢٦٤ ؛ حيث أورد حكايةً عن الحسن البصريّ ، وانظر رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) ج١ ، ص ٣٤١ – ٣٤٨ ، ٣٥٤ إلى نهاية الرسالة ، فإنّ الأشعار والأمثال والأخبار والحكم منثورة فيها نثراً ، وانظر – أيضاً – طائفةً من الأشعار في رسالة (مفاخرة الجواري والغِلمان) ، ج٢ ، ص ١٠٤ – ١١٥ . وكتابُ (البيان والتبيين) يكاد يكون كلّه نسيجاً على هذا المنوال .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخلاقيّ الذي انتُقيتْ وَفقه . وليس هذا بمستغرب ؛ لأنّ غرض الجاحظ من هذا الكتاب غرضٌ بيانيّ بالدّرجة الأولى ، ولذلك طغت فيه عنايتُه بالنواحي البلاغيّة على عنايته ببقيّة النواحي ، كالأخلاق مثلاً ؛ فتجده ينقل الخُطَب والأشعار والأمثال التي تستوفي معايير البلاغة – كما يراها – بصرف النظر عن مضمونها الأخلاقيّ أو السياسيّ ؛ فهو ينقل عن الأمويّين وعن الخوارج وعن الشيعة دون تفريق ؛ ولذلك فإنّ تلك النصوص تأتي معبرّة عن آراء أصحابها من دون الجاحظ الذي يقف موقف الراوية المحايد . غير أنّ هذا لا يمنع الجاحظ من إبداء رأيه – أحياناً – في بعض الأحكام التي تتضمّنها تلك النصوص ، كما يظهر من تعليقه على النصوص التالية التي تَصِمُ المعلّمين ورعاة الضّأن والنساء بالحُمق . يقول :" ومن أمثال العامّة " أحمقُ من معلّم كتّاب " ، وقد ذكرهم صِقلابٌ فقال :

وكيف يُرَجّى الرأيُ والعقلُ عند مَنْ يروح على أُنثى ويغدو على طفلِ

وفي قول بعض الحُكَماء :" لا تستشيروا معلّماً ، ولا راعي غنم ، ولا كثير القعود مع النّساء " ، وقالوا :" لا تَدَع أمّ صبيّك تضربه ؛ فإنّه أعقلُ منها ، وإنْ كانت أسنَّ منه " ، وقد سمعنا في المَثل : " أحمقُ من راعي ضأن ثمانين " . فأمّا استحماقُ رعاة الغنم في الجملة : فكيف يكون ذلك صواباً ، وقد رعى الغنمَ عِدّةٌ من جِلّة الأنبياء – صلى الله عليهم – ؟! وهذا المأخذ يجري في الطّبقات كلّها : مِنْ جُود وبخل ، وصلاح وفساد ، ونقصان ورجحان . وما زلتُ أسمع هذا القولَ في المعلّمين . والمعلّمون عندي على ضربين : منهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولاد العامّة إلى تعليم أولاد الخاصّة ، ومنهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصّة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسِهم المُرشّحين للخلافة . فكيف تستطيع أن تزعم أنّ مِثل عليّ بن حمزة الكسائيّ ، ومحمد بن المُستنير الذي يُقال له : قُطْرُب ، وأشباه هؤلاء يُقال لهم حَمْقى ؟! ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التي دونهم . فإنْ ذهبوا إلى معلّمي كتاتيب القُرى : فإنّ لكلّ قومٍ حاشيةً وسَفِلة ، فما هم في ذلك إلاّ كغيرهم . وكيف تقول مثلَ ذلك في هؤلاء ، وفيهم الفقهاءُ والشعراء والخطباء ؛ مثل : الكُميت بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب ، وقيس بن سعد ، وعطاء بن أبي رباح ؛ ومثل : عبد الكريم أبي أميّة ، وحسين المعلّم ، وأبي سعيد المعلّم ؟! "[1].

ولعلّه ممّا يستدعي الاستغرابَ أن تثور حميّةُ الجاحظ لرعاة الضّأن ، ويُسهبَ في الانتصار للمعلّمين ، ويَدَعَ أنْ يقول كلمة في إنصاف النساء ، وتبرئتهنّ ممّا يُدمغن به من صفات النقص والاحتقار !! فهل يمكن أن يُفهم من هذا أنّ الجاحظ مؤيّد أو – على الأقلّ – غيرُ معترضٍ على مضامين تلك الأقوال ؟!.

---

(١) الجاحظ – البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١ ، ص ٢٤٨ – ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢) الطبع والفطرة : [١]

يجدر بنا قبلَ أن نشرع في الحديث عن الطبع ، مصدراً من مصادر الأحكام الخلقيّة عند الجاحظ ، أنْ نوضّح ما الذي يعنيه تماماً بهذا المصطلح ، وما هي أنواعه ، وأين يقع الخُلق منه :

يميز الجاحظ في مناقشته للموضوعات الخُلقيّة بين نوعين من الطّباع : طبعٌ أوّلُ ، جُبل عليه الإنسانُ ، ويتمثّل في تلك الغرائز الثابتة في أصل تكوينه . وطبعٌ ثانٍ ، يكتسبه الإنسان اكتساباً ، بالعادة وكثرة الممارسة . ويبدو ذلك في قوله :" ثمّ مبيّن لك فَرْق ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً ، و لم اختلف ذلك " [٢]. ولعلّ هذا يذكّرنا بتفريق أرسطو بين الطبع الذي لا صلة له بالأخلاق وبين العادة الضروريّة لاكتساب الأخلاق ، وذلك حيث يقول : " إنّه لا توجد واحدةٌ من الفضائل الأخلاقيّة حاصلة فينا بالطّبع . إنّ أشياء الطبع لا يمكن – بفعل العادة – أن تصير أغيارَ ما هي كائنة . مثالُ ذلك الحجر الذي هو بالطبع يهوي إلى أسفل ، لا يمكن أن يأخذ عادةَ الصعود ، ولو حاول المرءُ تصعيده مليون مرّة لما طُبع على هذه العادة . والنارُ لا يمكن كذلك أن تتّجه إلى أسفل ، ولا يوجد جسمٌ واحد يمكن أن يفقد خاصّته التي تلقّاها من الطبيعة ليتّخذ عادةً مخالفة .

حينئذٍ فالفضائلُ ليست فينا بفعل الطبع وحدَه ، وليست فينا كذلك ضدّ إرادة الطبع ؛ ولكنّ الطبع قد جعلنا قابلين لها ، وإنّ العادة لتنمّيها فينا " [٣].

وهكذا ، فإنّ " الطبع " عند أرسطو يُقابل " الطبع الأوّل " عند الجاحظ ؛ وهو جزء ثابت في تركيب الإنسان ، لا يتأثر بالعادة ، ولا يخضع للاكتساب . وأمّا " الفضائل الأخلاقيّة " عند أرسطو فإنّها تُقابل ما يعنيه الجاحظ بـ " الطبع الثاني " المكتسَب بالعادة .

والطّباع الأولى – بحسب تصنيف الجاحظ – يستوي فيها جميع الناس ؛ لأنّها في أساس خِلْقتهم ، مثل :" حبّ اجترار المنافع ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبعٌ مركّب ، وجِبلّة مفطورة ، لا خِلافُ بين الخلق فيه ، موجودٌ في الإنس والحيوان ، لم يدّعِ غيرَه مُدّعٍ من الأوّلين والآخرين " [٤]. ولا يملك الإنسان أن يغيّر هذا النوع من الطباع أو أن يطمسها ، وغايةُ ما

---

(١) وأحياناً يستخدم مصطلحات أخرى ؛ كالجِبلّة والشّيمة ، و لم أستطع أن أتبيّن الفرق بينها بدقّة . انظر تلك المصطلحات جميعاً في نصّ واحد ، ص ١٠٣ من رسالة (المعاش والمعاد) .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ٩٧ .

(٣) انظر أرسطو طاليس – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ج١ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٤) المعاش والمعاد ، ص ١٠٢ ، وانظر كذلك ص ٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستطيعه هو أن يضبط مسارها ؛ إذ " لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع ، ومغالبة الأهـــواء ؛ فـــإنّ الدّولة لم تزل للهوى على الرأي طول الدّهر " [١]. ولكنّ هذا لا يُعفي الإنسان من مسؤوليّة توجيـــه تلك الطّباع وتسييرها بحسب ما تقتضيه المعاييرُ الخُلقيّة المتواضَع عليها في بيئته الاجتماعيّـــة ، ولذلـــك يستدرك الجاحظ – بعد تأكيده صعوبةَ مغالبة الطباع – بقوله :" وليس قولنا :" طُبع الإنســـان علـــى حبّ الإخبار والاستخبار " حُجّةً له على الله ؛ لأنّه طُبع على حبّ النساء ومُنع الزّنى ، وحُبّـــب إليـــه الطعامُ ومنع من الحرام ، وكذلك حُبّب إليه أن يُخبر بالحقّ النافع ويستخبر عنه ، وجُعلتْ فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأي " [٢]. فإذا رسخت الممارســـةُ الجديدة بفعل العـــادة والتكـــرار أصبحت طبعاً ثانياً ، له من الاستحكام مثلُ ما للطّبع الأوّل تقريباً .

وعليه ، فإنّ الجاحظ قد يستخدم – أحياناً – مفهوم " الطبع " للدّلالة على الخُلق ، ويكـــون المقصـــود في هـــذه الحالة هو الطبعَ الثاني المكتسَب ، كما في قوله : " ومَنْ بلاه غيرُك ، فكُشف عـن كُفْر النّعمة ، والغَدْر عند الشدّة ، فقد حذّرك نفسَه وإنْ آنسك ، وكما غدر بغيرك يَغدِر بك ؛ فـــإنّ مَن شيمتُه الوفاء يفي للصديق والعدوّ ، ومَنْ طبيعته الغدرُ لا يفي لأحد ؛ وإنّما يميل مع الرّجحـــان : يذِلّ عند الحاجة ، ويشمخ مع الاستغناء " [٣]. فتراه وصفَ الغدر بأنّه " طبيعة " والحقيقةُ أنّ الغـــدر خُلُقٌ مكتسَب ، فإذا ترسّخ بالعادة أصبح داخلاً في طبيعة الإنسان ، كما يُفهم من كلام الجاحظ .

والواقعُ أنّ الجاحظ يُولي مفهوم الطبع أهميّة بالغةً في درسه للأخلاق ؛ إذ يعدّ معرفـــة طبـــاع الناس مدخلاً ضرورياً لفهم ممارساتهم الخلقيّة ، بل حتّى لاستكناه ما يكتنّ في نفوســـهم ؛ لأنّ " مَـــنْ عرف ما طُبع عليه الخَلْقُ ، وجرتْ به عاداتهم ، وعرف أسباب اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصّى عِلَـــل ذلك ، كان خليقاً – إن لم يُحط بعلم ما في قلوبهم – أن يقع من الإحاطة قريباً " [٤].

نستطيع الآنَ أن نأخذ في تفصيل مفهوم " الطبع " ، بوصفه مصدراً رئيســـياً مـــن مصـــادر الأحكام الخلقيّة عند الجاحظ ، وركيزةً أساسيّة من جملة الركائز التي يبني عليها نظراته الخُلقيّة ، وهـــا يُسوّغ ضرورة وجود نَسَقٍ خُلقيٍّ ما يضبط سلوك الناس ويوجّه تصرّفاتهم ؛ أي أنّه يســـتند إلى هـــذا المفهوم في الإجابة عن سؤال : لماذا الأخلاق ؟ .

---

(١) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤١ .

(٢) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤٥ .

(٣) المعاش والمعاد ، ص ١٢٣ .

(٤) المعاش والمعاد ، ص ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقرّر الجاحظ أنّ من طبيعة الإنسان التي فطره الله عليها خلّتين تحكمان سلوكه في كلّ موقف من مواقف الحياة ، وبإزاء كلّ شأنٍ من شؤونها ؛ هاتان الخلّتان هما حُبّ جَلْب المنافع ، وبُغض المضارّ . فكلّ إنسان – بل وكلّ حيوان وكائنٍ حيّ – فيه غريزةٌ تدفعه إلى الاستكثار من المنافع ، ودفع المضارّ واجتنابها . والمنافعُ والمضارّ مرتبطة بمطامح النفس ورغباتها ؛ " كحبّ الراحة والدّعة ، والازدياد والعلّو ، والعزّ والغلبة ، والاستطراف والتنوّق [التجوّد والمبالغة] " [١]، وبشهوات الحواسّ ومتطلّباتها ؛ كـ " المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطيّبة ، والأصوات المُونقة ، والملامس اللذيذة ، وممّا كراهيته في طباعهم أضداد ما وصفتُ لك وخلافُه " [٢].

وقد أخرج الله – سبحانه – للناس من الأرض أرزاقاً تلبّي تلك الشّهوات ، وتسدّ تلك الحاجات ؛ من طعامٍ ، وشراب ، ولباس ، ومشامّ ، ومناكحَ ؛ فتعلّقتْ بها نفوسُهم . ولو ترك الله – تعالى – الناسَ لتلك الشّهوات ، مع ما ركّبه فيهم من طبيعة حبّها ، لذهبوا مع تلك الطبيعة إلى مُنتهاها ، واضمحلّت فيهم المشاعرُ الإنسانيّة مِنْ تعاطُفٍ وتبارّ ، وأدّى ذلك إلى الفساد والفناء .

ولذلك كان لا بدّ لهم من تأديب يعصمهم من المَيْل مع طبائعهم إلى حدّ الفساد المُبير ، وليس التاديب إلاّ بالأمر والنهي . والأمرُ والنّهي غير ناجعَين إلاّ بالترغيب والترهيب ؛ فوعد الله سبحانه مَنْ يمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه ، أن يُعوّضه عمّا فاته من الملاذّ في الدنيا في سبيل اجتناب نواهيه ، وما ناله مِنْ أذى في جَنْب إتيان أوامره – بالجنّة ؛ وهي أكبر من كلّ متعة ، وأوعد من اقترف مناهيَه من أجل التلذّذ بمتع الدّنيا ، أو ترَك أوامره فِراراً ممّا قد يلحقه فيها من أذى – بعذاب النار ؛ وهو أضرّ من كلّ ضُرّ .

ثمّ أقام ذلك كلّه على العدل التامّ ، ونَفى عن تدبيره إمكان الخلل والمحاباة ؛ حتّى يعمل الناس وهم على ثقةٍ كاملة ممّا وعدهم وأوعدهم به من الثواب والعقاب . وجعل أكثر طاعته فيما يستثقلون ويكرهون ، وأكثرَ معصيته فيما يستلذّون ويشتهون ؛ سبباً إلى امتحانهم في الدّنيا . وعلى نتيجة هذا الامتحان يتحدّد مصيرهم في الآخرة . [٣]

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١٠٣ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ١٠٣ .

(٣) راجع ما لخّصناه في هذه الصفحة في المعاش والمعاد ، ص ١٠٢ – ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك كانت المنظومة الخلقيّة التي يُؤسّسها الدين متّفقةً مع طبيعة الإنسان ، بل قائمةً عليها أصلاً ؛ إذ إنّها لا تنفي غرائز الإنسان وطِباعه التي فُطر عليها ، ولا تُنكر حاجتَه إلى إشباعها ؛ ولكنّها تضع الآدابَ والقوانين لتحديد كيفيّة ذلك الإشباعِ ، حتّى لا يخرج إلى الفساد والانحلال . ودليلُ ذلك " أنّ الله تعالى ما حرّم على الناس شيئاً في القديم والحديث إلاّ أطلق لهم من جِنْسه ، وأباح من سِنْخه [أصله] ، ونظيره وشِبْهه ، ما يعمل مثلَ عمله أو قريباً منه ؛ ليُغنيهم بالحلال عن الحرام ، أعني ما حُرّم بالسّمع دون المحرّم بالعقل : قد حَرّم من الدّم المسفوحَ وأباح غير المسفوح ؛ كجامد دم الطّحال والكبد وما أشبههما ، وحرّم الميتة وأباح الذكيّة وأباح أيضاً مَيْتة البحر وغيرِ البحر ؛ كالجراد وشبهه ، وحرّم الرّبا وأباح البيع ، وحرّم بيع ما ليس عندك وأباح السَّلَم ، وحرّم الضّيم وأباح الصُّلْح ، وحرّم السِّفاح وأباح النّكاح ، وحرّم الخنزير وأباح الجَذْي الرّضيع والخروفَ والحُوار . والحلالُ في كلّ ذلك أعظمُ موقعاً من الحرام " [١].

ثمّ ينطلق الجاحظ – بعدَ إحكامه هذا الأساسَ النظريّ – إلى بناء حكم أخلاقيّ عمليّ عليه ، مُستخدِماً إحدى أدواته الأثيرة في تحصيل المعرفة العقليّة ، ألا وهي القياس ؛ فيقضي بأن ما استقامتْ به أمورُ الناس مع خالقهم مِنْ تدبير ، هو نفسُه ما تستقيم به أمورهم مع حاكمهم ؛ " فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ، ولم ينقادوا لأمره ، إلاّ بما وصفتُ لك من الرغبة والرهبة ، فأعجزُ الناس رأياً ، وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، مَنْ أمّلَ أو ظنّ أو رجا أنّ أحداً من الخَلْق – فوقَه أو دونه أو من نُظَرائه – يصلح له ضميره ، أو يصحّ له ، بخلاف ما دبّرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرّغبةُ والرهبة أصلا كلّ تدبير ، وعليهما مدار كلّ سياسة ؛ عظُمتْ أو صغُرت . فاجعلهما مثالك الذي تحتذي عليه ، وركنك الذي تستند إليه " [٢].

(٣) النظر العقليّ :

وهو أحد المصادر الأساسيّة لاكتساب المعرفة في فكر الجاحظ عامّة ، سواء في البحوث الخلقيّة وفي غيرها . وترجع عناية الجاحظ البالغة بهذا المصدر إلى كونه رأس فرقة معتزليّة سُمّيت باسمه [٣]، ومعروفٌ أنّ المعتزلة تُعلي من شأن العقل إلى أبعد غاية ، وتتّخذ منه محكّها الأوّل في محاكمة الأمور والآراء والنصوص .

---

(١) رسالة الشارب والمشروب ، الرسائل ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ١٠٥ .

(٣) انظر في طائفة "الجاحظيّة" من طوائف المعتزلة نسبة إلى الجاحظ : الشهرستانيّ – الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٧٥ – ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفتأ الجاحظ يُوصي قارئه أن ينظر إلى الأمور بعين العقل ، وأن لا ينخدع بظواهرها وما تصوّره له النظرةُ السطحيّة ؛ بل لا بدّ له من أنْ يتعمقّ الأشياء ، ويسبر أغوارها ، ويتعرّف عِلَلها . وهو يُوجز ذلك بعبارةٍ مكثّفة ، تُنبيك عن مدى عنايته بالعقل مصدراً رئيساً للمعرفة ، وتكشف لك جانباً من جوانب منهجه في التعامل مع شتّى الموضوعات التي يتعرّض لها ؛ تلك قولُه :" فلا تذهب إلى ما تُريك العين ، واذهب إلى ما يُريك العقل . وللأمور حُكمان : حكمٌ ظاهر للحواسّ ، وحكمٌ باطن للعقول . والعقلُ هو الحُجّة " (١).

ويضرب الجاحظ لهذا الأساس المعرفيّ مثالاً بسيطاً ، ولكنّه بيّن ومعبّر ؛ إذ يُذكّر بأنّ خزنة النار من الملائكة ليسوا بأقلّ منزلةً من خزنة الجنّة ، وأنّ مَلَك الموت ليس دون مَلَك السّحاب ؛ فلكلٍّ وظيفةٌ يؤدّيها ، والعِبرةُ بالطاعة والمعصية ، وليس فيما يخطر من أمرهم لأوّل وهلة . يقول :" وقد علمنا أنّ خزنة النار من الملائكة ليسوا بدون خزنة الجنّة ، وأنّ مَلَك الموت ليس بدون ملك السّحاب ، وإن أتانا بالغيث وجلب الحَياء [الخصب والمطر] . وجبريلُ الذي ينزل بالعذاب ليس بدون ميكائيل الذي ينزل بالرحمة ؛ وإنّما الاختلاف في المطيع والعاصي ، وفي طبقات ذلك ومواضعه . والاختلاف بين أصحابنا [يعني من سبق ذكرُهم من الملائكة] أنّهم إذا استوَوا في المعاصي استووا في العقاب ، وإذا استووا في الطّاعة استووا في الثواب ، وإذا استووا في عدم الطّاعة والمعصية استووا في التفضيل . هذا هو أصلُ المقالة ، والقُطْبُ الذي تدور عليه الرّحى " (٢).

والنظر العقليّ عند الجاحظ قائمٌ على إدراك الأصول الثابتة في فِطَر الناس ، واستكشاف عِلَلها وأسبابها ، وفهم الحقائق الماثلة في الطبيعة ، واستقراء نتائج التجارب الواقعيّة ، سواء منها تلك الذاتيّة والتي تضمّنها التراث المُنطوي على خبرات السّابقين . (٣)

لهذا ، وينقسم العقلُ عنده إلى نوعين أو طورين متكاملين : عقلٌ مطبوعٌ أو غريزيّ ، وعقلٌ مكتسَب أو تحصيليّ ؛ فأمّا العقل الغريزيّ فهو آلة ؛ أي مجرد استعداد طبيعيّ كامنٍ في الإنسان ، وأمّا العقل المكتسَب فهو المادّة التي تشحذ تلك الآلة ، وتُخرجها من القوّة إلى الفعل ؛ كما هي حال النار والحطب ، والمصباح والدّهن . والأخلاقُ المستفادةُ تندرج في باب العقل المكتسب ؛ لأنّ " الأدب عقلٌ

---

(١) الحيوان ، ج ١، ص ٢٠٧ .

(٢) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٣) راجع ص ٩ – ١٠ من هذا البحث ، وما ورد في الحاشية ٣ من أولاها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيرك تزيده في عقلك " [١]، ولكنّها إذا استحكمتْ في الإنسان بفعل العادة المطّردة ، فإنّها تصبح – بتعبير الجاحظ – " طبعاً ثانياً " يقترب في رسوخه من الطبع الغريزيّ الأوّل [٢].

هذا ما يتعلّق بمفهوم العقل عند الجاحظ ، وأقسامه ، وإلى أيّها تنتسب الأخلاق ، والفرق بينه وبين الطبع ، ثمّ مجالات النظر العقليّ . أمّا بقيّة المسائل المرتبطة بالعقل مصدراً من مصادر التشريع الأخلاقيّ في تراث الجاحظ ، فأظنّ أنّنا قد استوفينا الكلام على أكثرها فيما سبق من هذا الفصلِ ، وخاصةً في ثنايا الحديث عن النصوص الدينيّة مصدراً للأحكام الخلقيّة ، ومحاولةِ تبيّن موقف العقل منها [٣]

(١) المعاش والمعاد ، ص ٩٦ . وراجع في معنى كلمة (الأدب) عند الجاحظ ، ص ٨ ، ح ٣ من هذا البحث .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ٩٧ ، وانظر حديثنا فيما سبق عن الطبع والفطرة ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) راجع ص ١٨ – ٢٠ من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً : النزعة النقدية الحُرّة

لعلّ من أبرز الملامح التي تَعرِض للدّارس في " تأمّلات الجاحظ الخُلُقيّة " تلك النزعة النقديّة الحرّة ، التي تتجلّى في تصويره طائفةً من القِيَم الخلقيّة السّائدة في طبقات مجتمعه ، وخاصّة تلك القِيَم المتعلّقة بجوانب حسّاسة من حياة المجتمع ، يتعامل معها أغلبُ الناس بكثيرٍ من التحفّظ والتحرّج ؛ وأعني بها جملة القيم التي تعكسها الممارسات الجنسيّة وصورُ الاختلاط المتعدّدة بين الذكور والإناث ، أو ما هو أقلُّ منها حساسيةً ؛ كتلك المتّصلة بالممارسات الترفيهيّة ؛ كالغِناء ، وتعاطي صنوف من الأشربة ، وما إلى ذلك . وتُلمح تلك النزعة النقديّة – أيضاً – في تصوير الجاحظ بعضَ الأخلاق الذميمة السّارية بين فئاتٍ معيّنة في المجتمع ؛ كالبخل والحسَد والكِبْر ، وفي تصويره جانباً من أخلاق طوائف العلماء والقضاة والكتّاب في عصره ، خاصّة المقلّدين منهم ، والذين اختصّوا بالعامّة وطبقات الشّعب الدنيا التي ليس لها حظٌّ وافر من النظر والتمحيص يُؤهّلها لنقد ما يُلقى عليها ، فتجدها تُسلّم بكلّ ما تسمع ، وتطمئنّ إلى كلّ مَنْ نَصَب نفسَه للحديث .

ويتّخذ نقد الجاحظ لتلك القيم في مؤلّفاته منحيين مختلفين :

أحدهما : **غير مباشر** ، وهو الأغلب ؛ وفيه يأتي النقد مُضَّمناً في صورٍ لنماذجَ اجتماعيّةٍ تتجسّد فيها القيمةُ الخلقيّة التي هو بصدد نقدها ، كما في " كتاب البخلاء " ، أو يأتي في سياق مناظرة بين طرفين ، يمثّل كلٌّ منهما رأيَ الطّائفة التي ينتمي إليها وينطق بلسانها ، ويتولّى كلٌّ من الطرفين مهمّة نقد صاحبه ، والاعتراضِ على مسلكه ، وتهجين القيم التي يصدر عنها ؛ كما في " رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان " ، و " رسالة القيان " ، و " رسالة الشارب والمشروب " .

والآخَر **مباشر** ؛ وذلك عندما يتحدّث الجاحظ بلسان نفسه ، دون أن يصطنع أيّة وساطةٍ بينه وبين القارئ . وفي هذا المنحى يظهر الجاحظ في هيئة معلّم ، ويتّخذ كلامُه شكل الوصيّة الأخلاقيّة الموجّهةِ إلى شخص بعينه ؛ كـ " رسالة المعاش والمعاد " ، و " رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان " ، أو المعبّرة عن تجربة خاصّة ومعاناة ذاتيّة ؛ كـ " رسالة فصل ما بين العداوة والحسد " ، و " رسالة ذمّ أخلاق الكتّاب " [1].

---

(١) انظر هذه الرسائل جميعاً في كتاب (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، أربعة أجزاء ، في مجلدين : يشتمل الأول منها على مجموعة رسائل كاملة ، وأمّا الثاني فيشتمل على الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسّان من عِدّةٍ من رسائل الجاحظ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقيقةُ أنّ للجاحظ قدرةً فائقة على تقمّص النماذج الاجتماعيّة المختلفة في عصره ، والتعبير عن آرائها ، وحكاية حركاتها وتصرّفاتها ، واستبطان أفكارها وخلَجات نفوسها ، حتّى إنّه ليستطيع أنْ يتمثّل النموذجَ وضدَّه في الرسالة الواحدة ، أو في المواضع المتقاربة من كلامه ، وبالدّرجة نفسها من الإتقان والبراعة وجَوْدة التعبير . تتبدّى هذه المقدرةُ في " رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان " ، وفي " كتاب الحيوان " ، حيث عقد مناظرة طويلة بين (صاحب الكلب) و (صاحب الديك) ، كسر عليها معظم المجلّدين الأوّلين من الكتاب ، وتتبدّى بوضوح أكثر في " كتاب البخلاء " ؛ ممّا دفع الأستاذين أحمد العوامري وعلي الجارم ، في الفصل الذي كتباه عن الجاحظ تمهيداً لتحقيقهما كتابه في البخلاء ، إلى أن عَزَوا البراعة التي امتاز بها في وصف البخل إلى أنّه كان في ذاته بخيلاً ، وأنّه كان في تصويره للبخلاء وإلقاء الحُجج على ألسنتهم يصدر عن خلقٍ أصيلٍ فيه [١] . وقد ردّ عليهما الأستاذ طه الحاجريّ في الدّراسة التي قدّم بها تحقيقه للكتاب نفسه ؛ فنفى عن الجاحظ ما ألصقاه به ، وعدّ تلك البراعة في الوصف مظهراً من مظاهر موهبته الفنيّة القويّة ، وليس أثراً من آثار بخله وكزازة يده [٢] . ويبدو أنّ بعض قرّاء الجاحظ من معاصريه قد وقع في الوهم نفسه ؛ ممّا كلّف الجاحظَ التصدّي لتبرئة نفسه من تلك التّهمة ؛ فأملى في مقدّمة " كتاب الحيوان " :" وعبتني برسائلي الهاشميات ، واحتجاجي فيها ، واستقصائي معانيَها ، وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهاري لها في أتمّ حِلْية . وزعمتَ بأنّي قد خرجت بذلك من حدّ المعتزلة إلى حدّ الزيديّة ، ومن حدّ الاعتدال في التشيّع والاقتصاد فيه إلى حدّ السَّرَف والإفراط فيه . وزعمت أنّ مقالة الزيديّة خطبةُ مقالة الرافضة ، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية " [٣] ، " وعبتني بحكاية قول العثمانيّة والضّراريّة ، وأنت تسمعني أقول في أوّل كتابي :" وقالت العثمانيّة والضراريّة " ، كما سمعتني أقول : " قالت الرافضة والزيديّة " ، فحكمتَ عليّ بالنَّصْب لحكايتي قولَ العثمانيّة ، فهلاّ حكمتَ عليّ بالتشيُّع لحكايتي قولَ الرافضة !! وهلاّ كنتُ عندك من الغالية لحكايتي حُججَ الغالية ، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قولَ الناصبة !! وقد حكينا في كتابنا قول الإباضيّة والصُّفريّة ، كما حكينا قول الأزارقة والزيديّة . . . . وألا كنّا عندك من الخارجيّة كما صِرنا عندك من الضّراريّة والناصبة !! فكيف رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة ، أسرع إلى أعراض الناس من الخارجيّة ؟! اللهمّ إلاّ أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانيّة والضّراريّة أشبعَ وأجمع ، وأتمّ وأحكم ، وأجودَ صنعةً ، وأبعد غايةً . ورأيتَني قد وهَّنتُ حقَّ أوليائك ، بقدْر ما قوّيتُ باطل أعدائك !! ولو كان ذلك كذلك ، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً ، وبرهانك على ما ادّعيت واضحاً . وعبتني بكتاب العبّاسيّة ، فهلاّ عبتني بحكاية مقالة مَنْ أبى وجوبَ الإمامة ، ومَنْ

---

(١) الجاحظ – كتاب البخلاء ، ضبطه وشرحه وصحّحه: أحمد العوامري وعلي الجارم ، ترجمة الجاحظ ، ص ١٥ – ١٦ .

(٢) انظر الجاحظ – كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجريّ ، المقدّمة ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٣) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرى الامتناع من طاعة الأئمّة ؛ الذين زعموا أنّ تَرْك الناس سُدى بلا قيّم أردُّ عليهم ، وهَملاً بلا راعٍ أربحُ لهم ، وأجدرُ أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل ، وأنّ تركهم نَشَراً لا نظام لهم أبعدُ من المفاسد ، وأجمعُ لهم على المراشد !! بل ليس ذلك بك ؛ ولكنّه بَهَرك ما سمعتَ ، وملأ صدرك الذي قرأتَ ، وأبعلك وأبطرك ، فلم تتّجه للحُجّة وهي لك مُعرِضة ، و لم تعرف المَقاتل وهي لك بادية ، و لم تعرف باب المخرج إذ جَهِلتَ باب المدخل ، و لم تعرف المصادر إذ جهلتَ الموارِد " [١].

فإذا كان الجاحظ – في هذا النصّ – ينفي عن نفسه أن يكون معتنقاً لكلّ ما يحكيه من آراء الفِرَق والاتّجاهات السياسيّة – الدّينيّة في عصره ، ومؤيّداً لها ، فإنّنا نستطيع قياساً على ذلك أن ننفي عنه أن يكون حاملاً لكلّ ما يصوّره أو يجسّده في كتبه من قِيَم خُلقيّة ، أو مُروّجاً لها . وذلك حتّى لا نُفضي إلى التناقض الذي حذّر هو نفسُه منه ؛ إذ كانت عادته أن يسجّل الرأي والرأي الذي يُخالفه ، ويرسمَ الصورة والصورة التي تُضادّها ، ومن البديهيّ أنّه ليس بالإمكان أن يجمع في شخصه الواحد انعكاسات من ذلك كلّه .

وإنْ كان الجاحظ لا يقف دائماً موقف الحِياد من نماذجه الإنسانيّة ، وما تجسّده من قيم خلُقيّة ؛ بل يتدّخل فيها أحياناً ، ليُدلي بدلوه : معلّقاً أو شارحاً ؛ كقوله يصف أحد بخلائه ، في أثناء روايته لبعض طرائفه في البخل :" وأبو عبد الله هذا من أطيب الخَلْق ، وأملحهم بخلاً ، وأشدّهم رياءً " [٢]، وقوله معلّقاً على بخيلٍ أحمق ؛ سمع واعظاً يحضّ الناس على الصدقة ، " ويعدهم سرعةَ الخَلَف " ، فأنفق ماله كلّه ، وجلس ينتظر –:" والخَلَفُ يكون مُعجَّلاً ومؤجَّلاً ، ومَنْ تصدّق وتشرّط الشّروط استحقّ الحِرمان . ولو كان هذا على ما توهّمه المروزيّ لكانت المِحنة فيه ساقطةً ، ولترك الناس التجارة ، ولما بقي فقير ، ولذهبت العبادةُ " [٣] ، وكالذي فعله مراراً في " رسالة القيان " التي يحكيها عن طائفةٍ من المقيّنين والظُّرَفاء في عصره ، صدّرها بأسمائهم . على أنّه كان يميز مداخلاته من كلامهم بعباراتٍ تنبّه القارئ إلى ذلك ؛ كأنْ يقول :" وأنا مبينٌ لك الحُسْن ... " [٤]، أو :" وأنا

---

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ١١ – ١٢ .

(٢) البخلاء ، ص ١٢ .

(٣) البخلاء ، ص ٢٧ .

(٤) رسالة القيان ، في (رسائل الجاحظ) ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واصفٌ لك حدّ العِشْق ؛ لتعرف حدّه ... " [١]، وأحياناً تطول تلك المداخـــلاتُ حتّـــى تســـتغرق صفحاتٍ عِدّةً من الكتاب . [٢]

وهذه بعضُ صورٍ أو نماذجَ من النقد الأخلاقيّ في مؤلّفات الجاحظ :

(١) نقد جانبٍ من القِيَم المتعلّقة بالمكانة الاجتماعيّة للمرأة :

لقد كان الجاحظ يشعر بوجود مشكلةٍ تخصّ وضع المرأة في الأسرة وفي المجتمع بشكلٍ عـــامّ ، وهو يعبّر عن هذا الشّعور صراحةً عندما يقول :" وكنّا رأينا ناساً يُزرون عليهنّ [أي النساء] أشـــدّ الزّراية ، ويحتقرونهنّ أشدّ الاحتقار ، ويبخسونهنّ أكثر حقوقهنّ " [٣].

غير أنّي لا أريد أن أبالغ في تصوير مقدار ذلك الإحساس وحِدّته ، وما تمخّض عنه من نقـــدٍ ودعوةٍ إلى التغيير ؛ ذلك أنّ غاية ما كان يسعى إليه الجاحظ في نقده للوضع الأســـريّ والاجتمـــاعيّ للمرأة هو إلغاء نظرة الاحتقار والازدراء التي كانت تُوجَّه نحوها مِن قِبَل طائفةٍ من الرجال في المجتمـــع ، أو التخفيف من شدّها ، وتلافي ما ينتج عنها مِن غمطٍ لكثيرٍ من حقوقها ، وتأكيد أنّ المرأة تســـتحق الاحترام بسبب علاقات القرابة والرحميّة التي تربط بينها وبين الرجل ؛ فيقرر :" أنّ من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوق الآباء والأعمام إلاّ بأن يُنكر حقوق الأمّهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملةَ ما للنّساء من المحاسن " [٤].

وعلى أيّة حال ، فإنّنا لم نكن لننتظر من الجاحظ أكثر من هذا ؛ فنطمح إلى أن يحدّثنا في هـــذه القضيّة كما يحدّثنا دعاة المساواة وحريّة المرأة في عصرنا هذا ؛ لأنّه – في نهاية الأمر – محكـــومٌ – إلى حدّ ما – بشروط ثقافةٍ دينية واجتماعيّة معيّنة ، يتحرك في إطارها ، ويقف عنـــد حدودهـــا . فمـــنَ الواضح أنّ الجاحظ قد تأثر في نقده لحال المرأة في مجتمع عصره بالتصوّر الذي أقامه الدين ، والمبـــادئ التي أرساها لبيان مكانتها وتعيين حقوقها وواجباتها ؛ إذ يمكننا بسهولةٍ ردُّ جملةِ آرائه في هذا الموضـــوع

---

(١) رسالة القيان ، ص ١٦٦ .

(٢) على سبيل المثال ، فإن التعليق الثاني الذي سبقت الإشارة إليه آنفاً يبدأ ص ١٦٦ ، وينتهي ص ١٧٧ ؛ أي بعد ما يُقـــارب العشـــر صفحات .

(٣) رسالة النساء ، ضمن (رسائل الجاحظ) ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى ما تضمّنته بعض آيات القرآن الكريم ، ومِن ذلك أنّه يُقرّ بتفضيل الرجال على النساء – في الجملة – ولكنّه ينكر أنْ يكون هذا سبباً مسوّغاً لإضاعة حقوقهنّ ، إذ يقول: "ونحن ، وإن رأينا أنّ فضل الرجال على المرأة – في جملة القول في الرجال والنساء – أكثرُ وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصّر في حقوق المرأة . وليس ينبغي لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغّر حقوق الأمّهات ، وكذلك الإخوة والأخوات ، والبنونَ والبنات . وأنا ، وإنْ كنت أرى أنّ حقّ هذا أعظمُ ، فإنّ هذه أرحم" [١].

هذا ملمحٌ من نقد الجاحظ للوضع الاجتماعيّ للحرائر . ننتقل بعده إلى الحديث عن صنفين آخرين من النساء ، اعتنى بهما الجاحظُ عنايةً خاصّة ؛ لِما كان لهما من حضور بارز في مجتمع عصره ؛ وهما : الجواري ، والقيان .

والقَيْنةُ في اللغة الأمةُ ؛ مغنّية كانت أو غير مغنّية ، ولكنها في العُرف لا تُطلَق إلاّ على الأمة المغنّية " [٢] ؛ ولذلك كان للقيان فضلٌ في المنزلة على جملة الجواري ، بسبب تلك الصناعة التي يحذِقْنها ؛ أعني صناعة الغناء ، علاوةً على أنّ كثيراً منهنّ كنّ يجمعن إلى الغناء إحسانَ الضرب على بعض آلات الموسيقى ، إضافةً إلى الإحاطة بفنون الأدب ، وخاصّة الشّعر الغَزِل ؛ فكنّ يحفظْنه ، وكثيرٌ منهنّ كنّ يُجدنَ نظمه ؛ مثل : فَضْل الشّاعرة ، ومحبوبة جارية المتوكّل [٣]. يصوّر الجاحظ طرَفاً من ذلك بقوله : " وتروي الحاذقةُ منهنّ [من القيان] أربعةَ آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عددُ ما يدخل في ذلك من الشّعر – إذا ضُرب بعضه ببعض – عشرةُ آلاف بيت " [٤].

ويدلّ على فضل القيان على غيرهنّ من الجواري ، ومبلغ تقدير النّاس – وخاصّة أصحاب المناصب والثراء – لتلك المواهب التي خُصصنَ بها ، والتي كانت قمينة أن تجمع للرّجال كلّ ما يصبون إليه من لذّة ومتعة ، تستهدفان إشباع كلّ حاسّة من حواسّهم ؛ " فللعين النظرُ إلى القينة الحسناء والمشهّية ؛ إذ كان الحِذْق والجمال لا يكادان يجتمعان لمُستَمتِع ومَرْتَع ، وللسّمع منها حظُّ الذي لا مؤونة عليه ، ولا تطرب آلته إلاّ إليه ، وللّمس فيها الشّهوةُ والحنين إلى الباه . والحواسُّ كلُّها

---

(١) رسالة النساء ، ص ١٥٧ . ومعنى قوله " هذه أرحم " أنّ وصف (الرحم) ألْصَقُ بالمرأة منه بالرجل ؛ فبهنّ لذلك أولى بالبرّ والصلة ، وإن كانت دون الرجل في المكانة ، كما يرى الجاحظ .

(٢) أحمد أمين – ظهر الإسلام ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر شوقي ضيف – العصر العباسي الثاني ، ص ٨٥ . وقد أفرد المؤلف باباً كاملاً للحديث عن الرقيق والجواري والغناء ، ما بين ص ٨٠ – ٩٠ .

(٤) رسالة القيان ، في رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روّادٌ للقلب ، وشهودٌ عنده . وإذا رفعت القينةُ عقيرة حَلْقها تُغنّي ، حدّق إليها الطَّرْفُ ، وأصغى نحوها السّمع ، وألقى القلبُ إليها المِلْك ، فاستبَق السمعُ والبصر أيّهما يُؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبلَ صاحبه ، فيتوافيسان عند حبّة القلب ، فيُفرغان ما وعياه ، فيتولّد منه – مع السُّرور – حاسّةُ اللمس ، فيجتمع له في وقتٍ واحد ثلاثُ لذّات لا تجتمع له في شيء قطّ ، ولم تُؤدّ إليه الحواسُّ مثلَها " [1] – يدلّ على ذلك عِظَمُ الأموال التي كانت تُبذلُ ثمناً لهنّ ، وثِقَلُ الغُرَم التي كانت تُحتمَل نظيرَ مجالستهنّ ومحادثتهنّ ومداعبتهنّ ، والتمتُّع بمشاهدتهنّ والاستماع لهنّ ؛ " فن يبلغ شيئاً من الثّمن ما بلغتْ حبشيّةُ جارية عَوْن ؛ مئةُ ألف دينار ، وعشرون ألف دينار . ويُرسلون إلى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حصلوا على النظر وانصرفوا بالحسرة ، ويجتني مولاها ثمرةَ ما غرسوا ، ويتملّى به دونهم ، ويُكفَى مؤونةَ جواريه " [2].

والحقيقةُ أنّ صناعة المقيّنين لم تكن تقتصر على إعداد المغنّيات البارعات الحاذقات بشؤون صناعتهنّ ، بل كانت غالباً ما تتجاوز ذلك إلى الإغراء بهنّ والقيادة عليهنّ ، فكأنّ دار المُقيّن أصبحت " باراً " [3] تُنصب فيه الحبائلُ والشّراك لتصيُّد أصحاب الثراء والجاه من الراغبين في ذلك اللون من ألوان المتعة . وللمقيّن في صنعته حِيَلٌ وخُدَع بارعة ، كفيلةٌ أن تبلّغه كلَّ ما يريد أن يصل إليه من الرُّبَطاء ؛ فتجده " يُسقط الغَيْرة عن جواريه ، ويُعنَى بأخبار الرُّقباء ، ويأخذ أجرة المبيت ، ويتناوم [4] قبلَ العِشاء ، ويُعرض عن الغمزة ، ويغفر القُبلة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتبة ، ويتناسى الجارية يومَ الزّيارة ، ولا يُعاتبها على المبيت ، ولا يفضّ خِتام سرّها ، ولا يسألها عن خبرها في ليلها ، ولا يَعبا بأن تُقفل الأبوابُ ، ويُشدَّد الحجابُ ، ويُعِدُّ لكلّ مربوط عُدّةً على حِدة ، ويعرف ما يَصلح لكلّ واحد منهم ؛ كما يميّز التاجرُ أصناف تجارته ، فيسعّرها على مقاديرها ؛ ويعرفُ صاحبُ الضياع أراضيَه لمزارع الخَضِر [5] والحِنْطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الرُّبَطاء ، اعتمد على جاهه ، وسأله الحوائج . ومَنْ كان ذا مالٍ ولا جاه له استقرض منه بلا عِينَة [ربا] . ومَنْ كان من السُّلطان بسبب ، كُفيتْ به عاديةُ الشُّرَط والأعوان ، وأُعلنتْ في زيارته الطُّبولُ والسَّرانيّ [6].

---

(١) رسالة القيان ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .

(٣) انظر شوقي ضيف – العصر العباسي الثاني ، ص ٨٥ .

(٤) في الأصل " يتنادم " بالدال ، ولعل الصواب ما أثبتّ .

(٥) جمع خَضِيرة ؛ وهي الخضراء من النبات .

(٦) رسالة القيان ، ص ١٧٩ – ١٨٠ . والسّراني : جمع سُرناي ؛ وهي بالفارسيّة البوق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا القيْنةُ نفسُها : فإنّ لها من ضروب الحِيَل ، وأساليب الإيقاع ، ما لعلّه يربو على ما لسيّدها بكثير ، بل يتكامل معه في إطار خُطّةٍ واحدة مرسومةٍ بإحكام ، تتوالى فيها الخطواتُ ؛ واحدةً بعد الأخرى ، بدقّةٍ ودهاء ، وَفق ترتيب مدروس ، يتبدّى فيه أثرُ الخِبرة والدراية بنوازع شهوات الرُّبطاء ، وأسباب استدعائها ، وكيف تترقّى بهم الأحوالُ حتّى يُمسي الواحد منهم عبداً للقَيْنة ، وخادماً لصاحبها . وليس أبينَ في الدلالة على أساليب الخِلابة تلك ، وأبرعَ في تصوير لطائفها ، مِنْ عبارات الجاحظ نفسه في هذه التُّحفة الفنيّة الرائعة ، إذ يقول :

" إنّ القينة لا تكاد تُخالِص في عِشقها ، ولا تُناصح في وُدّها ؛ لأنّها مكتسِبة ، ومجبولةٌ على نصب الحِبالة والشَّرَك للمتربِّطين ؛ ليقتحموا في أُنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهدُ رامتْه باللّحظ ، وداعبته بالتبسُّم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجتْ باقتراحاته ، ونشِطت للشُّرب عند شُربه ، وأظهرت الشّوقَ إلى طول مُكثه ، والصّبابةَ لسرعة عَوْدته ، والحُزْن لفراقه ، فإذا أحسّتْ بأنّ سحرها نَفَذ فيه ، وأنّه قد تعقّل في الشَّرَك ، تزيّدتْ فيما كانت قد شرعتْ فيه ، وأوهمتْه أنّ الذي بها أكثرُ ممّا به منها ، ثمّ كاتبتْه تشكو إليه هواه ، وتُقسم له أنّها مدّت الدَّواة بدَمْعتِها ، وبلّت السِّحاءة بريقها [1] ، وأنّه شَجَنُها وشَجْوها ؛ في فكرها وضميرها ، في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تُؤْثِر أحداً على هواه ، ولا تنوي انحرافاً عنه ، ولا تريده لِماله ؛ بل لنفسه ، ثمّ جعلت الكتابَ في سُدْس طُومار ، وختمتْه بزعفران ، وشدّته بقطعة زِير [2] ، وأظهرتْ سَتْره عن مواليها ؛ ليكون المغرور أوْثقَ بها ، وألَحتْ في اقتضاء جوابه ، فإن أُجيبتْ عنه ادّعتْ أنّها قد صيرّت الجوابَ سَلْوتَها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدتْ :

وصحيفةٍ تحكي الضّميـ ـرَ ، مليحةٍ نغماتُها
جاءتْ وقد قَرِح الفؤا دُ لطول ما استبطاتُها
فضحكتُ حين رأيتُها وبكيتُ حينَ قراتُها
عيني رأتْ ما أنكرَتْ فتبادرت عبراتُها
أظَلومُ نفسي في يديـ ـكِ : حياتُها ووفاتُها

ثمّ تغنّتْ حينئذٍ :

باتَ كتابُ الحبيب نَدماني يحدّثني تارةً وريحاني
أضحكني في الكتاب أوّله ثمّ تمادى به فأبكاني

---

(١) السِّحاءة : ما يُشدّبه الكتابُ من قشرة قرطاسه .

(٢) وتر من أوتار العود .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ تجنّتْ عليه الذُّنوبَ ، وتغايرتْ [١] على أهله ، وحَمَتْه النظر إلى صَواحباها ، وسَقَتْه أنصاف أقداحها ، وجمّشته بعَضوض تفّاحها ، وتحيّةٍ من ريحانها ، وزوّدتْه عند انصرافه خُصْلةً من شعرها ، وقطعةً من مِرْطها [٢] ، وشظيّةً من مِضرابها [٣] ، وأهدتْ إليه في النّيروز تِكّةً وسُكّراً ، وفي المِهرجان خاتماً وتُفّاحةً ، ونقشتْ على خاتمها اسمَه ، وأبدتْ عند العثرة اسمَه ، وغنّتْه إذا رأتْه :

نظرُ المُحبّ إلى الحبيب نعيمُ وصُدوده خطرٌ عليه عظيمُ

ثمّ أخبرتْه أنّها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تتهنّأ بالطّعام وَجْداً به ، ولا تملّ – إذا غاب – الدّموعَ فيه ، ولا ذكرتْه إلاّ تنغّصتْ ، ولا هتفتْ باسمه إلاّ ارتاعتْ ، وأنّها قد جمعتْ قنّينةً من دموعها من البكاء عليه ، وتُنشد عند موافاةِ اسمه بيتَ المجنون :

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه ، أو كان منه مُدانيا

وعند الدّعاء به قولَه :

وداعٍ دعا إذْ نحن بالخَيْف من مِنًى فهيّج أحزانَ الفؤاد ، وما يدري

دعا باسم ليلى غيرَها ، فكأنّما أطار بِلَيْلَى طائراً كان في صدري

وربّما قادها التمويهُ إلى التصحيح ، وربّما شاركتْ صاحبَها في البَلْوى ؛ حتّى تأتي إلى بيته ، فتمكّنه من القُبلة فما فوقَها ، وتُفرشه نفسَها إن استحلّ ذلك منها . وربّما جحدت الصناعةَ لترخص [٤] عليه ، وأظهرت العلّة ، والْتاثتْ على الموالي ، واستباعت من السّادة ، وادّعت الحرّيّة ؛ احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقاً أن يجتاحه كثرةُ ثمنها ، ولا سيّما إذا صادفتْه حلوَ الشّمائل ، رشيق الإشارة ، عذبَ اللّفظ ، دقيق الفهم ، لطيف الحسّ ، خفيف الرُّوح . فإنْ كان يقول الشّعر ويتمثّل به أو يترنّم ؛ كان أحظى له عندها .

وأكثرُ أمرها قلّةُ المُناصحة ، واستعمال الغَدْر والحِيلة في استنطاف ما يحويه المربوطُ والانتقال عنه . وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثةٌ أو أربعة – على أنّهم يتحامَون من الاجتماع ، ويتغايَرُون عند الالتقاء – ، فتبكي لواحدٍ بعين ، وتضحك للآخَر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ،

---

(١) من الغَيْرة ؛ أي أظهرتْ أنّها تغار عليه من نسائه .

(٢) ثوبها .

(٣) ما يُضرب به العود .

(٤) في الأصل "ترحض"، وأثبت قراءةً أدرجها المحقّق في الحاشية . المعنى يحتملها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتُعطي واحداً سرَّها ، والآخرَ علانيتَهـا ، وتُوهمه أنّها له دون الآخر ، وأنّ الذي تُظـهر خـلاف ضميرها . وتكتب إليهم عند الانصراف كُتباً على نسخةٍ واحدة ، تذكر لكلّ واحدٍ منـهم تبرّمَـها بالباقين ، وحرصَها على الخلوة به دونَهم " [1] .

ولعلّ من الضروريّ الآن أن أنوّه بأنّ ما يهمّني هنا هو الوقوفُ على كيفيّة وصف الجـاحظ للحالة الأخلاقيّة في عصره ، وموقفه الخاصّ منها . وأمّا ما يتعلّق بمدى شرعيّة تلك الحالة من الناحيـة الدينيّة ، بما تشتمل عليه من سلوكاتٍ وممارسات ، فإنّه ليس من مقاصد هذا البحث ؛ فإذا نقلتُ أقوال الجاحظ – بلسانه هو أو حكايةً عن بعض معاصريه ممّن يمثّلون طوائف بأكملها في المجتمع – في تصوير جانبٍ من الممارسات الأخلاقيّة لبعض فئات مجتمعه ، وحلّلتُها ، فهذا لا يعني – بحالٍ – أنّني أحمّـل الدّين مسؤوليّة إباحة تلك الممارسات ؛ ولكنْ ربّما يعني أنّ الناس في كلّ عصر يفهمون الدين ويؤوّلون نصوصه ويوجّهون أحكامه بطريقةٍ تخدم مصالحهم وتُسّهل أمور معاشهم ، أو يعني أنّ طائفةً من النـاس – قليلة أو كثيرة – في كلّ عصر ومجتمع لا تتورع عن مخالفة أحكام الدين ، وانتهاك محرّماته . وليـس هذا ممّا يضير الدّين ، ولا ممّا يضيرُ الأديبَ إذ يُصوّر نماذج من تلك المخالفات في كتبه .

إذنْ ، لقد كانت تلك صورةً رسمها الجاحظ لظاهرة اجتماعيّة بارزةٍ في عصره ، ولعلّ الصـورةَ في نفسِها – على ما فيها من حيادٍ أدبيّ – لا تخلو من نقدٍ ضمنيّ لتلك الظّاهرة ؛ فإنّ الأديب في ثنايـا تمثيلاته للواقع يعكسُ نقداً غير مباشر لذلك الواقع . أمّا نقد الجاحظ المباشر لتلك الظّاهرة فإنّه يتبـدّى بوضوحٍ فيما يقدّمه من تحليلٍ علميّ موضوعيّ – إلى حدٍّ ما – لمشكلة الانحراف الأخلاقيّ للقيـان ؛ وذلك إذ يركّز في تحليله لهذه المشكلة على أثَر المَنشأ ، وظروف البيئة الاجتماعيّة التي تكتنـف حيـاة الإنسان في سنواتها الأولى ، ويصبح لها دورٌ مؤثّرٌ في توجيه أفعاله وتصرّفاته وصياغةِ مَسْلكه الأخلاقـيّ فيما بعدُ . والقَينةُ – كما يُصوّر – " تنشأ مِنْ لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدّ عن ذِكْر الله من لَهْو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخُلَعاء والمُجّان ، ومَنْ لا يُسمع منه كلمةُ جِـدّ ، ولا يُرجع منه إلى ثقةٍ ولا دِينٍ ولا صيانةٍ مُروّة . وتروي الحاذقة منهنّ أربعةَ آلافِ صوتٍ فصـاعداً ...، ليس فيها ذكرُ الله إلاّ عن غفلةٍ ، ولا ترهيبٌ من عقاب ، ولا ترغيبٌ في ثواب ؛ وإنّما بُنيتْ كلُّها على ذِكْر الزّنى والقيادة ، والعِشْق والصَّبوة ، والشَّوْق والغُلْمة . ثمّ لا تنفكّ من الدراسة لصناعتها ؛ منكبـةً

---

(١) رسالة القيان ، ص ١٧١ – ١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليها ، تأخذ من المُطارحين ، الذين طرحُهم كلُّه تجميش (١)، وإنشادُهم مُراوَدةٌ . وهي مضطرّةٌ إلى ذلك في صناعتها ؛ لأنّها إن جَفَتْها تفلّتتْ ، وإن أهملَتها نقصتْ ، وإنْ لم تستفد منها وقفتْ " (٢).

فواضحٌ أنّ الجاحظ لا يُحمّل القيان المسؤوليّة الكاملة في انحرافهنّ الأخلاقيّ ، ولكنّه يجعل المسؤوليّة مشتركةً بينهنّ وبين شريحة معيّنة من المجتمع ؛ بل إنّ المسؤوليّة لتمتدّ لتشمل المجتمع نفسَه الذي نمت فيه تلك الشريحة وتضخّمت ، سواء في ذلك المقيّنون أنفسُهم وأولئك الذين يختلفون إلى تلك البيوت للاستمتاع بما فيها من صنوف اللهو واللّذة ، ممّن يغلب عليهم الخلاعة والمجون والهزْل والاستخفاف بالدّين وقلّة المروءة (٣) . ويبلغ وزرُ هذه الشّريحة مداه حين تحجُب عن القينة كل سبيلٍ للخلاص ؛" فهي لو أرادت الهدى لم تعرفْه ، ولو بغت الغفلةَ (٤) لم تقدر عليها ؛ لأنّ فكرها وقلبها وبدنها مشاغيلُ بما هي فيه " (٥).

ومما يستحقّ التنويه به حقّاً في موقف الجاحظ من هذه المسألة أنّه لم يجعلْ جُلَّ اهتمامه منصبّاً على إطلاق حُكْمٍ أخلاقيّ قيميّ على نشاط القيان في المجتمع ؛ بل تجاوز ذلك إلى تحليل المسألة تحليلاً عقلانياً ومحاولة استبطان أسبابها الحقيقيّة ، التي ردّها في النهاية إلى بيئةِ النشأة .

أمّا فيما يتعلّق بالجواري عموماً ، فإن الجاحظ — في رسالته التي أفردها للمفاضلة بينهنّ وبين الغِلمان — يكاد يقصُر عنايته على الخصائص الجنسيّة لهنّ ، ولا غروَ ؛ إذ كان موضوع الرسالة في ذاته يفرض ذلك ، فهي مبنيّةٌ على المفاضلة بين الطّرفين المذكورين من جهةِ أيّهما أبلغ في إحداث المتعة الجسديّة وأشبع للذّة الحِسّ . (٦) وعليه ، فإنّه ربّما لم يكن من الصّواب أن أحاول استشفافَ ملامحِ صورة واضحة ومقنعة عن الوضع العامّ للجواري في مجتمع الجاحظ ، ثم تعرّفَ حقيقة موقف الجاحظ من تلك الصّورة ، اعتماداً على هذه الرسالة وحدَها . خاصّة وأنّني لم أقف في بقيّة كتبه ورسائله التي بين يديّ على ما يتمّم الحدّ الأدنى المقبول من جوانب تلك الصّورة . أضفْ إلى ذلك أنّ حديثه عن الجواري في هذه الرسالة — رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان — لم يكن بلسانه هو ؛ وإنّما حكايةً عمّن

---

(١) مغازلة ومداعبة .

(٢) القيان ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٣) الشاهد السابق .

(٤) خلو الذهن من خواطر المحرّمات

(٥) القيان ، ص ١٧٧ .

(٦) أنظر دليلاً على ذلك اعتراض (صاحب الغلمان) على (صاحب الجواري) ، عندما خرج في محاجّته له عن هذا الإطار المقرّر للمناظرة : ص ١١٦ — ١٢٠ من رسالة (مفاخرة الجواري والغلمان) ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسّميه (صاحب الجواري) ، الذي هو في حقيقته تجريدٌ لطائفةٍ اجتماعيّة معيّنة في عصره ؛ ممّا يحـــول دون تحميل الجاحظ مضمون ما ورد فيها من دعاوى وآراءٍ وأحكام ، وإنْ كنـــتُ لا أزال أرى أنّـــها تتضمّن نقداً مُستتراً لِما تُصوّره من أشكال الانحراف الأخلاقيّ لدى بعض فئـــات المجتمـــع ، وهـــو الانحراف الذي اتّخذ من الجواري والغِلمان وسيلةً له .

(٢) نقد طائفةٍ من الأخلاق الرّذْلة الشّائعة في المجتمع أو بين فئات محدّدة منه :

ومن هذه الأخلاق :

١- إفشاء الأسرار ، وإطلاق اللسان بفضول الكلام .[١]

٢- الغضب والبغي ومجاوزة المقدار في العقوبة .[٢]

٣- الحسد .[٣]

٤- التّفجّع وادّعاء الفضائل .[٤]

٥- التنبُّل (تكلُّف النُّبل) ، والكِبْر .[٥]

٦- مجموعة أخرى من الأخلاق المذمومة تضمّنتها " رسالة المعاش والمعـــاد " ؛ مثـــل : الكذب ، والغَدْر ، والجَزَع ، والغضب ، والمُفاخرة ، وملال الصديـــق القـــديم لأجـــل الطّريف ، والتواني ... الخ .[٦]

٧- البُخل والتّقتير في النّفقة .[٧]

أمّا فيما يتعلق بكيفيّة تصوير الجاحظ لهذه وغيرها من الأخلاق المذمومة ، وما يوجّهه من نقـدٍ للنّماذج البشريّة المشخّصة لها من معاصريه وممّن سبقهم ، فكثيرٌ منه جاء مُضَمَّناً في أثنـــاء الفصلـــين الآخرين من هذا البحث ؛ فيُنظر هناك .

---

(١) انظر رسالة كتمان السّر وحفظ اللّسان في (رسائل الجاحظ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج ١ ، ص ١٣٩ – ١٧٢ .

(٢) انظر رسالة في الجدّ والهزْل ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣١ – ٢٧٨ .

(٣) انظر رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٧ – ٣٧٣ ، و – أيضـــاً – أجزاءً من رسالة الحاســـد والمحسود ، ج ٣ ، ص ٣ – ٢٣ .

(٤) انظر رسالة التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلات ، وانظر – كذلك – أجزاءً منها في رسائل الجاحـــظ ، مصدر ســـابق ، ج ٣ ، ص ٥٥ – ١٠٩ .

(٥) انظر أجزاءً من رسالة النّبل والتنبّل وذمّ الكِبْر ، في رسائل الجاحظ ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ١٦٩ – ١٨٨ .

(٦) انظر هذه الأخلاق وغيرها في رسالة المعاش والمعاد ، أو الأخلاق المحمودة والمذمومة ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩١ – ١٣٤ .

(٧) انظر كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجريّ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) نقد الجاحظ لجماعةٍ من المفسّرين والقضاة ، والمقلّدين من أصحاب الحديث ، في تـــأويلاتهم وأحكامهم :

ومن المواضع التي تبرز فيها سمةُ النقد الحُرّ عند الجاحظ : تلك التي يتعرّض فيها لأصنافٍ مـــن مُنتحلي العلم في عصره ، منتقـــداً بعض ممارساتهم الخاطئة فيما يتعلّق بمذاهبهم في الروايـــة والتفســـير والفهم ، بكلّ صراحة ، ودون أيّة مداهنة أو مجاملة ، ودون أن يتحرّج من ذكْر أسمائهم ، مهما علـــتْ مراتبهم في نظر العامّة ؛ فيبيّن في بعض تلك المواضع – على لسان أستاذه النظّام – أنّه ليس من أخـلاق العالم أن يتكلّف في التأويل ، ويُحمّل النصوص ما لا يُعقل أن تحتمله من المعاني ؛ طمعاً في الاستطراف والتغريب على النّاس ؛ إذ كان عامّتهم مُوْلَعين بكلّ غريب مُستطرَف .ثم يروي عنه رواياتٍ عِـــدّةً [١] يُزري فيها على كثيرٍ من المفسّرين والقُضاة مذاهبَهم في الفهم والتأويل ، ويصرّح بتحفّظه في الأخـــذ عنهم ، والاطمئنانِ إلى أقوالهم . ويُضمّن كلامَه دعوةً إلى المتعلّمين أن يتمهّلوا في تصديق ما يرد عليهم عن أيّ مفسّر ، مهما بلغ قَدْرُه ، حتّى يَعرضوا كلامه على العقل ، وعلى مجاري كـــلام العـــرب في مخاطباتهم ، يقول (النظّام) : " لا تسترسلوا إلى كثيرٍ من المفسّرين ، وإن نَصبوا أنفسَـــهم للعامّـــة ، وأجابوا في كلّ مسألة ؛ فإنّ كثيراً منهم يقول بغير روايةٍ ، على غير أساس . وكلّمـــا كـــان المفسّـــر أغربَ عندهم [عند العامة] كان أحبّ إليهم . ولْيكنْ عندكم عِكرمـــةُ ، والكلـــبيّ ، والسُّـــدّيّ ، والضحّاك ، ومُقاتِل بن سليمانَ ، وأبو بكر الأصمُّ ، في سبيلٍ واحدة " [٢].

ومّما يرويه الجاحظ في ذلك عن أستاذه قولُه :

" وقالوا في قولـــه تعالى " وَيْلٌ للمُطَفّفين " : الويلُ وادٍ في جهنّم ، ثمّ فعدوا يصفـــون ذلـــك الوادي . ومعنى الويل في كلام العرب معروفٌ . وكيف كان في الجاهليّة قبلَ الإسلام ؟ وهو مِنْ أشهر كلامهم ! " [٣].

" وقال آخرون في قوله تعالى " عَيْناً فيها تُسمّى سَلْسَبيلاً " – قالوا : أخطأ مَنْ وصلَ بعـــض هذه الكلمة ببعضٍ . قالـــوا : وإنّمـــا هي : سلْ سبيلاً إليهـــا يـــا محمدُ [٤]. فإنْ كان كما قـــالوا ،

---

(١) راجع تلك الروايات في كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٤ .

(٤) أي ابتغِ السبيل إليها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأيـــن معنى " تُسمّى " ، وعلى أيّ شيء وقـــع قـــولُه " تُسمّى " ، فتسمّى مـــاذا ، ومـــا ذلـــك الشيء ؟! " (١).

"وقال رجلٌ لعُبيد الله بن الحسن القاضي (٢) إنّ أبي أوصى بثُلث مالـــه في الحُصون . قـــال : اذهبْ ، فاشترِ به خيلاً . فقال الرجل : إنّه إنّما ذكر الحُصونَ ! قال أما سمعتَ قولَ الأسعر الجُعفيّ :

ولقد علمت – على تجنُّبيَ الرّدى – . أنّ الحصونَ الخيلُ ، لا مَدَرُ القُرى " (٣)

أمّا " تقليد المختلف من الآثار دونَ التأمـــُّل والاعتبار بأنّ ظلام الشكّ لا يجلـــوه إلاّ مفتـــاحُ اليقين " ؛ فإنّ الجاحظ يُعلن كراهتَه له سبيلاً إلى معرفة الأحكام ، وتمييزِ الحلال من الحرام . (٤) ويُنكـــر على " أصحاب الحديث " " حَيْدهم عن التفتيش ، ومَيْلهم عن التنقير ، وانحرافَهم عن الإنصاف " (٥).

وهنا يظهر تأثُّر – بل تشرُّب – الجاحظ بمذهب المعتزلة في الاعتداد برأي العقـــل وأقْيسَـــته ، والتعويل عليه في فهم النصوص وتقريرِ الأحكام . وعلى ذلك اعتمد في تحليله الأنبذةَ ، خِلافاً لبعـــض الآراء التي تحرّمها استناداً إلى عمل أهل المدينة وما رَوَوْه عن رسول الله – ص – . فيقول في تفنيد تلك الآراء ، وإبطالِ التقليد أصلاً من أصول التشريع ، وتقريرِ الأصول التي ينبغي اتّخاذُها في ذلـــك : " إنّ عِظَم حقّ البَلْدة [مدينة الرسول – ص –] لا يُحِلّ شيئاً ولا يُحرّمه ، وإنّما يُعرَف الحلالُ والحـــرام بالكتاب الناطق [القرآن الكريم] ، والسُّنّة المُجمَع عليها ، والعقول الصحيحة ، والمقاييس المُصيبة .

وبعدُ ، فَمنْ هذا المُهاجريّ أو الأنصاريّ الذي رَوَوْا عنه تحريم الأنبذة ثمّ لم يَرْوُوْا عنه التحليلَ ؟ بل لو أنْصَف القائلُ لَعلمَ أنّ الذين – من أهل المدينة – حرّموا الأنبذة ليسوا بأفضلَ من الذين أحلُّـــوا النّكاح في أدبـــار النّساء ، كما استحلّ قومٌ من أهل المدينة عاريّة الفُروج ، وحرّم بعضُـــــهم ذبـــائح الزُّنوج ؛ لأنّهم – فيما زعموا – مُشوَّهو الخَلْق ، ثمّ حكموا بالشاهد واليمين خِلافاً لظاهر التـــنزيل . وأهلُ المدينة ، وإنْ كانـــوا جَلدوا على الرِّيح الخفيّ [ريح الخمر] ، فقد جلدوا على حَمْـــل الـــزِّقّ الفارغ ؛ لأنّهم زعموا أنّه آلةُ الخمر ، حتّى قال بعضُ من يُنكر عليهم : فهلاّ جلدوا أنفسَهم ? لأنّـــه

---

(١) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٤.

(٢) انظر ترجمة موجزة له في الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ، حاشية ٢.

(٣) كتاب الحيوان ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

(٤) انظر رسالة الشارب والمشروب ، في رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس منهم إلاّ ومعه آلةُ الزّنى ! وكان يجب – على هذا المثال – أنْ يُحكَم بمثل ذلك علـــى حـــامل السّيف والسكّين والسمّ القاتل ، في نظائر ذلك ؛ لأنّ هذه كلّها آلاتُ القتل " [١].

ثمّ ينتقل الجاحظ – في السّياق نفسه – إلى تأكيد الصّورة الإنسانيّة التاريخيّة للأجيـال الأولى ، التي عاشت في العصورِ التأسيسيّة المبكّرة لهذه الأمّة ؛ مَثَلُهم مَثَلُ الناس في كلّ عصر . وحتّى أولئـــك الذين أقاموا في مدينة الرسول – ص – ، وأخذوا عن صحابته الذين عاصروه ، لا يمكـــن – في رأي الجاحظ – أن ننفي عنهم جملةَ السّمات والخصائص الإنسانيّة التي تُؤثّر في تصرّفات الناس جميعـــهم ، وتُوجّه سلوكاتهم وأفعالهم على اختلافٍ بينهم في شدّة ذلك التأثّر ؛ إذ هي صفاتٌ ذاتيّة جوهريّة فيـهم بما هم بشرٌ ، وبصرف النظر عن معتقداتهم وقِيَمهم ومستوياتهم الحضاريّة ؛ كالنُّزوع نحو الشّـهوات ، وطلبِ الملاذّ ، وأشباه ذلك ممّا لا نستطيع أنْ نُنزّه عنه جيلاً من أجيال الناس ، مهما كانَ ، ومـــهما بلغتْ درجةُ رُوحانيّته ومثاليّته . يقول الجاحظ في ذلك ، متابعاً الردّ على أصحاب الحديث ممّن ذهبـوا إلى تحريم الأنبذة ، واحتجّوا لذلك بعملِ أهل المدينة ، مستشهداً على رأيه بوقائعَ ثابتةٍ في كتب التـاريخ والأدب – : " وبعدُ ، فأهلُ المدينة لم يَخرجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كلُّ مـــا يقولونه حقّاً وصواباً ، لَجلدوا مَنْ كان في دار مَعْبَـــد ، والغَريض ، وابن سُريج ، ودَحمـــان ، وابـــن مُحرز ، وعَلُّويه ، وابن جامع ، ومخارق ، وشُرَيك ، ووَكيع ، وحمّاد ، وإبراهيم [٢] ، وجماعة التّـابعين والسَّلَف والمُتقدّمين ؛ لأنّ هؤلاء – فيما زعموا – كانوا يشربون الأنبذة التي هي عندهم [٣] خـــمرٌ ؛ وأولئك كانوا يُعالجون الأغانيّ – التي هي حِلٌّ طِلْق – على نَقْرِ العِيدان ، والطّنابـــير ، والنّايـــات ، والصَّنج ، والزِّنج [٤] والمعازف التي ليستْ مُحرّمة ولا منهيّاً عن شيء منها " . [٥]

(٤) نقد آراء وأخبار متضمّنةٍ أحكاماً خُلقيّة :

وهـــذا الضّرْبُ من النقد لا يقتصر في أدب الجاحظ على الموضوعات الخُلقيّة ؛ بل ينســـحب على أدبه عموماً بموضوعاته المتباينة ؛ فالجاحظُ لا يملك نفسَه أن لا ينتقد أيّ خبر لا يقتنع بمضمونـــه –

---

(١) رسالة الشارب والمشروب ، ص ٢٧٧ .

(٢) هؤلاء جماعـــة من حُذّاق المغنّين والمُوسيقيّين ، وظُرفائهم . انظر في تراجمهم حواشي المحقق ١–١٠ ، ص ٢٧٨ ، والحاشـــية ١ ، ص ٢٧٩ من رسالة الشارب والمشروب .

(٣) أي عند أهل المدينة ، كما يدّعي رُواة التحريم .

(٤) آلة موسيقيّة وتريّة ، يشبه إيقاعها إيقاع الصّنج .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ – ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو يعلّقَ عليه ، مبيّناً وجهةَ نظره الخاصّة في الفكرة المطروحة ، ومستشهداً عليها بالأدلّة العقليّة والنقليّة ونتائج التجارب العمليّة التي تُؤيّدها .

ومن ذلك – فيما يخصّ موضوع الأخلاق – أنّه في إحدى رسائله أورد قصّةً لرجلٍ سبّ الحجّاج وأوقعَ به بين يدي الخليفة عبد الملك بن مروان ، ثمّ لمّا خرج من عنده ، سأله الناس عمّا جرى بينهما ، فأخبرهم بما فَرَط منه ، فلامه أحدُ أصحابه ؛ مخافةَ أن يُخبر الخليفةُ الحجّاج بما قاله فيه ، فردّ عليه بأنّ ثقته بعقل الخليفة ورزانته لا تعدلها ثقتُه بأيّ رجلٍ سواه . ثم يُعلّق الجاحظ على هذا الخبر بقوله – منتقِداً الرّجل – : " وهذا واللهِ – أبقاك اللهُ – الغَلَطُ البيّن ، والعذرُ المُلَفّق ، وتحسينُ فارط الخطأ ؛ لأنّه ليس كلُّ راجح وعاقل بناصحٍ لصاحب السرّ " [1].

ومِنْ سِمات النّزعة النقديّة الدّالّةِ على واقعيّة الجاحظ في تناوله للأخلاق : أنّه يميل إلى استنباط أحكامه الخُلُقيّة التي يضمّنها آراءَه النقديّة من الواقع العمليّ ، ولا يأبه كثيراً بالنّصوص إن جاءتْ مخالفةً لذلك الواقع . فواقعُ الحياةِ ، وما يبلُوه المرء فيها من تجارب ، هو أحدُ مصادر الجاحظ المهمّة في بناء كثيرٍ من أحكامه الخلقيّة .

يُورد الجاحظ بعضَ النّصوص الشعريّة والنثريّة ، يُنوّه فيها أصحابها بحفظهم الأسرارَ والمبالغةِ في كتمانها ، ومنها قولُ مسكين الدارميّ [2] :

إنّي امرؤٌ منّي الحياءُ الذي ترى ... أنوءُ بأخلاقٍ قليلٍ خداعُها
أُواخي رجالاً لستُ أُطلعُ بعضَهم ... على سرّ بعضٍ ، غيرَ أنّي جماعُها
يظلّون شتّى في البلاد ، وسرُّهم ... إلى صخرةٍ ، أعيا الرّجالَ انصداعُها

ثمّ يُعقّب على تلك النّصوص بقوله : "وهذه صفاتٌ موجودة بالأقوال ، معدومةٌ بالأفعال ، والمغرورُ ممّن اغترّ بما يَعِدُه الواعِدُ منها ، دونَ أنْ يبلوَ الخبرَ " [3] . وكان قد قدّم لأبيات الدارميّ الآنفة بقوله : " وإلاّ فمتى تجد رجلاً فيه الصّفةُ التي وصف بها مسكين الدارميّ نفسه " [4] ، وبيّنَ أنّ المعنى الذي يدلّ عليه هذا الاستفهامُ هو النفي والاستبعاد ، مع أنّ احتمال وُجود رجلٍ – أو أكثر – يكون

---

(١) انظر رسالة كتمان السّر وحفظ اللّسان ، في الرسائل ، ج ١ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .
(٢) كتمان السّر وحفظ اللّسان ، ص ١٥٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهلاً لاستيداع السرّ ويقدرُ على حِفظه ليس محالاً ؛ ولكنّ الجاحظ لا يَعبأ كثيراً بالمُمكِنات إذا لم تكن مدعومةً بشواهدَ مِنْ واقع الحياة ، نابعةٍ من التجارب العمليّة لمن يُوجّه إليهم خِطابه . وهذا معنى عبارته الآنفة : " هذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومةٌ بالأفعال ". وأمّا الذي تُؤكّده التجربةُ فهو " أنّ مَنْ يُفضَى إليه بالشّيء ، يبلغ مِن إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسولُ المُستحفَظ ، المعينُ بتبليغ الرّسالة ، المحمودُ المُجازَى على أدائها " [١] . يدلُّ على ذلك أنّ مِن الناس مَنْ كان يحتال لنشر بعض الأخبار التي يُريد إشاعتها بإلقائها إلى مَنْ يعرف نميمته وسوءَ صِيانته للسانه ، فيُوهمه أنّه يستحفظه سرّاً ، فتكون إذاعتُه له أسرعَ من النار في الهشيم ؛ كذلك فعل عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – عندما أراد أن يُشهِر إسلامه ، ويُشيعَ خبره في مكّة [٢] .

فهذا هو الواقع الذي يراه الجاحظ ، ويبني عليه مِن ثَمّ أحكامه الخلقيّة التي تنسجم معه ، بعيداً عن أيّة ادّعاءاتٍ مثاليّة ، تسجّلها النصوص ، حقيقةٍ بالنّقد والمُراجعة .

وفي سياق الرسالة نفسها – رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان – يروي الجاحظ طائفةً من الأقوال في إباحة اغتياب أصنافٍ من الناس ، وتَعَقُّبِ أسرارهم ، وإذاعتِها ؛ مثل قول بعضهم : " الفاسقُ لا غِيْبة له " [٣] ، وقولٍ آخر : " أترعُون من ذِكْر الفاسق ؟ اذكروه يعرفْه الناسُ " [٤] ، وقولِ غيره :" الغِيبةُ فاكهة النسّاك " [٥] ثمّ يُعقّب على تلك الأقوال ، مُنتقِداً ومُزرِياً على مَنْ يتّخذ منها ومن أمثالها ذريعةً إلى استحلالِ غِيبة الناس ، وتتبُّعِ أسرارهم ؛ فيقول ما مؤدّاه [٦] : إنّ الله لم يُرخّص في اغتياب مؤمنٍ قطُّ ؛ بل إنّه – سبحانه – شدّد في تحريم هذا الخُلق ، وصوّره صورةً منفّرة تتقزّز منها النفوس ؛ فضرب مثلاً للمغتاب بمَنْ " يأكل لحم أخيه ميتاً " [٧] . فليس في اغتياب الناس عُذْرٌ أيّاً ما كانوا ؛ بل هو ظُلْم ، ودليلٌ على الخِسّة والدّناءة وسقوط الهمّة . ولكنّ هذا السُّلوك استحوذ على الناس ، وترسّخ في طبائعهم ، وأكّده سوءُ العادة عندهم ، فلا يكاد ينجو منه إنسانٌ ؛ فأمّا إن كان عَدْلاً مُنصِفاً ، فلا يعدم أن يرى من بعض الناس ما يُنكِره ويستاء له ، فيَظهر أثرُ إنكاره واستيائه في وجهه ولسانه غِيْبةً ونميمة على مَنْ بدر منه ذلك الفعل ؛ وأمّا إن كان عدوّاً أو حاسداً ، فلن يُعجزه أن

---

(١) كتمان السّر ، ص ١٥٣ .

(٢) انظر الخبر في رسالة كتمان السّر ، ص ١٥٣ .

(٣) كتمان السر وحفظ اللسان ، ص ١٥٩ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) انظر نصّ هذا القول بأسلوب الجاحظ ، في رسالة كتمان السّر ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ؛ فإنّه بديعٌ للغاية .

(٧) من الآية ١٢ من سورة الحجرات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقف من عدوّه أو محسوده على عيـوب أو سقطات ينشرها في الناس ، ويتزيّد فيها ، وإنْ أعياه ذلـك افترى عليه ما ليس فيه ، و " تقوّل ، وقبّح الحَسَنَ ، وزاد في قُبح القبيح ".

وتعقّب الأسرار ونشرُها – كما يرى الجاحظ – لـه حظٌّ كبير مِنْ معنى الغِيْبة ؛ لأنّ " كـلّ سِرٍ في الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طيٌّ عن إنسان " . وإنّما يتكلّف هذا الأمرَ مَنْ غفل عـن عيوب نفسه ، " وغفر ذنوبها " وشغلها بتتبُّع معايب الناس ، ونصّب نفسَه حَكَماً على تصرّفاتهم ؛ ليس رغبةً منه في إصلاحهم ، ولا شُعوراً بالمسؤوليّة تجاههم ، ولا لأنّه محمودٌ عندهم بهذا الفعل ؛ ولكنّـها عادةٌ درج عليها ، وخُلق استحكم فيه حتّى صار طبعاً راسخاً [1].

ثمّ يقترح الجاحظ عِلاجاً لهذا الخُلق الرّذْل ؛ أن ينشغل كلّ إنسانٍ بتقـرّي عيـوب نفسـه ، ومحاولة إصلاحها ، وأن يترك ما لا يعنيه من شؤون الناس ، وأن يستعمل العدل والإنصاف في تعاملـه معهم : فلا يطلب منهم إلاّ ما يطلبه مِن نفسه مِن الخير والصلاح ، ولا يعيبهم بعيبٍ لا يخلو هو ذاتُـه منه حتّى يُصلحه من نفسه . [2]

ويستلهم الجاحظ في ذلك طائفةً كبيرة من الأخبار والنصوص الدينيّـة وأقـوال الحكمـاء والعلماء ؛ كقوله مُجملاً معاني عددٍ من الآيات : " وما أحقَّ مَنْ أُحصيتْ ألفاظُه ، وليس من قولٍ يبدر منه إلاّ لديه رقيبٌ عتيد ، ومَنْ أُحصيتْ عليه مثاقيلُ الذرّ ، واستُشهد عليه جلـدُه وجوارحـه – أن يضبط لسانه " [3] . ويروي حديثَ الرسول – ص – " رحـمَ اللهُ عبداً أنفق الفَضْـلَ [الزائد عـن الحاجة] من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، وشغله عيبـُه عن عيـوب الناس ". وينقل قولَ عيسى ابنِ مريمَ – ص – :" يا بني إسرائيل ، أيرى أحدُكم القذاةَ في عين أخيه ، ويَعْمَى عن الجذع المعترِض في عينه ؟! ". ويروي قولَ عمرو بن عُبيد : " أعْيَتْني ثلاثُ خِلال : تركي ما لا يعنيني ، ودرهمٌ من حِلّه ،

---

(١) كتمان السر ، ص ١٦٠ .

(٢) انظر هذه المعاني في رسالة كتمان السّر وحفظ اللّسان ، ص ١٦١ – ١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ . ومن الآيات التي يستلهمها الجاحظ في هذا النصّ قولُه تعالى " أحصاه الله ونَسُوه ، والله على كلّ شـيء شهيد " (المجادلة ، من الآية ٦) ، وقوله " ما ينطق مِن قولٍ إلا لديه رقيب عتيد " (ق ، ١٨) وقوله " ومَنْ يعمل مثقال ذرّةٍ شراً يـره " (الزلزلة ، ٨) ، وقوله " ويومَ يُحشَر أعداء الله إلى النار فهم يوزَعون . حتّى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بمـا كانوا يعملون " (فصّلـت ، ١٩ – ٢٠) ، وقـوله " اليومَ نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسـبون " (يس ، ٦٥) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخٌ إذا احتجتُ إلى ما في يديه بذله لي ". ويروي – أيضاً – قولَ أحد الحكماء : " إنّ من أصعب الأعمال : إنصافَك في نفسك ، ومواساتك أخاك في مالك ، وذِكْرَ الله " [١].

ومن القضايا التي يقف عندها الجاحظ وقفةً نقديّة ، ولها صِلةٌ بالممارسات الأخلاقيّة لدى بعض الأمم – قضيّةُ الخِصاء والخِصيان التي يتحدّث عنها مطوّلاً في " كتاب الحيوان " [٢] ، وينسب ابتداعها إلى الروم ، ممّا يستثير في نفسه مُفارقةً تستحقّ التوقّف والنقد ؛ ذلك أنّ الروم أمّةٌ نصرانيّة ، والنصارى " يدّعون من الرأفة والرحمة ، ورقّة القلب والكَبِد ، ما لا يدّعيه أحدٌ من جميع الأصناف " [٣] ، ثم يتولّوْن كِبْرَ هذا العمل ، ويَسنّونه لمن جاء بعدهم من الناس ، وهو من القسوة والإجرام بالمكان الذي تتخيّل ، ومع ما يجلبه ذلك عليهم مِن حِقْد الخِصيان وضغينتهم وعداوتهم [٤].

---

(١)* انظر هذه الآثار في رسالة كتمان السّر ، ص ١٦٢ . وهي جزءٌ ممّا أورده الجاحظ في سياق نقده لأهل الغِيبة والنميمة ، وإنّما انتقيتُ ما أثبتّه في هذا الموضع على سبيل الاستشهاد ، وجعلته ممثّلا لأنواعها المختلفة ؛ من آياتٍ وأحاديثَ وأقوالٍ للأنبياء والحكماء .

(٢) راجع خاصّة المجلّد الأوّل من الكتاب .

(٣) الحيوان ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : النظرة الواقعية :

وأقصد بالواقعيّة هنا ذلك الاتّجاه الذي يُعنَى بتصوير القِيَم والعادات الخُلقيّة المنعكسة عن الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ والدينيّ المعاصر للكاتب ، كما يتبدّى في سلوكات طوائف الناس المختلفة على تباين طبقاتهم ، تصويراً صادقاً أميناً ، في سياق أدبيّ يميزه من التسجيل التاريخيّ التوثيقيّ . وفيما يلي أبرز الملامح الدالّة على واقعيّة الجاحظ في أدبه الأخلاقيّ ضمنَ المفهوم الذي أشرنا إليه آنفاً :

– لا يقف الجاحظُ عنايتَه في معالجاته الأخلاقيّة على إقامة الدليل النظريّ على صحّة المسألة التي يطرحها فحسب ؛ وإنّما يسعى إلى أن يكون الرأي الذي يخلُص إليه في تلك المسألة ملائماً للتطبيق في واقع الحياة العمليّة .

وهذا فَرْقٌ يمكن تسجيله بين طريقة الجاحظ الأديب وطريقة بعض الفلاسفة الذين يقصُرون اهتمامهم على إثبات صدق قضاياهم إثباتاً عقليّاً نظريّاً ، بغضّ النظر عن مدى قدرتها على الصمود في سياق الحياة الواقعيّة ؛ كما فعل سقراط ، عندما جعل أحدَ مبادئه : " أنّه لا ينبغي ألبتّة إتيانُ الشرّ بأيّة حُجّةٍ كانت ؛ بل ليس سائغاً أنْ يُدفَع الشرّ بالشرّ " [١]. ويُفهم من هذا أنّه ليس من شأن الإنسان الفاضل أن يأتي الشرّ أو الرذيلة بأيّ شكلٍ من أشكالهما ، ولأيّ سببٍ كان .

أمّا عند الجاحظ ، فيكفي الإنسانَ حتّى يُسمّى فاضلاً أنْ تفوق حسناتُه سيّئاتِه ، وأن يكون الغالبَ على أفعاله الفضيلةُ ؛ إذ المرءُ يُحكَمُ عليه بالمستفيض المشهور من أفعاله ، ولا يلزمه أنْ يبرأ مُطلقاً من كلّ أسباب الشرّ والرذيلة ؛ بل بحسبه أن " يكون أغلبَ الأشياء على أفاعيله كلُّ ما تحمده العوامُّ ، ولا تذمّه الجماعات ؛ فإنّ ذلك يُعفّي على كلّ خللٍ – إنْ كان -- " [٢]. وهذا المقياس نفسُه يكاد يطّرد في تقييم جميع الأخلاق ؛ فيكفي لكي يُسمَّى المرءُ " جواداً أن يقوم بواجب الحقوق عند النوائب ، مع بعض التفضّل على الراغبين . وإذا وجَبَ له اسمُ الجُوْد ، زال عنه اسمُ البخل " [٣].

---

(١) انظر أرسطو – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، مقدّمة المترجم إلى الفرنسيّة ، ص ٣٧ .

(٢) رسالة المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج ١ ، ص ١٢٧ . وانظر – بالإضافة إلى هذا النص – ما ورد في ص ١٣١ من الرسالة نفسها ؛ حيث يُرضي مَنْ يوجّه إليه رسالته بتكبير نعمه – في أعين الناس – بإظهار استصغارها ، ونشرها بتكلّف إخفائها . وهذا يدلّ على عناية الجاحظ البالغة برأي الوسط الاجتماعيّ ونظرته إلى الفرد ، إلى درجة اتّخاذ حُكمِ عامّة الناس معياراً للسلوك ينبغي مراعاتُه والخضوع له .

(٣) رسالة المعاش والمعاد ، ص ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ الفيلسوف – مثال مَنْ ذكرنا – لا يرضى أن يغضّ الطّرْف عن أيّة مخالفة أو خطأ أخلاقيّ مهما صغُر ، ولا يهمّه رأيُ العوامّ في كثير ولا قليل ؛ بل ما يهمّه هو رأي العقل المحض ، وما يقود إليه المنطق . في حين يصرف الجاحظ قدراً كبيراً من عنايته إلى ضمان تحقيق الفرد درجةً مقبولةً من التوافق الاجتماعيّ والانسجام مع الوسط البشريّ الذي يعيش فيه ، أكثر من العناية بموافقة المبادئ والمثاليّات الأخلاقيّة النظريّة المتعالية عن متطلّبات الواقع . وهو عكسُ ما يفعله بعض الفلاسفة حين يقدّم مبادئه على كلّ اعتبار ؛ كما يتبدّى من عرض أفلاطون لأحد مبادئ أستاذه سقراط في الأخلاق ؛ إذ يقول : " إنّه يلزم أن لا نهتمّ بما ستقوله عنّا الغوغاءُ ، بل بما يقوله الذي يعرف العدلَ والظُّلم . وهذا القاضي الوحيد لأعمالنا ؛ إنّما هو الحقّ ؛ إنّما هو الله " [١].

– ومن هنا لم يقتصر الجاحظ في تقريره للقواعد الأخلاقيّة على ما تمدّه به النصوص بل أضاف إلى ذلك المصدرِ مصدراً ثانياً رئيساً ؛ متمثّلاً في التجارب الواقعيّة وأنماط السُّلوك العمليّة لشخصيّات بارزة في عصره والعصور السّابقة لعصره ، تمتّع بمكانةٍ دينيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو عسكريّة أو أدبيّة أو علميّة ... مرموقة . فيستقرئ مِن تجاربهم معاييرَ يبني عليها أحكاماً خلُقيّة ، يعرضها على الناس في عصره ، ويستند إليها في انتقاد سلوكات فئاتٍ منهم من الناحية الاجتماعيّة – الأخلاقيّة . ومن ذلك – مثلاً – ما يسوقه من حكاياتٍ عن بعض الصّحابة والتابعين ، يَظهر منها أنّهم لم يكونوا يتحرّجون من استعمال الألفاظ الصريحة في التعبير عن المعاني التي يقصدون إليها . ثمّ يستند إلى تلك الحكايات في الرّد على طائفةٍ من المتزمّتين في عصره – إذ يقول : " وبعض الناس إذا انتهى إلى ذِكْر الحِرِ والأيْر والنّيك ، ارتَدَع وأظهرَ التقزُّز ، واستعمل بابَ التورُّع . وأكثرُ مَنْ تجده كذلك فإنّما هو رجلٌ ليس معه مِن العَفاف والكرم والنُّبل والوَقار ، إلاّ بقدْر هذا الشَّكْل من التصنّع . ولم يُكشَف قطُّ صاحبُ رِياءٍ ونفاق إلاّ عن لُؤم مُستعمَل ، ونذالةٍ متمكّنة " [٢] . وكذلك ما يُورده من قصصٍ عن عِدّةٍ من الرجال والنساء المشهورين في الجاهليّة والإسلام ، حكايةً عن جماعةٍ من الظُّرفاء والمقيّنين في عصره ، يبدو منها أنّهم لم يكونوا يجدون بأساً في مُخالطة الرجال للنّساء ، والنظر إليهنّ ، والتحدّث معهنّ ، وسماعِ الغناء منهنّ ، وأنّهم لم يكونوا يُنكرون من ذلك إلاّ التورّط في فاحشة الزّنى ، وأمّا ما عداها فلا يتحرّجون منه في تعاملهم مع النساء . [٣]

---

(١) أرسطو – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس) ، مقدّمة المترجم الفرنسيّ ، ص ٣٨ .

(٢) انظر (كتاب الحيوان) ، ج ٣ ، ص ٤٠ – ٤٣ . وقارِن بما ورد في (رسالة مفاخرة الجواري والغلمان)، الرسائل ، ج ٢ ، ص ٩٢ – ٩٥ .

(٣) انظر (كتاب القيان) ، في رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٩ – ١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– ومن هنا – أيضاً – لم يكن الجاحظ يسيرُ إلى النّهاية مع المثاليّات الخُلقيّة ؛ بل يدعو إليها ما دامت تعود على صاحبها بالمنفعة ، وتدفع عنه الضّرر في حياته العمليّة . وأمّا إذا عجَزتْ عن أداء هذا الدور الوظيفيّ ، فإنّه – أي الجاحظ – مُستعِدٌّ للحَيْد عنها ، بل للأخذ بأضدادها ممّا هي – في حقيقتها – أخلاقٌ مذمومة . وللتوضيح أقول : إنّ معيار كون الأخلاق محمودةً أو مذمومة عند الجاحظ ليس معياراً نظريّاً أو مجرّداً عن الواقع ، متعالياً عليه ؛ بل هو الواقع نفسُه ، أو ما يُمليه ذلك الواقعُ ؛ فالأخلاقُ محمودةٌ ما دامت مُجدِيةً في واقع الحياة ، وسرعان ما تفقد تلك الصّفة إذا فقدتْ جدواها ، وتصبح أضدادها أحقَّ بها . ولذلك يُوصي الجاحظ مَنْ يُوجّه إليه خِطابه الخُلقيّ بأن لا يُهمل الأخلاقَ المذمومةَ إهمالاً كاملاً ؛ لأنّها تنفع حيث لا تنفع الأخلاقُ المحمودةُ – يقول : " واعلمْ أنّه ليس من الأخلاق التي ذمّتها الحكماءُ خُلُقٌ إلاّ وقد ينفع في بعض الحالات ، ويُرَدّ به شَكْله ، ويُقام بإزاء مِثله ، ويُدافَع به نظيرُه " [1] ، على أن تكون الأخلاق المحمودة هي الغالبةَ على سلوكه عموماً – يقول : " وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ؛ فَلْتكنْ محموداها غالبةً على أفعالك ، مُحكَمةً في أمورك " [2] . كما يُوصيه بأن لا يُفرّط في صُحبة طوائف الناس على اختلاف منازلهم وصناعاتهم ، مهما بدتْ في نظره مُحتقَرةً أو رَذْلةً لأوّل وهلة ؛ إذ كلٌّ منهم قد تقع الحاجةُ إليه في أمرٍ لا ينهض به غيرُه . [3]

ومن هذا المنظور الواقعيّ في التعامل مع القِيمَ الخلقيّة تجدُ الجاحظ لا يُخفي إعجابه ببيتيّ النابغة الجَعْدي – اللذين يلخّص فيهما الجعديّ مذهبَه في العداوة ؛ بأنّ المرء حتّى يحمي نفسَه وعِرضه ويحفظَ هَيْبتَه بين الناس ، ينبغي أنْ لا يكون حِلمُه صِرْفاً ؛ بل ممزوجاً بشيء من الجَهْل ، وليس المقصود بالجهل – هنا – ضِدَّ العِلْم ؛ وإنّما هو الحميّة والغضب والتعدّي والتجبّر [4] . والبيتان هما :

ولا خيرَ في جَهْل إذا لم يكنْ له ... حليمٌ ، إذا ما أورد الأمر أصدرا

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم تكن له ... بوادرُ تحمي صَفْوه أن يُكدَّرا

---

(١) رسالة المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٢) رسالة المعاش والمعاد ، ص ١٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) راجع اللّسان ، مادة (جهل) ، وقارن رأي الجاحظ هنا بمبدأ سقراط في النصّ الذي أوردناه في موضع سابق من هذا الحديث ، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإعجابُ الجاحظ بهذين البيتين – كما يظهر مِن قوله مُعقّباً عليهما : " فهذا أحسنُ مـا رُوي في البادرة التي يُصان بها الحِلْم " [١] – إنّما هو امتدادٌ لإعجاب الرسول – ص – قبلَه بهما ، والـذي يتضمّن إقرارَه بالمعنى الذي تضمّناه . وعليه ، فإنّ الاعتراف بالغضب والحميّة أو الاستعدادات الشـرّيرة في نفس الإنسان ، وأنّه قد يُحتاج إلى أن تكون هي الوَجْهةَ لسلوكه في بعض الأحيان – يشكّل مبـدءاً من المبادئ التي تقوم عليها النظريّة الخُلُقيّة الإسلاميّة بعامّة ، وهي التي اعتمدتْ أساساً على نصـوص القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف وكثيرٍ مـن أخلاق العرب في " الجاهليّة " التي أقرّها الديـن الجديد ، مما حملتْه أشعارهم ، وتجسّد في ممارساتهم الحياتيّة . [٢]

وفي هذا الإطار نفسه يستشهد الجاحظ بقولهم :" الكاملُ مَنْ عُدَّتْ سقطاتُه " [٣] ، ممّا يعني – ضمناً – أنّ للكامل سقطاتٍ ، ولكنّها قليلةٌ يمكن عدُّها ، وليست – على أيّة حـال – معدومـةً أو مُحالة .

والجاحظ لا يُطالب قارئه بتجسيد التصوّرات المثاليّة للأخلاق في ممارساته اليوميّة ؛ بل إنّه يركّز اهتمامه على الصِّيَغ الواقعيّة – الممكنة والنافعة لمُنتحلها – من المبادئ الخُلُقيّة . ولذلك كانت أخـلاق الجاحظ في أدبه أخلاقاً عمليّة تطبيقيّة في المقام الأوّل ، إلى درجة أنّ المتصفّح لتوجيهاته ووصاياه لمـن يوجّه إليهم رسائله ، ربما يحكم على بعضها – أحياناً – بأنّها مخالفةٌ أو منافيةٌ للقيم الأخلاقيّة المثاليّـة . وللتمثيل على هذه الفكرة أنقل الوصيّة التالية التي وجّهها الجاحظ إلى الوزير الزيّات فيما ينبغـي مـن العقوبة على بعض أنواع الذنوب – يقول : " فإذا وجدتَ الذّنب – بعد ذلك – لا سـبب لـه إلاّ البغضة ، فلو لم ترضَ لصاحبه بعقاب دونَ قَعْر جهنّـم ، لَعذرك كثيرٌ من العُقَلاء ، ولصوّب رأيـك عالَمٌ من الأشراف . ومتى كانت علّته طبيعةَ البذاء ، وخلُقه الشّرارةَ والتسرُّع ، فاقتُلْه قتلَ العقـارب ، وادمغْه دمغَ رؤوس الحيّات " [٤] . فلا تجده في هذا النصّ يُعنَى بإرشاد الوزير إلى الطريقة التي يقوّم بهـا ذلك الانحرافَ الأخلاقيّ عند بعض معاشريه بالرِّفق واللين ؛ بل يُوصيه بأن يقتله ويبالغَ في التنكيل بـه .

---

(١) رسالـة (فصل ما بين الغداوة والحسد) ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٦٤ . والبادرة : هي الكلام الذي يسـبق مـن الإنسـان في الغضب ، اللّسان ، مادّة (بدر) .

(٢) ربّما كانت صورة " الجاهليّة " خاطئةً أو مشوّهةً في أذهان الكثيرين ، وفي حاجةٍ إلى تعديل أو تصحيح ؛ والسبب في ذلـك هـو ظنّهم أنّ الكلمة مشتقّة من " الجَهْل " الذي يعني قلة المعرفة أو ضعف الفهم ؛ وباختصار : " التخلف الحضاريّ "، وليـس الأمـر – في الحقيقة – كذلك ؛ لأنّ الكلمة مأخوذة من " الجهل " بالمعنى الأخلاقيّ ، وهي تضمّ بهذا المعنى مجموعة أخلاق ؛ منها : الظُّـلم والعُـدوان والثأر والغضب والحميـّة والكِبْر ، وتأتي في مُقابل كلمة " الحِلْم " ، وليس لها علاقةٌ بالمستوى المعرفيّ أو الحضاريّ للعصـر . راجـع اللّسان ، مادّة (جهل) .

(٣) رسالة كتمان السّر وحفظ اللّسان ، الرسائل ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٤) رسالة في الجِدّ والهزْل ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ السبب في هذا هو أنّ الجاحظ لا يعتقد بوجود علاجٍ ناجع للبغضة – كما الحسد – إلاّ بموت صاحبها ؛ يقول : " والحسَدُ نارٌ ، وقودُه الروح ؛ لا تبوخ أبداً أو يفنى الوقود . والحَسَدُ لا يَبْلَى إلاّ ببلَى المحسود أو الحاسد " ؛ لأنّ " الحسد جوهر " وليس اكتساباً ، وهو " لا يكون إلاّ عن فساد الطّبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السُّوس " [١] ؛ فإصلاحُه غيرُ مُؤمَّل ، وليس له عِلاجٌ إلاّ فناءُ صاحبه .

ومن أمثلة هذا الملمح من ملامح الواقعيّة – الذي يصدر عن العناية بمتطلّبات الواقع العمليّ أكثر من التشبُّث الغالي بالمثاليّات الخُلُقيّة – ما يُوصي به الجاحظ قارئه مِن إساءة الظنّ بجميع الناس ؛ إذ كان هذا عمليّاً هو السبيلَ الوحيد – في نظره – لحفظ الأسرار ، ومنع ذيوعها وانتشارها . أمّا حُسْنُ الظنّ بالناس في هذا الموضع ، فإنّه يُغرى صاحبه بإفشاء سرّه إلى مَنْ يُحسن الظنَّ به ؛ وهذا مَدْعاةٌ لشيوعه في الناس : بطريقةٍ أو بأخرى ، بقصدٍ أو بغير قصد . ولا يُلتَفَتُ في ذلك إلى ما يدّعيه بعضُ الناس في أنفسهم مِن حِياطةٍ للسرّ ، ومبالغةٍ في ستره وحفظه ؛ فإنّ هذا ممّا يجوز بالأقوال ، وينعدم بالأفعال . [٢]

والجاحظ يُؤمن بأن الفائدة من الأخلاق – في نهاية المطاف – إنّما تُجنَى بتطبيقها في مواقف الحياة العمليّة المُوجبة لها ، وليس بمجرّد التنظير والوعظ من غير عمل ؛ فحظٌّ من يسمع الخيرَ ويعمل بمقتضاه أوفَرُ بكثيرٍ من حظّ قائله إنْ لم يشفع قولَه بالعمل ، كما أنّ آثار الأفعال المحمودة باقيةٌ في الدنيا والآخرة ، أمّا الأقوال فسرعان ما ينقضي أثرها بانقضائها [٣]. وإلى هذا ذهب أرسطو مِن قبلُ ، عندما اختتم كتابه في " علم الأخلاق " بقوله : " أَوْلى بنا أن نظّنّ ، كما قلته أكثرَ مِن مرّة أنّه في الشؤون العمليّة ليس الغرض الحقيقيّ هو التأمّل والعلم نظريّاً بالقواعد عِلماً تفصيليّاً ؛ بل هو تطبيقها . ففيما يتعلّق بالفضيلة ، لا يكفي أن يُعلم ما هي ؛ بل يلزم زيادةً على ذلك رياضةُ النفس على حيازتها واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتُصيّرنا فصلاء وأخياراً . لو كانت الخُطَب والكتب قادرةً وحدَها على أن تجعلنا أخياراً ، لاستحقّت – كما يقول " تيوغنيس " – أن يطلبها كلُّ الناس ، وأن تُشترَى بأغلى الأثمان ، وما يكون على المرء إلاّ اقتناؤها . ولكن ، لسوء الحظّ ، كلُّ ما تستطيع المبادئ في هذا

---

(١) رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٤٧ . والسُّوس ، بضم السين : الطبيعة والنحيزة .

(٢) رسالة (كتمان السّر وحفظ اللّسان) ، الرسائل ، ج ١ ، ص ١٥٠ – ١٥٣ .

(٣) كتمان السّر وحفظ اللّسان ، ص ١٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصدد هو أن تشدّ عزمَ بعضِ فتيانٍ كِرام على الثبات في الخير ، وتجعلَ القلب الشّريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفيّاً بعهدها " [١].

– ومن الملامح الواقعيّة عند الجاحظ أنّه لا يتردّد في تصوير الأخلاق الاجتماعيّة لمختلف طوائف الناس وطبقاتهم في مجتمع عصره ، مهما بلغ بعضها من التهافت والشّذوذ ؛ إذ المهمّ عنده أن يُصوّر ما هو قائمٌ في الواقع ، ولا يلتفتُ بعد ذلك كثيراً إلى نوعيّته أو درجةِ أخلاقيّته أو احتمال تحرّج الناس – أو بعضهم – من قراءته في الكتب أو ما إلى ذلك من اعتباراتٍ ربّما يُؤدّي وقوف الكاتب عندها إلى إحجامه عن المُضيّ في تصوير أخلاق مجتمعه من جميع جوانبها ، وتقصّي البحث في خفاياها ودقائقها – إلى الغاية .

يرى الجاحظ – على لسان (صاحب الديك) ، في سياق تَعداده لعيوب الكلب – أنّ مِن الأسباب الأخلاقيّة التي ينبغي أن تحول دون تربية الكلاب في البيوت : ظهورَ أعضائها دائماً ، وفي البيت حُرَمٌ يُغار عليهنّ ، ونساءٌ ومحظيّات . وهذا – بالإضافة إلى أنّ الرجل يرغب بأهله عن معاينة مثله – مِن شأنه أن يُهيّج النساء ، ويذكّرهنّ الباه ، وأزواجُهنّ غُيَّبٌ ، أو غير قادرين على أن يعمّوهنّ. [٢]

هذا ، والحقيقة أنّهم ربّما كانوا يخشَوْن عليهنّ أكثر من ذلك ؛ إذ يروي الجاحظ أنّ ضابئاً البُرْجُميّ قد هجا أُناساً بأنّ أمّهم كانت تُلابس كلبها ، حتّى استَعْدَوْا عليه عثمان بنَ عفّان ؛ فحبسه حتّى مات . ومن قول البرجمّي في ذلك :

فأُمَّكم ، لا تتركوها وكلبَكم ... فإنّ عقوق الوالدات كبيرُ
إذا عَنَّتْ مِن آخر الليل دُخْنَةٌ ... يبيتُ له فوقَ السرير هريرُ

والطّريفُ في الأمر أنّ الجاحظ لا يُنكر مضمون هذه الرواية ؛ بل يرجّح إمكانه – على لسان صاحب الديك – ؛ بحُجّة أنّ عثمان – رضي الله عنه – أخذ الأمر مأخذ جِدّ . [٣]

---

(١) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ .
(٢) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .
(٣) كتاب الحيوان ، ص ٣٦٩ – ٣٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ إتيان الرجال – أو طائفة منهم – الكلبات ، كان فعلاً مشهوراً ومألوفاً في عصر الجاحظ ، إلى درجة أنّ الناس أدخلوه في " مُلَح أحاديثهم " ، وبات مّما يَسْمُرون به ، ويتداولونه في مجالسهم . وكنتُ أحسَب هذا وأمثاله من البِدَع التي استحدثتها الحضارة الغربيّة الحديثة . ولكنْ ، يبدو أنّ الحضارة – لعلّةٍ ما – تفرض بعض الأخلاق الشاذّة على جميع الأمم المضطلعة بها ، عندما تبلغ حدّاً معيّناً من التّرف الماديّ ، مع فارقٍ في الدرجة وفي نوعيّة الوسائل والأدوات المستخدمة في ذلك . يؤكد هذا ما يفاجئنا به الجاحظ في بعض رسائله عندما يصرّح بذِكْر إحدى تلك الأدوات ؛ وهي التي كانوا يُسمّونها " الكيْرِنْج " [1].

ويُورد الجاحظ في " كتاب الحيوان " – بالإضافة إلى الرواية التي أتينا على ذِكْرها آنفاً – قصّتين تدوران حول هذا السّلوك الشاذّ نفسه ؛ الثانيةُ منهما في غاية الظّرافة والجَوْدة الفنيّة ، ولولا ما فيها لأثبتّها هاهنا ، فيُرجع إليها وإلى القصّة الأخرى في موضعهما . [2] وإنّما أردتُ أن أدلّ على شموليّة تصوير الجاحظ لأخلاقِ فئاتِ مجتمعه أيّاً كانت ، ملمحاً من ملامح واقعيّته في أدبه الأخلاقيّ .

(١) تضيب اصطناعيّ ، واللّفظة فارسيّة ، مركّبة من مقطعين ، " كير " بمعنى القضيب ، و " رنج " وهو بالفارسيّة " رنك " ومعناه : الشكل . انظر رسالة (مفاخرة الجواري والغلمان) ، في الرسائل ، ج ٢ ، ص ١٣٥ . وشرْحَ المحقّق للكلمة في الحاشية ١ من الصفحة نفسها .

(٢) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الطرائق الأدبية التي يتسنمها الجاحظ في عرض القيم الخلقية وأبرز سماتها الفنية

اولاً : السّخرية .

ثانياً : المناظرة .

ثالثاً : القصّة – الطّرفة .

رابعاً : المشاهد المسرحيّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعتمد الفلاسفة في تنظيرهم للأخلاق على لغة وصفيّة تحليليّة منطقيّة عقليّة بحتة ، ولا يراعون كثيراً النواحي الأدبيّة والبلاغيّة في خطابهم الأخلاقيّ ؛ فهم يعتنون – بالدرجة الأولى – بتعريف المصطلحات والمفاهيم ، وتمييزها ، وإظهار العلاقات التي تربط بينها ، وبسط النظريّات التي يعتقدونها ، أو الفرضيّات التي يرجّحونها – بلغة تقريريّة ، غايتُها إيصال المعلومات والأفكار بوضوح ومن أقصر طريق . أمّا الجاحظ – والأدباء عامّةً – فإنّ هدفه من تناول الأخلاق ، خاصّة في كتبه التي يغلب عليها الطابع الأدبيّ الخالص ، [1] مختلفٌ تماماً ، فهو – في تلك الكتب – لا يرمي إلى عرض نظريّات ، أو اختبار فرضيّات ، أو إرساء مفاهيم وحدّها حدّاً منطقيّاً ؛ ولكنّه يسعى – في المقام الأوّل – إلى وصف أخلاق فئاتٍ متنوّعة من أبناء مجتمعه على اختلاف طبقاتهم ، وصفاً بلاغيّاً تصويريّاً تمثيليّاً ؛ فيعرضها من خلال مواقف أشبه بالدرامية ، يستطيع القارئ أن يختبر أمثالها في واقع حياته الشخصيّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة .

وقد تبدّى هذا التناول الأدبيّ للأخلاق في كتابات الجاحظ على هيئات وصور متنوّعة ؛ مثل : القصّة ، والمشهد المسرحيّ ، والمناظرة ، والمعالجة الساخرة . وفيما يلي سوف نتناول هذه الأساليب بشيء من التفصيل ؛ لنرى كيف وظّفها الجاحظ في تصوير أخلاق عصره .

---

[1] يغلب الطابع الأدبي على بعض كتب الجاحظ ؛ كالبخلاء ، والتربيع والتدوير ، والجدّ والهزل ... ، ويغلب على بعضها الآخر طابع التنظير المباشر أو الطابع التعليمي ؛ مثل رسالة المعاش والمعاد ، ورسالة كتمان السر وحفظ اللسان ... .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : السخرية :

تتعدّد صور السخرية عند الجاحظ ، وتتّخذ أشكالاً متنوّعة . وهي – على تعدّد صورها ، وتنوّع أشكالها – تُعدّ فنّاً من الفنون الأدبيّة الراقية متى أُتقنت وحسُن التأتّي إليها . وقد كان هذا الفنّ الأدبيّ مدخلاً واسعاً أدلف منه الجاحظ إلى الموضوعات الخلقيّة ، فحوّلها عن طبيعتها الفلسفيّة الأولى إلى الطبيعة الأدبيّة ، التي هي أكثر ملاءمةً لموهبته ومزاجه . وتتجلّى سخريته بشكلٍ خاص في " كتاب البخلاء " ، ورسالتيّ : " التربيع والتدوير " و " الجِدّ والهزْل " .

وقد كانت المبالغة واحدةً من الصور التي اتّخذتها تلك السخرية ، ولكنّها بقيت دائماً في حدود المبالغة المعقولة ، التي لا تخرج إلى الإسفاف والتهويم في الخيال . ومِنْ مبالغاته الظريفة في رسالة " الجِدّ والهزْل " – المطبوعة بطابعٍ مأساويّ مُفْتَعل ، لعلّه مصدر ما فيها من سخرية ؛ إذ يظهر الجاحظ في الرسالة كلّها بمظهر الضعيف المقهور المتجنَّى عليه ، بينما يظهر الزيّات في هيئة الظّالم ، القاهر له ، الظاهر عليه – من تلك المبالغات قوله ، وهو يذمّ الاستبداد والكيد وسوء المعاملة ، ويزيّن العفو والحِلْم ، مغلّفاً كلامه بغلاف فنيّ هازل ، تترقرق فيه المبالغة السّاخرة بشكلٍ واضح ، دون أن يُخْلِيه من كثير من المضامين الاجتماعيّة والتاريخيّة والأسطوريّة المفيدة – يقول مخاطباً الزيّات : " والله لو نُتجتَ في كلّ عامٍ ألف شبديز (١) ، وأحبلتَ في كلّ ليلةٍ أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلّ نهر المبارك ، بدلاً من بعض بابَك (٢)، وأكلتَ رأس الجُنيد بن حاق الأشيم ، وأحبلْتَ ابن ألغز من إفراط الشَّبَق – لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة ، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القِتلة . ولو اقتصرتَ من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ، ولو عفوتَ ألبتّة لكان أمثل " (٣).

ويمكن عدّ المبالغة من أبرز السّمات الفنيّة التي انماز بها أسلوب الجاحظ في سخريته من بخلائه . وهي مبالغة واضحة نلمسها في معظمَ تصرّفات شخصيّة البخيل كما يصوّرها لنا الجاحظ على اختلاف أنماطها وأشكالها . فالبخل الذي يصوّره لنا بوساطة شخصيّات عصره مِنْ خراسانيّة ومراوزة ليس هو من شكل ذلك البخل الذي يخطر على البال للوهلة الأولى عند سماع اسم " البخل " ؛ ذلك أنّ الناس اعتادوا أن يُسمّوا مَنْ لا يُكرم ضيفه حق الإكرام بخيلاً ، وكذلك من يفرّط في حقوق نفسه أو أهله أو

(١) ضرب من الخيل قاتم اللون أصدأ .

(٢) نهر في بغداد منسوب إلى بَابك بن بَهرام بن بَابك.

(٣) رسالة في الجِدّ والهزْل ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٥٩-٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صديقه ، ولا يؤدّيها على وجهها ؛ ولكنّ البخل الذي يصوّره لنا الجاحظ بخلٌ مبالغ فيه إلى أقصى حدّ ، وإلى درجةٍ أنّ لفظ " البخل " لا يكاد يفي بالدلالة عليه ، وربّما كانت كلمات أخرى كـ " التقتير " و " التدنيق " أجدر بالدلالة على تلك الصور .

والحال أن هذه المبالغة تضعنا في تفسيرها أمام فرضيّتين على الأقلّ :

الأولى : أن تكون تلك المبالغة جزءاً من المتطلّبات الفنيّة لمثل هذا النوع من القصص الفكاهيّ السّاخر ، يمثّل جانباً مهمّاً من وظيفة الفنّان في إنتاجه ، باعتباره عنصراً أصيلاً من عناصر الصياغة الفنيّة الكاريكاتوريّة ، التي تُعنَى بالتركيز على ظاهرة اجتماعيّة معيّنة ؛ فتضخّمها وتُبرزها للقارئ أكبرَ بكثيرٍ من حجمها الحقيقيّ في نوعٍ من الإخراج الفنيّ المضحك .

على أنّ هذه المبالغة ليس من شأنها أن تَبعُد بالعمل الفنيّ عن الإطار العامّ للواقعيّة ، ما دامت الصور التي يرسمها محتملةً ولها أساسٌ في الواقع ولا تنبو عن الذوق السّليم . لقد تنبّه الجاحظ على هذه النقطة ، وأكّد واقعيّة أدبه بالمعنى الذي أشرتُ إليه آنفاً ، وذلك عندما استنكر حديثاً يجري على ألسنة الناس ؛ خلاصتهُ أنّ أحد البخلاء توفّي وترك ابناً له ، فسأل هذا الأخيرُ عن أدم أبيه ، فدلّوه على قطعةٍ جبن قد ظهر فيها حزّ من أثر مسح اللقمة عليها ؛ إذ كان لا يقطع منها قطعاً ، فاستشاط ابنهُ وأظهر السّخط على أبيه واتّهمه بفساد الرأي في هذا التدبير ، فلمّا سألوه عن السّيرة التي سيسلكها هو في التأدّم ، قال : " أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة " [1]. وبعد إيراد هذا الحديث يعلّق عليه الجاحظ بقوله : " ولا يُعجبني هذا الحرف الأخير ؛ لأنّ الإفراط لا غاية له ، وإنّما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثلُه ، أو حجّة أو طريقة . فأمّا مثل هذا الحرف فليس ممّا نذكره " [2]. هذه العبارة تشرح بوضوح ملمحاً أساساً من ملامح أدب الجاحظ في هذا الموضوع ، وفي غيره من الموضوعات المتباينة التي يتناولها ؛ ذلك هو واقعيّة الجاحظ ، ليس بمعنى النقل الحرفيّ للوقائع والأحداث صنيعَ المؤرّخ ؛ وإنّما بحكاية " ما يجوز أن يكون مثله " إلى جانب حكاية ما هو كائن فعلاً ، فهو يستند في أدبه إلى أساسٍ من الواقع ، يبني عليه مستعيناً بخيالٍ محدودٍ بحدود ما يمكن وقوعه ، وأمّا ما هو مُحال أو غير معقول فإنّ الجاحظ يأنف من تضمينه كتبه . وإلى هذا ذهب د . طه الحاجريّ في مقدّمته لتحقيق كتاب البخلاء ، حيث يقول : إنّ " أسلوب الجاحظ في الوصف وجهٌ من وجوه الواقعيّة الغالبة عليه " [3]، يلتزم به ولا يحيد عنه إلى ذلك اللون الفجّ الجافي من السّخرية الذي يستدرّ بسه العامّة

---

(١) الجاحظ – البخلاء ، تحقيق طه الحاجريّ ، ص ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه .

(٣)المصدر نفسه ، المقدمة ، ص٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضحكات بعضهم ؛ " وإنّما هي السّخرية التي تقصد إلى الأذواق المترفة والمدارك المرهفة " [١]، فلا تُسلم نفسَها لكلّ مَنْ يتعرّض لها حتّى يكون عميق النظر ، مرهف الإحساس ، صافي الذّهن [٢] . وهذه هي سمة اللون الراقي من ألوان السخرية ؛ انذي يستدعي الضحكة بعد أن يُثير الفكرة .

الفرضيّة الثانية : أن تكون تلك الحكايات أو بعضها ، بكلّ ما فيها من مبالغات ، موضوعةً من قِبَل أبناء العصر ، ويكمن دور الجاحظ في إعادة صياغتها صياغةً أدبيّة و إخراجها بصورة فنيّة لائقة . أو أن تكون من ابتداع الجاحظ نفسه على سبيل الوضع أيضاً . ووضعُ العامّة للنوادر والطُّرَف أمرٌ معروف وشائعُ على ألسنة الناس في كلّ عصر ، وهو يعتمد في الغالب على أساس حقيقيّ ، ثمّ يتزيّد فيه الناس ، ويُضيفون إليه من أخيلتهم على شاكلته ، ويُبالغون في ذلك أحياناً إلى درجة بعيدة . أمّا وضعُ الجاحظ للأخبار فمسألةٌ محتملة وغير مستنكَرة ، خاصّة إذا علمنا أنّه يضع تلك الأخبار لأسباب أدبيّة / فنيّة خالصة . وقد ناقش هذه المسألة أيضاً د. طه الحاجريّ في مقدّمته- التي أشرتُ إليها سابقاً – لكتاب البخلاء ، مناقشةً مُجزية ، وأيّد رأيه بأدلّة من داخل كتب الجاحظ تفيد أنّه لم يكن يتنزّه عن وضع الأخبار والحكايات . ولكنّ ميزته على غيره من الوضّاعين –حسب الحاجريّ – أنّه " قد أخلص الوضع للفنّ وحده ؛ أسلوباً وغاية ، خاصّة في هذا الكتاب [كتاب البخلاء] ... ، وقد تكون هناك تيّاراتٌ نفسيّة خفيّة تتدخّل في الأمر ، أو تصرّف الفنّ بعض التصرف ، ولكنْ مهما يكن من شيء ، فإنّ مثل هذا لا يمنعنا من أن نصف وضع الجاحظ بما وصفْنا ، ومن أن نرى فيه سلطان الفنّ غالباً ، وقد طبع كتاب الجاحظ بطابعه ، ثمّ خفي كلّ ما عداه " . [٣].

وعلى أيّة حال ، وأيّاً ما كان مصدر تلك الحكايات ، ومقدار ما فيها من حقيقة ومقدار ما فيها من خيال ، فإنّها تصوّر بخلاً عجيباً مفرطاً ، يتغلغل إلى دقائق الأمور ، ويتتبّع خفيّاها التي يَبْعُد أن تخطر ببال المرء مهما حاول أن يمعن في تصوّر أشكال البخل والحرص وأساليبهما . وقد تردّدتُ طويلاً في اختيار حكاية أو خبر أُثبته هنا للاستشهاد على سمة المبالغة الفنيّة التي يعتمدها الجاحظ في تصوير خلق البخل ؛ فإنّ جميع حكايات الجاحظ تصلح للاستشهاد في هذا الموضع ؛ لِما تحفل به من عجائب أفانين البخلاء وغرائب مذاهبهم في بخلهم ، ثمّ انتقيت هذا النصّ على سبيل التمثيل فقط :

---

(١) البخلاء المقدمة ، ص ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" زعموا أنّهم [يعني أهل مرو] ربّما ترافقوا وتزاملوا ، فتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحـــم ، فإذا اشترَوا اللحم قسموه قبل الطّبخ ، وأخذ كلّ إنسان منهم نصيبه فشكّه بخوصة أو بخيط ، ثمّ أرسـله في خلّ القِدر والتوابل . فإذا طبخوه تناول كلّ إنسان خيطه وقد علّمه بعلامة ، ثمّ اقتسموا المـرق ، ثمّ لا يزال أحدهم يسلّ من الخيط القطعة بعد القطعة ، حتّى يبقى الحبل لا شـــيء فيـــه . ثمّ يجمعـــون خيوطهـــم ، فإنْ أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط ؛ لأنّها قد تشرّبت الدّسم ، فقد رَوِيَت . وليـــس تناهُدُهم من طريق الرغبة في المشاركة ؛ ولكنْ لأنّ بضعة كلّ واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يُحتمـــل أن يُطبخ وحده ، ولأنّ المؤنة تخفّ أيضاً والحطب والخلّ والثوم والتوابل ، ولأنّ القِدر الواحدة أمكـــن من أن يقدر كلّ واحد منهم على قِدر . وإنّما يختارون السّكباج لأنّها تبقى على الأيام ، وأبعدُ مـــن الفساد " .(١)

فتأمّلْ هذا الوصف ، ومقدار ما فيه من مبالغة فنيّة في تصوير ما عليه تلك الجماعة من بخـــل وحرص ؛ فهم – أوّلاً – مضطرّون إلى التزامل والترافق اضطراراً ، وليس هو من محض اختيارهم ، ثمّ هم – ثانياً – يقسمون اللحم قبل الطبخ وليس بعده ؛ حتّى يطمئنّ كلّ واحد إلى نصيبه منه ســـابقاً ، وهم – ثالثاً – يشكّونها في خيوط ، ويعلّمون تلك الخيوط ؛ لكي لا تختلط ، مع أنّ مقدار ما في كـــلّ منها مساوٍ لما في غيره حسبما تقتضيه طبيعة القسمة . والأدهى من ذلك كلّـــه أنّـــهم –رابعـــا– لا يفرّطـــون في تلك الخيوط بعد إتمام طعامهم ، وإنّما يحتفظـــون بها ؛ ذخـــيرة للمســـتقبل ، لربّمـــا يضطرّون إلى الملازمة مرّة أخرى ، حتّى يكسبوا ما تتشرّبه تلك الخيوط من مرق .

واضحٌ أنّ هذا الحديث مبالغٌ فيه ، ولكنّها – كما أسلفنا – مبالغة فنيّة ، غير محالة ، ولا تنبـــو عن الذوق السليم والحسّ اللطيف .

نتنقل إلى معالجة صورة أخرى من صور سخرية الجاحظ في أدبه ، وخاصّة في كتاب البخلاء:
يقول د. طه الحاجريّ في مقدّمة تحقيقه لكتاب البخلاء ، وهو في سياق الحديث عن سخرية الجـــاحظ باعتبارها " من أبرز الصفات الفنيّة التي تبدو في كتاب البخلاء "(٢): " كان [الجاحظ] رجلاً ســـهل الجانب ، ليّن الحاشية ، محبّاً للناس ، عطوفاً عليهم ، لا يضيـــق بهم ، ولا يتبرّم بعيوبهم ، ولا يتســـخّط عليهم ... ، ومن هنا سلكتْ نفسُه في نقدهم مسلك السخرية اللطيفة التي تُشير إلى مواطن العيـــوب وتصوّرها في جوّ مَرِح تتخلّله بَسَمات الاستحسان ، وتغمره ضحكات السرور ، فالجـــاحظ نقّـــادة

---

(١) البخلاء ، ص٢٣ .

(٢) مقدمة البخلاء ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطبيعته ، ولكنّ لِين جانبه وحبّه للحياة نكبا به كثيراً عن طريق الجِد الصارم في النقد، وما يكـــون في هذا الطريق – كثيراً – من الغضب والتسخـّط والبغضاء وما إليها من المعاني المباينة للحبّ ، المُـزْورّة عن سبيل الحياة . وله في هذا كلمة دقيقة لعلّ فيها بياناً لتلك الطبيعة وتفسيراً لذلك المذهب ، وهـــي قوله : " الجِدّ مبغضة ، والمزح محبّة " [١]. وجملةُ القول أنّ قوّة حيويّة الجاحظ هـــذه تُعتـــبر مـــن أوّل العوامل في هذه النـــزعة السّاخرة العابثة " [٢] .

ولعلّ لين حاشية الجاحظ ، ومرَحه وسعة صدره ، وحبّه للإنسانيّة ، وعطفه عليها – بما فيـــها تلك النماذج البخيلة ، التي تمثّل في النهاية طائفةً من طوائف المجتمع الذي ينتمي إليه – ، وبُعـــدَه مـــن الغضب والتسخّط والجِدّ الصارم في نقد تلك الطائفة ، قد ضاعف من مقدار سخريته منها ، وجعلـــها أشدّ لذعاً وأعمق أثراً . وقد دفعه ذكاؤه وسعةُ حيلته – بالإضافة إلى نزعته الفنيّة الأصيلة التي تحـــدو قلمه كيفما ذهب وكيفما جاء – إلى أن يقف موقفاً محايداً أو شبه محايد في حديثه عن نمـــاذج تلـــك الطائفـــة ؛ فتركهم يصوّرون حياتهم ، ويرسمون مذاهبهم ، ويبسطون أراءهم ، ويُدلون بحججـــهم ، وينصبون لخصومهم ... تركهم يفعلون ذلك كلّه بأنفسهم ، ووقف هو بعيداً ، كأنّه مجرّد وساطـــة بينهم وبين القرّاء . وتبـــدو حياديّته هذه أنجعَ أثراً في تعرية أولئك البخلاء أمام النـــاس ، وافتضـــاح مقولاتهم ، وتهافت حججهم ؛ فهم يتحدّثون بألسنتهم ، ولا مجال لاكتساب تعاطف القارئ ، الـــذي ربّما كانت ستأخذه الشفقة عليهم أمام هجمة الناقد الصارم الموجع في نقده . فـــأنْ تـــترك القـــارئ يكتشف الأشياء بنفسه ويقوّمها ويحدّد موقفه منها أفضلُ وأقرب إلى الروح الفنيّة وأحـــرى بإيصـــال الرسالة المرادة من أن تفرضها عليه فرضاً .

ومن الأمثلة الموضّحة لهذه الفكرة ، والتي يترك الجاحظ بخيله فيها يعبّر عن نفسه بحريّة تامّـــة، ويترك القارئ يتحسّس في عباراتـــه من مواطن السخرية الخفيّة ما يضحكه، ويرضي ذوقه عن هـــذا اللون من الفنّ – قولُه على لسان شيخ من مسجديّ البصرة : " يا قوم لا تحقروا صغار الأمور ؛ فـــإنّ أوّل كلّ كبير صغير ، ومتى شاء الله أن يعظّم صغيراً عظّمه ، وأن يكثّر قليلاً كـــثّره . وهـــل بيـــوت الأموال إلاّ درهمٌ على درهم ؟ وهل الدرهم إلاّ قيراط إلى جنب قيراط ؟ أوَليس كذلك رمل عالج وماء البحر ؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلاّ بدرهم من ههنا ودرهم من ههنا ؟ قد رأيت صـــاحب

---

(١) ترد في ثنايا قصصه في كتاب البخلاء عبارات تدل على هذه المعاني ؛ منها قوله في ابي عبد الله المروزيّ : " وأبو عبدالله هذا من أطيب الخلق ، وأملحهم بخلا ، وأشدّهم رياء " ، ص ٢١ . " . وقوله في أحمد بن خلف " ومن طيّاب البخلاء أحمد بن خلف اليزيديّ" ، ص ٤١ .

(٢) مقدمة البخلاء ، ص ٥٤ . وانظر في توثيق عبارة الجاحظ التي تضمّنها النص الحاشية ٥ من الصفحة نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَقَط قد اعتقد مئة جَريب في أرض العرب . ولربّما رأيته يبيع الفُلفل بقيراط ، فأعلم أنّه لم يربح في ذلك الفلفل إلاّ الحبّة والحبّتين من خَشَب الفلفل ، فلم يزل يجمع من الصغار الكبارَ ، حتّى اجتمع ما اشترى به مئة جريب .

ثمّ قال : اشتكيت أيّاماً صدري ، من سعال كان أصابني . فأمرني قومٌ بالفانيذ السكّريّ .[1] وأشار عليّ آخرون بالخزيرة تُتّخذ من النشاشتج والسكّر ودهن اللوز وأشباه ذلك . فاستثقلتُ المؤنة وكرهت الكُلفة ورجوت العافية . فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموفّقين : عليك بماء النُّخالة ، فاحْسُه حاراً . فحَسوْتُ ، فإذا هو طيّب جدّاً ، وإذا هو يعصِم . فما جعتُ ولا اشتهيتُ الغَداء في ذلك اليوم إلى الظهر . ثمّ ما فرغتُ من غدائي وغسل يدي حتّى قاربت العصر . فلمّا قرب وقت غدائي من وقت عشائي ، طويت العشاء وعرفت قصدي .

فقلتُ للعجوز : لِمَ لا تطبخين لعيالنا في كلّ غداة نخالة ؟ إنّ ماءها جِلاءٌ للصدر ، وقُوتُها غِذاءٌ وعِصمة ، ثمّ تجفّفين بعدُ النخالة ، فتعود كما كانت ، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأوّل ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السُّعال مصالح كثيرة ، لِما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدَنك وصلاح معاشك .

وما أشكّ أنّ تلك المشورة كانت من التوفيق " .[2]

فما أظنّ النقد الصارم والهجوم العنيف يكونان أقرب إلى السخرية اللاذعة من تَرْك هذا الشيخ يتحدّث بلسانه ، ويصف نفسَه بالصلاح والسّداد ، وتصفه امرأته بالتوفيق والرشاد ؛ باهتدائه إلى ذلك الدواء الناجع بأقلّ كلفة . والأشدُّ في السُّخرية والأدعى إلى استجرار الضحك ، أنّه لم يكتفِ بما أسقطه عنه ذلك الدواء من مؤنة اتّخاذ غيره من الأدوية المكلفة التي وُصفت له ، حتّى اصطنعه طعاماً له ولعياله ؛ لِما وجد مِنْ طِيب طعمه بزعمه ، وعصمته من الجوع أكثر النهار ، فلا يحتاج معه إلى أكثر من وجبة واحدة . وفوق ذلك كلّه فإنّ النّخالة لا تذهب — بعدُ — سُدى ، وإنّما تُجفّف وتُباع بمثل ثمنها الأوّل . فأيّ سيرة في المعاش أصلح من هذه ؛ تأكل أنت وعيالك طعاماً طيّباً ، شافياً عاصماً ، دون أن يلحقك فيه أدنى غُرم ؟! تلك هي حياة الصالحين الموفّقين ! وأيّ أسلوب يُثير سخرية القارئ ويستدعي ضحكاته أكثر من هذا الأسلوب ؟ .

---

(١) ضرب من الحلواء يصنع من السكّر ودقيق الشعير والترنجبين . انظر تعليقات الحاجري وشروحه على الكتاب ، ص ٢٩٧ .

(٢) البخلاء ، ص ، ٣١-٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومـــن الطبيعي أن تترك ثقافة الجاحظ الكلاميّة وأسلوبها الجدليّ أثرهما في تناوله لهـــذا الفـــن السّاخر ، فتجده يبتدع احتجاجات وأدلّة متّفقةً مع ظاهر المنطق ، ويُلقيها على ألســـنة بخلائـــه ، في دفاعهم عن مذهبهم ، وردّهم لسهام خصومهم الذين لا ينفكّون يغمزونهم بذلك الخلق . من ذلك مثلاً هذا الاحتجاج اللطيف لأحد البخلاء على ضيوفه بعد أن خجّلوه وأحرجوه وحملوه حَمْلاً على دعوتهم إلى بيته وطعامه ؛ فبعد أنْ " أكلوا وغسلوا أيديهم ، أقبل عليهم فقال : أسألكم بالذي لا شيء أعظـــمُ منه : أنا السّاعةَ أيسرُ وأغنى ، أو قبلَ أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا ما نشكّ أنكّ — حين كنت والطعامُ في ملكك — أغنى وأيسرُ . قال : أنا السّاعةَ أقربُ إلى الفقر ، أم تلك السّاعة ؟ قالوا : بل أنت السّـــاعةَ اقربُ إلى الفقر . قال : فمن يلومني على دعوة قومٍ قرّبوني من الفقر وباعدوني من الغـــنى ، وكلّمـــا دعوتهم أكثرَ ، كنتُ من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟! . "[1]

فهذا القياس سليم من وجهة نظرٍ منطقيّة أو حسابيّة ، ولكنّه سقيم من وجهة نظـــرٍ خلقيّـــة اجتماعيّة . ممّا يدفع الجاحظ إلى التعقيب عليه بسخرية - : "وفي قياسه هذا أنّ مِنْ رأيه أنْ يَهْجُرَ كـــلُّ من استسقاه شربة ماء ، أو تناول من حائطه تينة ، ومن خليط دابّته عوداً ". [2] ولا يخفى أنّ إصابـــة البخيل لهذه الحقيقة المنطقيّة من ناحية حسابيّة صِرفة ، بعيداً عن الاعتبارات الأخلاقيّة الداعية إلى البـذل والكرم ، هو موضعُ السخرية ومصدر الإضحاك في هذه الطُّرفة .

ومِنْ أحاديث البخلاء التي يظهر فيها أثرُ الجدل ، وتغلب عليها الحذلقة المنطقيّـــة الرائفـــة ، حديثُ خالد بن يزيد ، إذ يُوصي ولده بحسْنِ رعاية مذهبه في البخل من بعده ، فيقول في قطعة مـــن تلك الوصيّة : " فأوّل ما أوقع في رُوعي أنّ مالي محفوظٌ عليّ ، وأنّ النّماء لازمٌ لي ، وأنّ الله سـيحفظ عَقِبي من بعدي ؛ أنّي لمّا غلبتني يوماً شهوتي ، وأخرجتُ يوماً درهماً لقضاء وطَري ، ووقعتْ عيـــني على سِكّته ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ؛ قلتُ في نفسي : إنّي إذاً لمن الخاسرين الضالّين ، لئن أنـــا أخرجتُ من يدي ومـــن بيتي شيئاً عليه " لا إله إلا الله " وأخذتُ بدلَه شيئاً ليس عليه شـيء . والله إنّ المؤمـــن لينـــزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه "حسبي الله " ، أو " توكّلتُ على الله " ، فيظنّ أنّـــه قـــد خرج من كنف الله — جلّ ذكرُه — حتّى يردّ الخاتم في موضعه . وإنّما هو خاتم واحد ، وأنا أريـــد أن أُخرج في كلّ يومٍ درهماً عليه الإسلامُ كما هو ؟ إنّ هذا لَعظيم . " [3]

---

(١) البخلاء ، ص ٤٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يميز سخرية الجاحظ أنّها ليست فارغةً أو مبتذلة ؛ بل تضمّ في ثناياها قدْراً وفيراً من المعارف التاريخيّة والأسطوريّة والاجتماعيّة والنفسيّة ... ، حتّى إنّ هذه الطُّرَف المضحكة لتتحوّل إلى معرض للمعلومات ، يجد فيه الجاحظ فرصةً مُواتية لعرض ثمرات اطّلاعه الدّائب ، بكلّ ما تتّسم به تلك الثمراتُ من اختلاف وتنوّع وغرابةٍ أحياناً . ولا غرو ؛ فإنّ انتماء الجاحظ إلى المعتزلة يجعله مُطالَباً بأن يأخذ نفسه بثقافة واسعة متنوّعة . نجد ذلك واضحاً في رسالته المسمّاة " رسالة التربيع والتدوير " ، وفيها تتجلّى بحقّ سمةُ الموسوعيّة أو الشموليّة في ثقافة الجاحظ ، وتتجلّى بالمقابل نزعتُه الأدبيّة الغلاّبة ، التي استطاعت أن تعالج تلك المعارفَ المتباينة وتصهرها في بوتقة الفنّ ؛ لتُبعد عنها جفاف العلم وثقل السّرد التقليديّ للأفكار ، وتصنعَ منها عملاً أدبيّاً خالداً . كثيرةٌ هي كتب التاريخ والغرائب و الأساطير التي تروي الوقائع والعجائب والخرافات ، ولكنّها لا تَلْقى الحفاوة والخلود اللذين لقيتهما رسالةُ الجاحظ هذه . شتّان بين الطّريقة التي تقدّم بها تلك الكتبُ معلوماتها ، والطريقة التي يقدّمها بها الجاحظ ؛ ببساطةٍ : إنّ تلك المعلومات تتخلّى في كتب الجاحظ عن قيمتها الإخباريّة وتستبدل بها قيمةً أرقى منها ، هي القيمة الأدبيّة ؛ لكي تستحيل عناصرَ فنيّة في نسقٍ / خَلْق جديد أصيل متّسق محكم . وهي – إلى ذلك – لا تُستَلَبُ قيمتَها الإخباريّة ؛ بل تظلّ محتفظة بها ، ولكنْ في المقام الثاني ، بعد قيمتها الفنيّة . كما أنّها لا تُسلَبها مرغَمةً أو مكرهة ؛ بل إنها تُسلِمها طواعية بمحض رضاها لمصلحة البناء الفنّي الجديد ؛ فلا تشعرُ وأنت تمرّ بالحشد الكبير من المعارف والمعلومات التي يُشبع بها الجاحظ رسالته بأي قَسْرٍ أو تكلّف أو حشو ، ولا تحسّ بأثرٍ للجهد من جانبه في مطاردة شوارد المعاني والتفتيش عمّا يلائمها من ألفاظ ؛ ولكنّها جميعاً تنثال عليه انثيالاً ، وتتتابع عليه أرسالاً ، لا يكلّفه الأمر أكثر من استقبالها ، وعرضِها على آلته الفنيّة ؛ لتُعيد تشكيلها ، صنيعَ الصائغ بما يُعرض عليه من سبائك الذّهب ، لتَخرجَ إبداعاً فنياً مضاعَف القيمة.

يفتنّ الجاحظ في هذه الرسالة – رسالة التربيع والتدوير – فنوناً من السخرية ، ويتصرّف صروفاً من الهُزْء والتهكّم بصاحبه – أحمد بن عبد الوهاب – ، سواء في ذلك ما يتّصل بخَلْقه وخُلُقه من صفات وخِصال ؛ فلا يترك في أديمه قيد أصبع إلاّ ويُمعن فيه الطعن والتمزيق ؛ يرميه بالمتناقضات ، ويحمل عليه من المعايب والمذامّ ما لا يحتمله إنسان إلاّ أن يكون أعجوبة من الأعاجيب ؛ يُغضبه ويسترضيه ، يجذبه ويرسله ؛ يفعل ذلك في حركة مستمرّة ، تُصيّر الرّجل بين يديه كرةً يتقاذفها كيف يشاء .

وتتضاعف سخريته منه حين يعمد إلى ذلك الأسلوب الذي ظاهره المدح وباطنه الذمّ ، وهو المعروف عند البلاغيّين بـ " أسلوب الذمّ في معرض المدح ". ومثالُ ذلك ما يفعله حين ينعت الرّجل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالقِدَم والتّعمير ؛ فيجعله أزلياً ، قد عاين بدء الخليقة ، وحقّق الأشياء منذ كانت ؛ فهو عارفٌ بمنشئها وتصرّفها ومسيرها إلى ما آلت إليه . وهنا يفطن الجاحظ إلى أنّه قد سنحتْ له فرصةٌ مواتيةٌ للتعبير عن سعة ثقافته ، ونشرِ ذلك الركام الهائل من المعارف المطويّة منذ حين في ثنايا ذاكرته ، من معاشرته للكتب ، على اختلاف موضوعاتها ؛ بل لعلّه ابتدع هذه الصّفة – التعمير – ، وأسبغها على الرجل ليتوصّل بها إلى هذا الغرض ، وليعبّر – في الوقت نفسه – عن قلقه وتشكّكه تجاه كثير من الأخبار والروايات والمعتقَدات والآراء الشّائعة بين الناس في عصره ، ممّا تناقلته الأجيال السالفة من غير سندٍ يُركَن إليه من عقلٍ أو تواترِ خبرٍ . ومعروفٌ أن المتكلّمين – ومنهم المعتزلة – يتّخذون من هذين الأصلين – فقط – دليلاً على صحة ما يُحمل إليهم من أخبار وروايات [1]؛ من هنا يأتي موقف الجاحظ المُرتاب في كثير من الروايات والحكايات التاريخيّة ، خاصّةً ما يتعلّق منها بأصول الظواهر الطبيعيّة والبشريّة ومَنْشئها الأوّل . ونستطيع أن نحسّ ذلك بوضوح في تلك السلسلة الطويلة من المسائل [2] التي يُلقيها على ذلك الأزليّ – بزعمه – ، إذ يسأله عن طوفان نوحٍ وسيل العَرِم ، و عن أخبار الأقوام البائدة ؛ كعاد وثمود وطَسْم وجَديس ... ، وعن منشأ الأنهار والجبال والوديان ، وأيها أقدم ؛ كنهر بَلْخ والنيل والفرات ودجلة وكذلك جيحان وسيحان ومِهران ، ويسأله عن حقيقة بعض الشخصيّات التي يعرفها النّاس بالظنّ ؛ إذ كانت سابقةً للتاريخ ، وكثير منها من اختراع أخيلتهم ، أو ربما كان لبعضها أصل واقعيّ ، ولكنّ الخيال نسج حوله كثيراً من الخرافات حتّى أضحى أشبه بالأساطير ؛ كحجرهم والدجّال وهرمس وأرميا وغيرهم ، ويُتبع ذلك بسؤاله عن حقيقة أنساب بعض القبائل التي يختلف في أصلها المؤرخون ورواة الأنساب ؛ مثل قحطان وقضاعة ، ومبتدأ بعضها ؛ كطيّئ وخزاعة ، ثمّ يسأله عن أصل عددٍ من الحكايات الأسطوريّة كحكاية الفأرة ، وجُرْم الوَزَغة [3]، وقصّة العداوة بين الديك والغراب [4] . ثمّ فائحَه في بعض المسائل الطبيعيّة التي تخصّ مخلوقات حقيقيّة وأخرى خياليّة ؛ كالمِسْخ وآوى وحُبين وعِرْس ... وسبب خلق السنانير والخنازير ... وسلامة الأفعى من سمّها وما حول الشّمس من نارها . ثمّ خاض معه فيما يتناقله الناس من أخبار الغيب في مستقبلهم ؛ كلغة أهل الجنّة ، وأوّل طعامهم ، وسبب الرجفة والزلزلة ... . وليس من غرضنا – هنا – أن نستقصي موضوعات تلك الأسئلة بتمامها ؛ إذن لطالَ بنا الأمر وخرجنا عن القصد ، ولكنّي أحببتُ أن أدلّ على طبيعة هذه الأسئلة من جهة ، وعلى مدى تنوّعها من جهة أخرى ، وعلى سعة ثقافة الجاحظ وتعدّد اهتماماته من جهة ثالثة ، وأخيراً : أن أجلو هذا الأسلوب من أساليب

---

(١) انظر الحاحظ – التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلات ، ص ٤٤ – ٤٥ . والمعاش والمعاد ، ص ١١٩ – ١٢١ .

(٢) انظر هذه المسائل في رسالة التربيع والتدوير ، ص ٣٥-٤٦ .

(٣) يزعمون " أنها كانت تنفخ على نار ابراهيم ، وتنقل إليها الحطبَ " . انظر الحيوان ، ج١ ، ص ٣٠٤ .

(٤) يزعمون أنهما تنادما يوماً في حانة ، و لم يكن معهما مال ، فأبقى صاحب الحانة الديك رهناً عنده حتّى يأتي الغراب بثمن ما شربا ، ولكنّ الغراب غدر بالديك و لم يأتِ لموعده . انظر المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السخرية في أدب الجاحظ ، عندما يعمد إلى توظيف معارفه وثمرات مطالعاته توظيفاً فنياً سائغاً . ولعلّه من المناسب أن أشفع هذا الجزء من الحديث بفقرةٍ من كلام الجاحظ في ذلك الموضع من الرسالة ، تُبين عن روحه الأدبيّ الغلاّب ، الـذي ما يزال يطبـع تلك العناصر العلميّة بطابـعٍ فنيّ رائق - يقـول مخاطباً أحمد بن عبد الوهاب : " جُعلتُ فداك . قد شاهدتَ الإنس مذ خُلقوا ، ورأيتَ الجنّ قبـل أن يحتجبوا ، ووجدتَ الأشياء بنفسك خالصةً وممزوجة ، وأغفالاً وموسومة ، وسالمة ومدخولة : فمـا يخفى عليك الحُجّة من الشُّبهة ، ولا السّقم من الصحّة ، ولا الممكن من الممتنع ، ولا المسـتغلق مـن المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شِبه الدليل من الدليل . وعرفتَ علامة الثّقة من علامة الرّيبـة ، حتّى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقـات معلومة ، والدنيـا بحذافيرهـا مصوّرة ، ووجدتَ السّبب كما وجدت المسبَّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشهدتَ العلل وهي تُولد ، والأسباب وهي تُصنع ؛ فعرفتَ المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه :

فما تقول في الرئيّ ؟ وما تقول في الرّؤيا ؟ وما تقول في إكسير الكيميـاء ؟ ومـا تقـول في كَيْموس الصّنعة ؟ وما تقول في الزّجر ؟ وما تقول في الفِراسة ؟ وما تقول في الفأل ؟ ومـا تقـول في الطّيَرة ؟ وما تقول في نميمة الظُّلْم ؟ وما تقول في معنى البركة ؟ وما تقول في النجوم ؟ وما تقـول في الخِيلان ؟ وما تقول في أسرار الكفّ ؟ وما تقول في النظر في الأكتاف ؟ وما تقول في قَرْض الفـأرة ؟ وما تقول في إلحاح الخُنْفَساء ؟ وما تقول في دوائر الرأس ، وفي أوضاح الخيل ، وفي النّمْس والسُّؤْر ، وفي الديك الأفرق ، والسِّنّور الأسود ، وفي البول في النّفق ، وفي الاطّلاع على عاديّ الآبـار ، وفي النوم بين البابين ؟ [1].

وقد اخترتُ هاتين الفقرتين بالذات — مع كثرة ما ينسجه الجاحظ على هذا المنوال — ؛ لأنّهما تمثّلان ثقافة طبقتين متمايزتيـن في المجتمع : طبقة النخبة المثقّفة ، وطبقة العوامّ الذين لم يتهيّأ لهم حـظّ موفور من الثقافة ؛ فأمّا الطبقة الأولى فقد كان أصحابها منشغلين بمختلف القضايا الفكريّة المعاصرة التي أثارها اطّلاع العرب على ثمرات ثقافات مختلفة أظهرُها الثقافة اليونانيّة التي نُقل كثيرٌ منها إلى العربيّة في هذا العصر ، كما أثارها كذلك ظهور مشكلات في المجتمع الإسلامي ، تتطلّب حلولا مقنعة بأسـلوب عقليّ ومنطقيّ مقبول . وقد كانت تلك القضايا تدور حول مصطلحات كلاميّة وفلسفيّة أساسـيّة ، عَرَضَ الجاحظ طائفة منها في الفقرة الأولى ؛ من مثل : الحُجّة والشُّبهة ، والممكن والممتنع ، والمستغلق والمستبهم ، والأقسام والحدود والطبقات ، والعِلَل والأسباب ، والمصنوع والمخلوق ... . ولا شكّ في أنّ المنتمين إلى تلك الفئة من المجتمع كانوا ينفقون كثيراً من أوقاتهم ويبذلون غاية جهودهم في التميـيز

(١) كتاب التربيع والتدوير ، ص ٣٨ — ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين هذه المصطلحات وأمثالها ، ووضْع حدود واضحة لها ؛ إذ كانت تمثّل القاعدة المرجعيّة المنطقيّة لعلوم ذلك العصر . كذلك كانوا في مساجدهم وفي أسواقهم وفي مجالس علمهم وحتّى في مجالسهم الخاصّة أحياناً . ولا شكّ – أيضاً – في أنّ الجاحظ لم يكن بمنأى عن ذلك كلّه ؛ فإنّ شغفه بالعلم وتعطّشه إلى المعرفة يجعلانه دائماً مدفوعاً إلى أخذ موقعه في مقدّمة هذه الطائفة من مثقّفي عصره .

وأمّا الطبقة الثانية – طبقة العوامّ – فقد دأب أبناؤها على تداول أفكار وحكايات تقوم على الاعتقاد السّاذج الذي لا ينبني على أيّ أساس تاريخيّ أو علميّ صحيح ؛ وإنّما هو الانبهار بكلّ ما يحمله الماضي وتصديقُه بصرف النظر عن حظّه من الحقيقة . وهؤلاء ينشغلون بأحاديث الفِراسة والفأل والطِّيَرَة ، والبركة ، وأسرار الكفّ ، ودوائر الرأس ، والبول في النفق ، والنوم بين البابين ... إلخ .

وبذلك فإنّ الجاحظ لا يقرُّ بوجود حدود قطعيّة تفصل بين الثقافة المتخصّصة والثقافة الشعبيّة في داخل المجتمع العباسيّ الذي يصوّره ، كما في داخل أيّ مجتمع آخر ؛ فإنّ كلاّ منهما لا تفتأ تساهم في صياغة الأخرى وإمدادها بعناصر تكوينها ، على أنّ ذلك لا يمنع كلاًّ منهما من أن تظلّ – في النهاية – محتفظة باستقلاليّة نسبيّة ، ومتّسمة بخصائصَ نوعيّةٍ تميزها من الأخرى .

وهكذا استطاع الجاحظ في هذه الرسالة أن يفسح المجال في الثقافة المكتوبة ؛ لتضمّ أو تستوعب ثقافة تلك الفئة المنسيّة من التاريخ الذي لم يزل تاريخ بطولاتٍ وثقافةٍ نخبةٍ ، ولا محلّ فيه للرجل العادي وثقافته الشعبيّة الشفويّة.

وليس ذلك مقتصراً على هذه الرسالة دون غيرها ؛ بل إنّه يكاد ينسحب على أدب الجاحظ بعامّة ، الذي اعتاد فيه أن يتغلغل إلى باطن المجتمع ؛ ليتحسّس حياة الناس بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم ، ويلتقط منها صوراً فنيّة فذّة ؛ فظهر في كتبه : القيانُ ، والخِصيان ، والبخلاء ، والحمقى والمجانين ، والزهّاد والعبّاد ... وغيرهم ممّن يمثّلون الأوساط الدنيا في المجتمع ، حتّى اللصوص لم يهملهم الجاحظ من أدبه ، فكان له من أجل ذلك طابعُ الأدب الشعبيّ الذي يعرض لثقافةِ عامّة الناس ويصوّر أساليبهم في العيش والمعاملة ، دون أن ينسى – دائماً – أن يفصّل حديثه بألوانٍ من المعارف المنتمية إلى الثقافة المتخصّصة في عصره . نجد مثالاً معبّراً عن ذلك أصْدَق تعبير وأوفاه في حديث خالد ابن يزيد – الذي أشرتُ إليه سابقاً – في كتاب البخلاء . وتتجلّى في هذا الحديث براعة الجاحظ في تقمّص أشدّ الشخصيّات الشعبيّة غرابةً وفكاهيّة في عصره ، إلى جانب قدرته على توظيف أكبر قدر من المعارف الاجتماعيّة والتاريخيّة والأسطوريّة دون أن تؤثّر في الطابع الفنيّ للحكاية . وخالدُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن يزيد هذا الذي يجري الحديث على لسانه في هيئة نصيحة أو وصيّة موجّهة إلى ابنه – رجلٌ مـــراء نفّاجٌ مدّعٍ مبالِغٌ في تقدير نفسه ، وسوء الظنّ بالنّاس ، واتّهامهم على ماله وولده . وحتّى لو سلّمنـا بأن هذا الرجل كان موجوداً فعلاً ومعروفاً في ذلك العصر ، فإنّ الجاحظ استطاع أن يصنع منه بحديثه هذا المتكرّر نموذجاً ساخراً إلى الغاية . وفيما يلي أسوق بعض الفِقَر من ذلك الحديث ؛ إذ كان المقام لا يتّسع لنقله بتمامه :

يقول : " قد بلغتُ في البرّ مُنقطَع التراب ، وفي البحر أقصى مبلغ السّفن . فلا عليـــك أن لا ترى ذا القرنين . ودعْ عنك مذاهب ابن شرْيَة ؛ فإنّه لا يعرف إلاّ ظاهر الخبر. ولو رآني تميمٌ الـــداريّ لأخذ عنّي صفة الرّوم . ولأنا أهـــدى من القَطا ، ومن دُعيميص ، ومن رافع المِخَش . إنّي قد بِـــتُّ بالقَفْر مع الغول ، وتزوّجتُ السّعلاة ، و جاوبتُ الهاتف ، ورغتُ عن الجِنّ إلى الحِنّ ، واصطـــدتُ الشّق ، وجاوبتُ النّسناس ، وصحبني الرئيّ ، وعرفتُ خُدَع الكاهن وتدسيس العـــرّاف ، وإلى مـــا يذهب الخطّاط والعيّاف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفت التنجيم والزّجر والطّرق والفكر .

إنّ هذا المال لم أجمعه من القَصص والتّكْدِية ، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل . ولا يُجمـــع مثلُه أبداً إلاّ من معاناة ركوب البحر ، أو من عمل سلطان ، أو من كيمياء الذهب والفضّة ؛ قد عرفتُ الرأس حقّ المعرفة ، وفهمتُ كسر الإكسير على حقيقته . ولولا علمي بضيق صدرك ، ولولا أنْ أكون سبباً لتلف نفسك ، لعلّمتك السّاعةَ الشيء الذي به بلغ قارونُ ، وبه تبنّكت خاتونُ . واللهِ ما يتّســـع صدرك عندي لسرّ صديق ، فكيف ما لا يحتمله عزمٌ ولا يتّسع له صدر . وخَزْنُ سرّ الحديث ، وحبسُ كنوز الجواهر ، أهونُ من خزْن العِلم . ولو كنتَ عندي مأموناً على نفســـك لأجريـــتُ الأرواح في الأجساد وأنتَ تبصر ؛ إذ كنتَ لا تفهمه بالوصف ولا تحقّقه بالذّكر . ولكنّي سأُلقي عليـــك علـــم الإدراك ، وسَبْك الرّخام ، وصنعة الفسيْفِساء ، وأسرار السيوف القَلعِيّة ، وعقاقير السيوف اليمانيّـــة ، وعمل الفِرعَونيّ ، وصنعة التلطيف على وجهه ، إنْ أقامني الله من صرعتي هذه .

... سلْ عنّي صعاليك الجبل ، وزواقيل الشّام ، و زطّ الآجام ، ورؤوس الأكراد ، ومَـــرَدَة الأعراب ، وفُتّاك نهر بطّ ، ولصوص القفص ، وسلْ عنّي القِيقانيّة والقطريّة ، وسلْ عنّـــي المتشـــبّهة وذبّاحي الجزيرة : كيف بطشي ساعةَ البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجَوْلـــة ، وكيف ثبات جَناني عند رؤية الطليعة .... . فكم من دِيماس قد نَقَبْتُه ، وكم من مُطبَق قد أفضَيْتُـــه ، وكـــم من سجنٍ قد كابدتُه . لم تشهدني وكردويه الأقطع أيامَ سندان ، ولا شـــهدتني في فتنـــة سَرَنْديب ، ولا رأيتني أيام حرب المولتان . سلْ عنّي الكتيفية والخليدية والخرّبيـــة والبلاليـــة ، وبقيّـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصحاب صَخر ومُصخِر ، وبقيّة أصحاب فاسٍ وراسٍ ومقلاس ، ومَنْ لقي أزهرَ أبا النقم . كان آخر من صادفني حَمدويه أبو الأرطال . وأنا مجيبُ مردويه بن أبي فاطمة ، وأنا خلعتُ بني هانئ ، وأنا أول من شرب الغربيّ حاراً والبزيل بارداً ، وأول من شرب بالعراق بالكَبَرة ، وجعل القَنْقَل قرعة ، وأوّل من ضرب الشاهسيرم على ورق القرع ، وأوّل من لعب باليرمع في البَدو ، وأسقط الدفّ المربّع من بين الدِّفاف . و ما كان النقّاب إلاّ هدّاماً حتّى نشأتُ ، وما كان الاستقفاء إلاّ استلاباً حتّى بلغتُ ".[1]

ومن خصائص سخرية الجاحظ من بخلائه – وهي ناتجة عن الخصائص السّابقة كلّها ومستفادة منها – قدرتُها الفائقة على الإضحاك . والحقيقة أنّ هذه الخاصيّة ممّا يصعب عليّ شرحُه وإيضاحُ علله ، وإن كنتُ ألمس أماراته وشواهده في عامّة المشاهد والصور التي يرسمها الجاحظ لبخلائه . فأسأل نفسي : مِن أين يتأتّى لسخريته كلُّ هذه القدرة على استجرار الضّحك من القارىء الذي تفصله عنها وعن البيئة الاجتماعية والماديّة التي تخلّقت فيها قرونٌ متطاولة ؛ هل يكمن ذلك في سهولة لغتها وسلاسة عباراتها وانقياد الألفاظ لصاحبها ، أو في بساطة مغزاها ، أو في واقعيّتها ، أو في دقّة تصويرها وروعة وصفها ، أو في حكايتها لحركات النّفس وخلجات الصدر وبدَوات الخاطر ، أو في رسمها لنماذجَ بشريّة عامّة يمكن أن توجد في كلّ العصور والمجتمعات وليست خاصّة بعصر أو بمجتمع بأعيانهما ... ؟ لا أملك أن أنسب تلك الطّاقة الإضحاكيّة الكامنة في سخرية الجاحظ إلى أيٍّ من هذه العوامل دون غيرها ، فأضطرّ إلى أن أرجعها إليها جميعاً ، ولستُ جازماً – مع ذلك – أنّني قد أصبتُ العلّة الحقيقيّة فيها . ولعلّ القارئ قد أوتي من ثقوب البصيرة وقوّة الحدس ما يمكّنه من اكتشاف أسباب أكثر وجاهةً عندما يقرأ القصّة التالية ، التي أجدها – على بساطتها – من أكثر القصص في كتاب البخلاء قدرةً على إضحاك القارئ ، ومن أقربها تمثيلاً للسخرية الراقية التي تُخاطب الذوق الفنّيّ المطبقول المدرَّب على لمح مواطن الفنّ الحقيقيّ ، الذي يتنزّه عن أيّ تهافت أو إسفاف . فأنْ تُضحِك دون أن تُسفّ تلك ميزة لا يقدر عليها إلاّ الأديب الحقّ :

تجري أحداث القصّة بين رجلٍ يُدعى جَبَلاً ، وصديق له يُكنّى أبا مازن ، وها هي ذي كما يرويها الجاحظ : " كان جَبَلٌ خرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف الطّائفَ ، و لم يأمن المستقفي . فقال : لو دققتُ الباب على أبي مازن ، فبتُّ عنده في أدنى بيت أو في دِهليزه ، و لم أُلزمه من مُؤنتي شيئاً ، حتّى إذا انصدع عمود الصّبح خرجتُ في أوائل المُدلجين .

---

(١) البخلاء ، ص ٤٧– ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فدقّ عليـــه الباب دقّ واثقٍ ودقّ مَنْ يخاف أن يُدركه الطائف أو يقفُوه المستقفي ، وفي قلبـــه عِزُّ الكفاية والثّقة بإسقاط المؤنة . فلم يشكّ أبو مازن أنّه دقُّ صاحب هديّة ؛ فنزل سريعاً .

فلمـــّا فتح الباب وبصُر بجبل ، بصُر بملَك الموت . فلمّا رآه جبل واجمـــاً لا يُحير كلمةً ، قال له : إنّي خِفتُ مَعرَّة الطائف وعجلة المستقفي فمِلْتُ إليك لأبيتَ عندك . فتساكر أبو مازن ، وأراه أنّ وجومه إنّمـــا كان بسبب السُّكر : فخلّع جوارحه ، وخبّل لسانه ، وقال ســـكرانُ واللهِ ، أنـــا واللهِ سكران . قال له جَبَل : كُنْ كيف شئتَ . نحن في أيّام الفصل ؛ لا شتاء ولا صيف ، ولستُ أحتـــاج إلى سطح فأغمَّ عيالك بالحرّ ، ولستُ أحتاج إلى لحاف فأكلّفك أن تُؤثرني بالدِّثار . وأنا كما تـــرى ثَمِلٌ من الشّراب ، شبعان من الطعام ، ومِنْ منزل فلان خرجتُ ، وهو أخصبُ الناس رَحْلاً. وإنما أريد أن تدعني أغفي في دِهليزك إغفاءةً واحدة ، ثمّ أقوم في أوائل المبكّرين . قال أبـــو مـــازن – وأرخـــى عينيـــه وفكّيه ولسانه ، ثمّ قال – : سكران واللهِ ، أنا سكران ، لا واللهِ لا أعقل أين أنا ، واللهِ إنْ أفهمُ ما تقول .

ثمّ أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشكّ أنّ عذره قد وَضَح ، وأنّه قد ألطف النظَرَ حتّى وقع على هذه الحيلة ".[1]

---

(١) البخلاء ، ص ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً : المناظرة :

من الأساليب الأثيرة عند الجاحظ في معالجة الموضوعات ذات الصبغة الخلقيّة أسلوبُ المناظرة . وليس هذا بمستغرب إذا علمنا أن المعتزلة برعوا في أدب الجدل حتى أصبحوا أربابه .

وأفضلُ مثال وأوضحه يمكن أن يستشهد به الدارس على أسلوب المناظرة عند الجاحظ في الموضوعات الخلقيّة هو ذلك المتمثّل في رسالة " مفاخرة الجواري والغِلمان " . فإنّ مفهوم المناظرة يتجلّى فيها بأتمّ صوره ؛ فهناك صاحب الجواري المروّج لهنّ والمدافع عنهنّ ، في مواجهة صاحب الغِلمان المروّج لهم والمدافع عنهم كذلك . كلاهما يحاول إفحامَ خصمه والظّهور عليه ، بكسب المناظرة و إقناع السامعين بصحّة دعواه وبطلان دعوى الآخر.

وأمّا الحُجج والأدلّة التي يُلقيانها فإنّها مستمدّة من تراث اللغة العربية ؛ قديمه وحديثه ، فلا يخرجان في معانيهما واستشهاداتهما عن ضروب المعرفة التي لها وجودٌ أصيل في لغة العرب ؛ كالقرآن والحديث والشعر . غير أنّ الضرب الأخير — وهو الشعر — يضمّ تيّارين متمايزين بوضوح في هذه الرسالة / المناظرة ؛ وهما : التيّار العربيّ القديم ، والتيّار المولّد الجديد المتحرّر نوعاً ما . ولعلّ طبيعة المناظرة هي التي فرضت هذا التمايز ؛ فالأشعار المحبِّذة للغلمان والمؤثرة لهم والداعية إلى اتّخاذهم ، معظمُها — إن لم يكن جميعها — أشعار محدَثة من أشعار المولّدين ؛ كأبي نواس ووالبة وأمثالهما . وأمّا الأشعار التي تتشبّب بالنساء ، وتتغنّى بجمالهنّ ، وتصوّر الْتياع الشعراء بهنّ ، فهي في أكثرها قديمة ، خاصّة إذا ابتغينا الجودة .

وبذلك ، فإنّ هذه المناظرة تعالج في طيّاتها أكثر من ثنائيّة : واحدةٌ ظاهرة أو مُعلَنة ؛ وهي ثنائيّة الجواري والغلمان . واثنتان أخريان ضمنيّتان أو مستورتان ؛ وهما : ثنائيّة الشعر القديم والشعر المحدَث ، وثنائيّة العرب والشعوبيّة فيما يتعلّق بالقِيَم الحضاريّة والجماليّة ؛ ذلك أنّ اتّخاذ الغِلمان للمتعة الجنسيّة لم يكن يوماً من عادة العرب ، ولا تسمح به قيمهم ، لكنّهم كانوا يُشغفون بالنّساء وكلّ ما اتّصل بهنّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقيقة أنّ تلك الثنائيّات الثلاث متّصلةٌ ببعضها اتّصالاً وثيقاً ؛ فلا يمكن الفصل بين الأدب والأخلاق والقيم الجماليّة ودرجة الرقيّ الحضاريّ في أمّة من الأمم ؛ ومن هنا فإنّه ليس من المستغرَب أن نقرأ في رسالةٍ تقوم أصلاً على الموازنة بين قيمتين أخلاقيّتين – جماليّتين ، كرسالة " المفاخرة بين الجواري والغلمان " – النصوصَ التالية :

* " قال (صاحب الغِلمان) : لو نظر كثيّر وجميل وعروة ومَنْ سمّيتَ من نُظَرائهم إلى بعض خدم أهل عصرنا ممّن قد اشترِي بالمال العظيم فراهةً وشَطاطاً [١] ، ونقاءَ لون ، وحُسْنَ اعتدالٍ ، وجودة قَدّ وقَوام ، لنبذوا بثينة وعزّة وعفراء من حالق [٢]، وتركوهنّ بمزجَر الكلاب . ولكنّك احتججتَ علينا بأعراب أجلاف جُفاة ، غُذُوا بالبؤس والشقاء ، ونشؤوا فيه ، لا يعرفون من رفاغة العيش [٣] ولذّات الدنيا شيئاً . إنّما يسكنون القِفار ، وينفِرون من الناس كنفور الوحش ، ويقتاتون القنافِذ والضِّباب ، ويَنْقُفون الحنظل [٤]، وإذا بلغ أحدهم جهدَه بكى على الدِّمنة ، ونعَت المرأة ، ويشبّهها بالبقرة والظّبية ، والمرأةُ أحسن منهما . نعم ، حتّى يشبّهها بالحيّة ، ويسمّيها شَوْهاءَ وجرباء ؛ مخافة العين عليها بزعمه" [٥].

* " قال (صاحب الجواري) : أمّا أنتَ فحيث اجتهدتَ واحتفلت جئتَ بالحكميّ [يعني أبا نواس] ، والرَّقاشيّ ، ووالبة ، ونظرائهم من الفُسّاق والمرغوب عن مذهبهم ، الذين نبغوا في آخر الزمان ؛ سُقّاط عند أهل المروءات ، أوضاعٌ عند أهل الفضل " [٦]. ثمّ أضاف بعد أن أورد أشعار طائفةٍ من القدماء في الغزل والتشبيب ، من الجاهليّين والأمويّين ؛ أمثال : امرئ القيس والأعشى وجرير والقُطاميّ – : " فهؤلاء القدماء في الجاهليّة والإسلام ، فأين قول من احتججت به مِنْ قولهم ؟!

ولا نعلمُ أحداً قال في الغلام ما قال الحكميّ ، وهو من المحدَثين . وأين يقع قولُه من قول الأوائل الذين شبّبوا بالنساء ؟ فدعْ عنك الرّقاشيّ ووالبة و الخرّاز ومن أشبههم ، فليست لك علينا حجّةٌ في الشعراء "[٧].

---

(١) طولا واعتدال قوام ، أو حسنه .

(٢) الجبل العالي .

(٣) رغد العيش وطيبه .

(٤) يستخرجون حبه ليأكلوه .

(٥) الجواري والغلمان ، في رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، وانظر كذلك ص١١٦ .

(٦) الجواري والغلمان ، ص ١١٣ .

(٧) الجواري والغلمان ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الواضح أنّ هذه النصوصَ تخرج عن حدود المُفاضلة بين الجواري والغِلمان ، وهي مسألة أخلاقيّة جماليّة في المقام الأوّل – إلى المفاضلة بين الشعراء من القدماء والمحدَثين ، وبين الحضارتين العربيّة – بل الأعرابيّة البدويّة –، والفارسيّة الحضريّة . ولسنا نطالب الجاحظ بأن يَفْصل المسألة الأخلاقيّة عن متعلّقاتها الاجتماعيّة والتاريخيّة والحضاريّة ؛ فهي حَرِيّةٌ أن توضّحها وتُغني البحث فيها ، وإن كان ذلك يَخرج به أحياناً إلى الشّطَط في الاستطراد .

ويبدو الجاحظ صارماً جدّاً عندما يتعلّق الأمر بمدى التزام المتناظرَين بأصول هذا الفنّ ، فإذا لاحظ تجاوزاً من أحدهما سارع إلى تنبيهه ، على لسان صاحبه . كانت المناظرة من أوّلها قائمةً على المفاضلة بين متعتين أو لذّتين حسيّتين من ناحية شهويّة دنيويّة محضة ، فجاء صاحب الجواري في إحدى معارضاته ، وأقحم المنطق الدينيّ في المناظرة ، وصار يتحدّث من منطلَق الحلال والحرام . وتلك حُجج لا تتناسب والأساسَ الذي قامت عليه المناظرة من ابتدائها . بمعنى أنّ المخالفة هاهنا مخالفةٌ منهجيّة ، يؤدّي السكوت عليها إلى قطع التواصل بين المتناظرين وامتناع التفاهم لاختلاف المرجعيّات.[1]

وهذه اللّمحة في هذه المناظرة تشي بوضوح بواقعيّة الجاحظ في أدبه ؛ إذ يسجّل أفكاراً وآراء متداولة فعلاً في عصره ، حتّى الأخطاء المنهجيّة التي يقع فيها المتناظرون في مجالس حجاجهم كانت عدسته تلتقطها وتنتقدها لتقوّمها .

أما عن موقف الجاحظ الخاصّ من هذه المسألة – مسألة الجواري والغلمان – فمن الطبيعيّ أن نجده يتحاشى التصريح به في معظم مراحل المناظرة ؛ حتى لا يفسدها باتّخاذ جانب أحد الخصمين . ولكن هناك إشارات يمكن بتتبّعها الوقوفُ على رأي الجاحظ بصورة تقريبيّة على الأقلّ ، منها :

– أن الجاحظ يُنهي مناظرته باحتجاج صاحب الجواري ؛ فيظهر صاحب الغِلمان وكأنّما انقطعت حجّته ، ولم يعد قادراً على المتابعة .

– أنّ الفقرة الختاميّة في المناظرة أقربُ إلى أن تكون بلسان الجاحظ مباشرة ، مِن أن تكون بلسان صاحب الجواري ، وكأنّ الجاحظ تقمّص في النهاية شخصيّة صاحب الجواري علانيةً . وهذا وإن كان يَحيف على الناحية الفنيّة المحضة للمناظرة ، باعتبار الجاحظ فيها راوياً وليس طرفاً مشاركاً ، فإنّ فيه دلالةً واضحة على مَيْل الجاحظ إلى مقولة صاحب الجواري ، الميل الذي يمكن

(١) انظر ذلك التعديل المنهجيّ لمسار المناظرة ، الجواري والغلمان ، ص ١١٦ – ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إعطاؤه قيمةً خلقيّة إيجابيّة ، بالقياس إلى دعوة صاحب الغلمان – يقول في هذه الفقرة مخاطباً صاحب الغِلمان :" ولولا خوف الملال والسّآمة على الناظر في هذا الكتاب ، لقلنا في الاحتجاج عليك بما لا يدفعه مَنْ كانت به مُسْكة عقل [بقيّته] ، أو له معرفةٌ . وفيما قلنا ما أقنع وكفى . وبالله الثّقة " (١)

ووقوف الجاحظ إلى جانب صاحب الجواري يعني ضمنيّاً انحيازه إلى التراث الحضاريّ العربيّ – في هذا الموضوع على الأقلّ – بكلّ قيمه وتقاليده ، وإلى الشّعر القديم الذي يصوّر ذلك التراث ، ضدّاً على التراث الفارسيّ ودعاة إحيائه .

والذي يميّز هذا الأسلوب – أسلوب المناظرة – من غيره من الأساليب في معالجة القيم الخلقيّة ، ومناقشة القضايا الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة ، أنّه لا يفرض على القارىء آراءً معيّنة بطريقة تنظيريّة جافّة ، أو مباشرة فظّة ؛ ولكنّه يسرّبها إليه من حيث لا يشعر ، و يدفعه إلى المشاركة في استخلاص الرأي والانحياز إلى وجهة النظر التي يقتنع بها ، بعد أن يكون قد تعرّض لجميع الاختيارات المتعلّقة بتلك المسألة .

---

(١) الجواري والغلمان ، ص ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً : القصّة - الطُرفة :

يلجأ الجاحظ في كثير من الأحيان إلى تسريب القيم والاتّجاهات الأخلاقيّة عن طريق وضعها في إطار قصصيّ فنّيّ طريف ؛ حتّى تصل إلى القارئ بطريقة غير مباشرة ، ومن حيث لا يشعر ، ولا يضطّر إلى احتمال جفاف التنظيرات الخلقيّة والمواعظ والإرشادات التي تقوم على الأمر والنّهي . والقصّة عند الجاحظ تلبس في أحيانٍ كثيرة لباس الطّرفة أو النادرة المضحكة ؛ فتجمع بين البنية القصصيّة والغاية التفكيهيّة الترفيهيّة . ومن أفضل النماذج الممثّلة لهذا النوع من القصّة الفكاهيّة – بعد حكايات البخلاء التي سنفرد لها حديثاً خاصّاً تحت عنوان (المشاهد المسرحيّة) ضمنَ هذا الفصل [١]– تلك المجموعة من الطّرف التي أوردها في ذيل رسالة " مفاخرة الجواري والغِلمان " [٢].

وهذه الطُّرف الفَكِهة تتمتّع ببناء قصصيّ مُحكَم ، يشتمل على أكثر- إن لم نقل جميع- مقوّمات القصّة القصيرة وعناصرها ؛ من شخصيّات ، وزمان ، ومكان ، وسرد ، وحوار ، وحبكة ، وحلّ وتصوير. ويمكن أن نعدّد فيما يلي أبرز سماتها البنائيّة :

١. تبدأ بمقدّمة سرديّة وصفيّة ، تدور حول حدث سابق يلزم الإحاطةُ به لفهم القصّة ، [٣] أو حول وصف الشخصيّة الرئيسيّة فيها ، [٤] أو حول وصف المكان أو الموقف الذي تجري فيه القصّة – الطُّرفة [٥].

٢. يتبع ذلك السّرد التمهيديّ حوارٌ بين الشخصيّة الرئيسيّة وشخصيات أخرى في القصّة ، وتظلّ الشخصيّة الرئيسيّة حاضرة في القصّة باستمرار.

٣. يتّسم الحوار ببساطته ؛ فهو يدور حول شؤون حياتيّة اعتياديّة ، وليس له أبعاد فكريّة أو فلسفيّة عميقة .

---

(١) انظر ص ٨١ وما بعدها من هذا الفصل .

(٢) انظر رسالة مفاخرة الجواري والغلمان ، ص ١٢٥ – ١٣٧ ، وبصفة خاصّة الطّرف ذات الأرقام ٥ – ص ١٢٧ ، ٩ – ص ١٢٨ ، ١٨ – ص ١٣٢ – ١٣٣ ، ؟ – ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٣) انظر الطرفة ٥ – ص ١٢٧ .

(٤) الطرفة ١٨ – ص ١٣٢ ، ؟ – ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٥) الطرفة ١٧ – ص ١٣١ – ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤. يتّسم الحوار كذلك بقصر الأدوار فيه ، ثمّ بقصر العبارات داخلَ الدور الواحد .

٥. يهتمّ الجاحظ بتصوير الحركات والإيماءات المرافقة للحوار ؛ حتّى ينقل المشهدَ إلى القارئ بكلّ تفاصيله .

٦. يمتاز حوار الجاحظ بأنّه قريب في لغته كثيراً من لغة الحياة اليوميّة في بساطتها وعفويّتها ، إلى درجة استخدام بعض أنماط التعبير العاميّة أحياناً.

٧. ينتهي هذا النوع من القصّة الفكاهيّة نهايةً مضحكة وغير متوقّعة ، تستدعي دهشة القارئ وضحكه .

وحتّى لا يكون كلامنا مجرّداً فإنّنا نحيل القارئ على احدى الطُّرف التي ذيّل بها الجاحظ رسالته في " مفاخرة الجواري والغلمان " ؛ إذ جاءت مشتملةً على أكثر الخصائص التي ذكرناها ، ولولا شدّة تمتّكها لنقلناها بنصّها .[1]

وتبدأ الطُّرفة بوصف للشخصيّة الرئيسيّة ؛ وهي تلك المرأة الجميلة الوضيّة ، وسردِ معلوماتٍ عنها ، لها علاقةٌ بموضوع القصّة ؛ إنّها عازفةٌ عن الزواج ، وما تزال ترفض كلَّ مَنْ يتقدّم لخطبتها من الرجال ، حتّى تقدّم إليها شابٌّ وسيم شريف ، ستُصبح طريقةُ التقائه بها ليلةَ الزّفاف محورَ القصّة . ثمّ يدور حوار بين الفتاة وأمّها ؛ تزيّن لها فيه الزواج من ذلك الشابّ ، بعباراتٍ قصيرة مألوفة مباشرة ، ليس فيها أيّ عمق فكريّ أو تكلّف بلاغيّ ، ولا تحمل – دائماً – إلاّ معنى واحداً واضحاً . وهذا الحوار – في الحقيقة – ليس سوى تمهيد للمشهد الرئيسيّ في القصّة ، الذي ينتهي نهايةً مضحكة ، مخالفةً لما كان متوقّعاً من مجريات الحوار الذي سبقه .

وأحياناً يصطنع الجاحظ بعض تلك القصص على سبيل الوعظ ، ولكنّه ليس من نوع الوعظ المأساويّ التطهيريّ الذي نعرفه في حكايات الزهّاد والنسّاك والمتصوّفة ؛ وإنما هو وعظٌ فكاهيّ ساخر ، كذلك الذي نقف عليه في القصّة التي يرويها الجاحظ في " كتاب الحيوان " عن عبد الله بن سوّار مع ذبابٍ لجوج . وكان عبد الله هذا قاضياً وقوراً زمّيتاً ركيناً ، يتكلّف كلّ ما يمكن أن يتكلّفه من أجل المحافظة على هذه الصورة في أعيُن الناس . والحقُّ أنّه نجح في ذلك زماناً ، حتّى أفضى به إلى العُجْب والاغترار بنفسه . فأراد الله – سبحانه – أن يُطلعه على حقيقة ذاته من الضعف وقلّة الحيلة ، فسلّط عليه – وهو في مجلس قضائه – ذباباً شَكِساً ، لجّ في مضايقته ، حتّى أفقده اتّزانه ، وأخرجه عن طوره ؛ ليُحطّم – في لحظاتٍ – تلك الصورة التي عكف القاضي أمداً من حياته على تثبيتها في أذهان

---

(١) انظر رسالة الجواري والغلمان ، ص ١٣٣ – ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس ، وألجأه – في النهاية – إلى الاعتراف بتهافتها وبطلانها ، وبأنّه – كغيره من الناس- يخضع لكلّ ما تفرضه عليه طبيعتُه البشريّة من نقصٍ وضعف .

وقد جاءت هذه القصّة في غاية الإبداع ، والدقّة في التصوير ، وجاءت مستوفيةً لمعظم – إن لم نقل : لجميع – عناصر القصة القصيرة ، حتّى في إطار المفهوم الحديث لها . وللتدليل على ذلك ، فقد رأيتُ أن أُثبتَ القصّة بتمامها كما أوردها الجاحظ ،حيث يقول :

" كان لنا بالبصرة قاضٍ يُقالُ له : عبد الله بنُ سَوَّار ، لم يرَ الناسُ حاكماً قطُّ ولا زِمِّيتاً ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثلَ الذي ضبط وملك ؛ كان يصلّي الغداةَ في مترلــــه ، وهو قريب الدّار مِن مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتّكــئ ، فــلا يــزال منتصبــاً ؛ لا يتحرّك له عضوٌ ، و لا يلتفت ، ولا يحلّ حَبوته ، ولا يُحوّل رَجلاً عــن رجــل ، ولا يعتمد على أحد شِقّيه ، حتّى كأنّه بناءٌ مبنيّ ، أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتّــى يقــوم إلى العصر ، ثمّ يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتّى يقوم لصلاة المغرب ، ثمّ ربّما عاد إلى محلّه ، بل كثــيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه مِن قراءة العهود والشُّروط والوثائق ، ثمّ يُصلّــي العشــاء الأخــيرة وينصرف . فالحقُّ يُقال : لم يَقُم في طول تلك المُدّة والوِلاية مرّةً واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شَرِبَ ماء ولا غيره من الشّراب . كذلك كان شأنه في طِوال الأيّام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان – مع ذلك – لا يحرّك يده ، ولا يُشير برأسه ، وليس إلاّ أنْ يتكلّم ، ثمّ يُوجز ، ويبلــغ بالكلام اليسير المعانيَ الكثيرة . فبينا هــو كذلك ذاتَ يــوم ، وأصحابــه حواليــه ، وفي السِّــماطين [الصفّين] بين يديه ؛ إذ سقط على أنفه ذُبابٌ ، فأطال المُكث ، ثمّ تحوّل إلى مُؤق عينه ، فرام الصــبر في سقوطه على المُؤق ، وعلى عضّه ونفاذ خرطومه ، كما رام مِن الصبر على سقوطه على أنفه مِن غير أنْ يُحرّك أرنبتَه ، أو يُغضّن وجهَه ، أو يذبّ بإصبعه . فلمّا طال ذلك عليه من الذّبــاب ، وشــغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكانٍ لا يحتمل التغافُل ، أطبق جفنَه الأعلى على جفنــه الأسفل ، فلــم ينهضل ، فدعاه ذلك إلى أنْ والى بينَ الإطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكن جفنُه ، ثمّ عــاد إلى مؤقــه بأشدّ مِن مرّته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبلَ ذلك ، فكان احتماله له أضعفَ ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه ، وزاد في شدّة الحركة ، وفي فتح العين ، وفي تتــابُع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدْر ما سكنتْ حركتُه ، ثــمّ عاد إلى موضعه ، فلمّا زال يُلح عليه حتّى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجدْ بدّاً مِن أنْ يذبّ عن عينيه بيده ، ففعلَ ، وعيونُ القــوم إليــه ؛ ترمُقُه ، وكأنّهم لا يَرَوْنَه ، فتنحّى عنه بقدْر ما ردّ يدَه وسكنتْ حركتُه ، ثمّ عاد إلى موضعه ، ثمّ ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرَف كُمّه ، ثمّ ألجأه إلى أنْ تابَع بين ذلك . وعَلِمَ أنّ فِعْله كلّه بعين مَنْ حَضَره

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِن أُمَنائه وجُلَسائه ، فلمّا نظروا إليه قال : أشهد أنّ الذّباب ألــحّ مِن الخنفساء ، وأزهى مِن الغراب ! وأستغفر الله ! فما أكثر مَنْ أعجبتْه نفسُه ، فأراد الله – عزّ وجلّ – أنْ يُعرّفه مِن ضعفِه ما كان عنــه مستوراً ! وقد علمتُ أنّي عند الناس مِنْ أزْمَت النّاس ، فقد غلبني وفضحني أضعفُ خَلْقِه ! ثمّ تلا قولَه تعالى : "وإنْ يَسْلُبْهم الذّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُف الطّالبُ والمطلوب [1]"[2].

وهكذا ، فإنّ الجاحظ عندما أراد أن يقبّح لقارئه التزمُّت والرّكانة والمبالغة في الوقار ، وما يلزم عنها مِن العُجب ، لم يُلْقِ ذلك عليه بأسلوبٍ تنظيريّ أو وعظيّ مباشر ؛ وإنّما جعل سبيله إلى الوعــظ أن يضعه في إطار قصصيّ مشوّق وممتع ، يبلغ مِن الأثر والإقناع أكثرَ ممّا يبلغه الأسلوبُ الأوّل ؛ فصنع قصّة القاضي عبد الله بن سوّار مع ذلك الذباب اللّحوح . ولا أعني بقولي:" صنع القصة " أنّه اخترعـها بتمامها مِن خياله ، وأنّه ليس لها أصل في الواقع ؛ وإنّما عنيتُ أنّها ، وإن كانت مستندةً إلى أساسٍ مــا مِن الواقع كما يبدو من ظاهرها ، فقد اقتضت مِن الجاحظ قدْراً كبيراً من المعالجة الأدبيّة حتّى خرجتْ على هذا النحو من دقّة التصوير وتَسَلْسُلِه وتشويقه و إقناعه وتأثيره في القارئ كما لو أنّه يُعاين القصــة بنفسه على الحقيقة أو أمامَ شاشة تلفزيون. .

---

(١) الحج من الاية ٧٣ .

(٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً: المشاهد المسرحيّة:

يعتمد الجاحظ في معالجته للبخل بصورةٍ لافتة للانتباه على ما يمكن أن نسمّيه بالمشاهد المسرحيّة ، والحقيقةُ أنّ بعض هذه المشاهد يبلغ من النضج والاكتمال والاستيفاء لعناصر المسرح التقليديّ ؛ من سرد وحوار وشخصيّات ومكان وزمان ... درجةً راقية جدّاً ؛ حتّى " بات منَ الميسور أخذُ صفحة أو صفحات من كتاب البخلاء ، فتُخرَج إخراجاً بسيطاً ؛ لكي تصبح مسرحية صغيرة "[١]. وهذه المشاهد بحكم موضوعها وشخصيّاتها يمكن تصنيفها تحت باب الملهاة التي يكون الغرض منها الترويحَ على النفوس وإدخال السرور والبهجة إليها دون إغفال للرسالة الخاصّة التي تحملها

ويُستدلّ من تلك المشاهد المسرحيّة على سعةِ خيال الجاحظ ، وإحاطته بعناصر الحياة الاجتماعيّة والماديّة بصورة لا تُدانَى من حيث : شموليّتها ودقّتها ، واقتدارِه على رسم مشاهدَ وصورٍ أصيلة مبتكرة تنمّ على مستوى من الإبداع رفيعٍ جدّاً ، بالإضافة إلى خبرته الواسعة بطبائع فئات الناس في مجتمعه على اختلافها ، ومعرفته بطرق تفكيرهم ، ووجوه تدبيرهم ، وكيفيّة تصريفهم لشؤون معاشهم ، بل واستبطانه لما يجول في خواطرهم من أفكار ، وما تختلج به نفوسهم من حركات ومشاعر ، إلى جانب درايته بطبيعة العلاقات التي تربط بين أبناء الفئة الواحدة ، وخصائص الخطاب المتبادَل بينهم ، وما يستخدمونه فيه من مصطلحات و تسميات متعارفة بينهم ، وكيف ينظرون إلى الناس خارجَ فئتهم ، وكيف يتصوّرون أو يتوقّعون نظرة الناس إليهم . ولكي أدلّل على مقدار الاستعدادات الفنيّة التي كان يمتلكها الجاحظ ويصدر عنها في كتاباته ، ومدى خصبها وتنوّعها، أقتطع هذا المشهد من محاورة أهل البصرة من المسجديّين ، وفيه يحكي أحدُ شيوخ المجلس قصّة امرأة تُسمّى مُعاذة العنبريّة ، يتبدّى فيها مدى حذق تلك المرأة لِـ " صنعة البخل " . وإنْ كان الوفاء بالتعبير عن طاقات الجاحظ الإبداعيّة واستعداداته الفنيّة في هذا الباب يقتضي أن أسوق تلك المحاورة بأكملها ، ففيها من مواطن الإبداع الفنيّ ومن ملامح الأدب المسرحيّ كثيرٌ يستحقّ الوقوف عنده[٢]، ولكنّني مضطر – حتّى لا أُثقل – إلى الاكتفاء بإثبات هذا الجزء من المحاورة على سبيل

---

(١) شارل بيلا – أصالة الجاحظ ؛ نصّ محاضرة ملحقةٍ بكتابه : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ٣٨٧ .

(٢) ولكنّ عيبها أنّ الحوار فيها غير متصل ؛ إذ تحكي كلّ شخصيّة أفضل تجارها في الأقتصاد وأكثرها غرابةً وأحقّها بالتنويه ، ثمّ تصمت وتترك الدور للشخصيّة الثانية ، وهكذا . ثمّ لا تعود إلى الحديث مرّة أخرى ، إلاّ ما يكون من تعليق الجماعة أو أحدهم على ما يسمعونه ، وإبداء رأيهم فيه ، وإظهار استحسانهم له .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمثيل ، ثمّ ما تلاه من تعليقات المسجديّين، وانفعالاتهم ، التي تنمّ جميعها على استحسانهم لعملها ، وإعجابهم بـ " حسن تدبيرها " !

يقول : " ثمّ اندفع شيخٌ منهم [المسجديّين] فقال : لم أرَ في وضعِ الأمور مواضعَها وفي تَوْفِيتها غاية حقوقها – كمعاذةَ العنبريّة . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أهدى إليها العامَ ابنُ عمّ لها أُضحيّة . فرأيتُها كئيبةً حزينة مفكّرة مُطرِقة ، فقلتُ لها : ما لكِ يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأةٌ أرملة ، وليس لي قيّم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحيّ . وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقّه. وقد خفتُ أن يضيع بعضُ هذه الشّاة ، ولستُ أعرف وضعَ جميع أجزائها في أماكنها ، وقد علمتُ أنّ الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه ، ولكنّ المرء يعجز لا محالة . ولستُ أخاف من تضييع القليل إلاّ أنّه يجرّ تضييع الكثير .

أمّا القَرْنُ فالوجه فيه معروف ؛ وهو أن يُجعل منه كالخُطاف ، ويُسمّر في جذع من أجذاع السّقف ، فيُعلّق عليه الزُّبُل والكِيران وكلُّ ما خِيف عليه من الفأر والنّمل والسنانير وبنات وَردان والحيّات وغير ذلك . وأمّا المُصران فإنّه لأوتار المِندفة ، وبنا إلى ذلك أعظمُ الحاجة . وأمّا قِحف الرأس واللّحيان وسائر العظام فسبيله أن يُكسَر بعد أن يُعرَق ، ثمّ يُطبخ ؛ فما ارتفع من الدّسم كان للمِصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثمّ تُؤخذ تلك العظام فيوقَد بها ، فلم يرَ الناس وقوداً قطّ أصفى ولا أحسنَ لَهَباً منه . وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القِدْر ؛ لقلّة ما يخالطها من الدّخان . وأمّا الإهاب ؛ فالجِلدُ نفسه جِراب ، وللصّوف وجوهٌ لا تُعدّ . وأمّا الفرثُ والبعر فحطبٌ إذا جُفّف عجيبٌ .

ثمّ قالت : بقي الآنَ علينا الانتفاعُ بالدّم . وقد علمتُ أنّ الله – عزّ وجلّ – لم يحرّم من الدم المسفوحِ إلاّ أكلَه وشُربه ، وأنّ له مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها ، وإنْ أنا لم أقعْ على ذلك حتّى يُوضع موضعَ الانتفاع به ، صارَ كيّةً في قلبي ، وقذًى في عيني ، وهمّاً لا يزال يعودني .

قال : فلم ألبثْ أن رأيتُها قد طلّقتْ وتبسّمت . فقلتُ : ينبغي أن يكون قد انفتح لك بابُ الرأي في الدّم . قالت : أجل ، ذكرتُ أنّ عندي قُدوراً شاميّة جُدُداً . وقد زعموا أنّه ليس شيء أدبغَ ولا أزْيَدَ في قوّتها من التلطيخ بالدّم الحارّ الدّسِم . وقد استرحتُ الآنَ ؛ إذ وقع كلّ شيء موقعَه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال : ثمّ لقيتُها بعد ستّة أشهر ، فقلتُ لها : كيف كان قَديدُ تلك [أي الشاة] ؟ قالت : بأبي أنت ! لم يجئ وقتُ القديد بعدُ . لنا في الشحم والألية والجُنوب والعظم المُعرق وفي غير ذلك مَعاش . ولكلّ شيء إبّان .

فقبض صاحبُ الحِمار والماء العذب [1] قبضةً من حصى ، ثمّ ضرب بها الأرض ، ثمّ قال : لا تعلمُ أنّك من المسرفين حتّى تسمع بأخبارِ الصالحين " [2].

وللبرهنة على السّمة أو الطبيعة المسرحيّة لحكايات الجاحظ في كتاب البخلاء سوف أعمد إلى إعادة صياغة إحداها على صورة مشهد مسرحيّ متّسق ، مع تغيير بسيط في بعض الألفاظ والعبارات ، ولن أضطر إلى هذا كثيراً ؛ لأنّ الجاحظ يستخدم في حكاياته لغةً هي أقرب ما تكون من لغة الحوار المتداولة في الحياة اليوميّة . [3]:

(شيخٌ خراسانيّ ، يتولّى أحد أرباض بغداد ، يتّصف بالعدل والبعد من الفساد والبراءة من الرّشوة ومن الحكم بالهوى ، حَفِيٌّ مُبجّلٌ عند الناس ، ومتعقّلٌ منضبط حتّى في بخله ، وفي إمساكه وتدقيقه في نفقاته ، لا يأكل إلا ما لا بدّ منه ، ولا يشرب إلاّ ما لا بدّ منه . غير أنّه قد أخذ نفسَه بعادة أسبوعيّة لا تكاد تتخلّف أبداً ؛ ذلك أنّه إذا كان في غداة كلّ جمعة حمل معه منديلاً فيه رغيفان ، وقِطع لحم سِكْباج مبرّد ، وقطع جبنٍ ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بدّ ، ومعه خِلال [عود يُنظِّف به ما بين الأسنان] ومضى وحده ، حتّى يدخل بعض بساتين الكرخ ، وينظر موضعاً تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماءٍ جارٍ . فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرّة ومن هذا مرّة . فإن وجد قيّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثمّ قال : اشترِ لي بهذا ؛ رُطَباً – إن كان في زمان الرّطب – ، أو عنباً – إن كان في زمان العنب – ، ويقول له : إيّاك إيّاك أن تحابيَني ، ولكنْ تَجَوَّدْ لي ؛ فإنّك إنْ فعلتَ لم آكله ولم أعُدْ إليك . واحذر الغَبن ؛ فإنّ المغبون لا محمودٌ ولا مأجور . فإنْ أتاه به أكل كلّ شيء معه ، وكلّ شيء أُتي به ، ثمّ تخلّل [أزال ما بين أسنانه من أثر الطعام] وغسل يديه ، ثمّ تمشّى مقدار مئة خُطوة . ثمّ يضع جنبه ، فينام إلى وقت الجمعة . ثمّ ينتبه فيغتسل ، ويمضي إلى المسجد . هذا كان دأبَه كلّ جمعة).

---

(١) هو صاحب الحديث الأول ضمن هذه المحاورة ، وقد كان له مذهب عجيبٌ في توفير الماء العذب . انظر حديثه في البخلاء ، ص ٢٩ .

(٢) البخلاء ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٣) انظر نص الحكاية في البخلاء ، ص ٢٤ – ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(فبينا هو يوماً من أيّامه يأكل في بعض المواضع ، إذ مرّ به رجل) :

- الـرّجـــــــل : السلام عليكم .
- الشيخ الخراسانيّ : وعليكم السلام ورحمة الله . هلمّ عافاك الله .

(ينثني الرّجل راجعاً يريد أن يجوز الجدول أو يعبر النّهر ، فيفاجئه الخراسانيّ:)

- مكانَك ؛ فإنّ العَجلة من عمل الشيطان .

(يقف الرّجلُ ، ويُقبل عليه الشيخ الخراسانيّ) :

- تريد ماذا ؟
- أريد أن أتغدّى .
- و لِمَ ذاك ؟ وكيف طمعتَ في هذا ؟ ومَنْ أباح لك مالي ؟
- أوَليس قد دعوتني ؟!
- ويلك ! لو ظننتُ أنّك هكذا أحمقُ ما رددتُ عليك السّلامَ . العُرْفُ فيما نحن فيه أن تكون ، إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المارّ، أن تبدأ أنتَ فتسلّم ، فأقول أنا حينئذٍ مجيباً لك : وعليكم السّلام . فإن كنتُ لا آكلاً شيئاً سكتُّ أنا وسكتَّ أنت ، ومضيتَ أنت وقعدتُ أنا على حالي . وإن كنتُ آكل فها هنا قاعدةٌ أخرى ؛ وهي أن أبدأ أنا فأقول: هلمّ، وتجيب أنت فتقول : هنيئاً . فيكون كلام بكلام ، فأمّا كلامٌ بفَعال ، وقولٌ بأكلٍ ، فهذا ليس من الإنصاف ، وهذا يُخرج علينا فضلاً كبيراً.

* * *

فهذه المعالجة البسيطة التي لم تُكلّف سوى ترتيب الفِقَر ، وموالاة الأدوار ، والفصل بين السّرد والحوار ، بدتْ كفيلة بإظهار الصّبغة المسرحيّة لتلك الحكاية . وكذلك هي أغلب حكايات الجاحظ في كتاب البخلاء . ولعلّه من الملائم هنا أن نقول كلمة موجزة في أبرز ملامح تلك الصّبغة . على أن نتذكّر أنّنا مدعوّون دائماً إلى التحلّي بكثير من التسمّح والتلطّف ونحن نتحسّس تلك الملامح في أدب الجاحظ ؛ ذلك أنّ " المسرح " بمذاهبه وخصائصه ومفاهيمه المستقرّة يُعدّ فنّاً جديداً على الأدب العربيّ ، ومن هنا توسّلنا في حديثنا عن هذا الأسلوب عند الجاحظ بمصطلحات مُراوغةٍ مِنْ مثل : مشاهد مسرحيّة ، وملامح مسرحيّة ، و لم نقلْ : مسرحيّات ، أو فنّاً مسرحيّاً ؛ لأنّنا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– في أحسن الأحوال – نبحث عن جذور أو إرهاصات لهذا الفنّ الرّاقي في ثنايا أدبنا القديم ، ولا ندّعي أننا نفتش عن صورٍ مكتملةٍ منه ؛ لأنّ ذلك لن يعدو أنْ يكون إسقاطاً تاريخيّاً ليس له أية قيمة أو فائدة .

وأوّل تلك الملامح يتمثّل في المراوحة بين السّرد والحوار ؛ فيحتلّ السّرد – في العادة – الجزءَ الأوّل من المشهد ، بينما يشغل الحوار الجزء الثاني أو معظمه . ويمكن عدّ المشهد الذي أعدنا ترتيبه آنفاً مثالاً ملائماً لهذه الطريقة في المراوحة بين عنصري السّرد والحوار ، على النحو التالي :

ينقسم المشهد المذكور قسمين ؛ الأوّل : سرديّ ، وظيفتُه وصفُ الشخصيّة الرئيسة ، وإعطاء صورة مكثّفة عنها ، كنوعٍ من التمهيد اللاّزم لإدخال القارئ في جوّ المشهد ، وضمان فهمه له ، وانفعاله به . وقد شمل هذا الوصف الشخصيّة من الناحيتين : الخارجيّة والداخليّة ؛ أعني الصفات الجسمانيّة والصفات النفسيّة التي لها علاقة بموضوع المشهد ، بالإضافة إلى وصفٍ دقيق للوسط الطبيعيّ المحيط بالمشهد . فهو من الناحية الخارجيّة : شيخٌ خراسانيّ وقور ، يعمل والياً على أحد أرباض بغداد . ومن الناحية الداخليّة : عادلٌ ، بعيد من الفساد ، ومن الرشوة ، ومن الحكم بالهوى ، حفيّ جدّاً ، غير أنّه بخيلٌ مدقّق ، ولكنْ بأُسلوبٍ منظّم ومنضبط كما في سائر شؤونه . أمّا القسم الثاني من المشهد : فيستحوذ عليه الحوار ، وأحياناً تتخلّله بعض العبارات السرديّة القصيرة ؛ لرسم الحركات والانفعالات المرافقة للحوار . والحوارُ في هذا المشهد يدور بين شخصيّتين اثنتين ؛ هما: شخصيّة الشيخ الخراسانيّ ، وشخصيّة الرجل الذي مرّ به . ويتّصف الحوار الذي دار بينهما ببساطة لغته ، واقترابها من اللّغة المحكيّة في المعاملات اليوميّة ؛ كما في هذه العبارة : " تريد ماذا ؟ " ، وهذه : " الآيين [القانون أو العُرف] فيما نحن فيه أن تكون ، إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المارّ ، أن تبدأ أنت فتسلّم " [1] ، وتتراوح الأدوار في الحوار بين الطّول والقصر ، وكذلك العبارات نفسها ؛ أحياناً تكون قصيرة متواترة ، وأحياناً تأتي طويلة بطيئة الإيقاع ، حسبما يقتضيه الموقفُ والحالة النفسيّة للمتكلّم . فمن عباراته القصيرة المتواترة قولُه :" و لم ذاك ؟ وكيف طمعتَ في هذا ؟ ومَنْ أباح لك مالي ؟ " ، ومن عباراته الطّويلة المتأنّية قولُه : " ويلك ! لو ظننتُ أنّك هكذا أحمقُ ما رددتُ عليك السّلام . الآيين فيما نحن فيه أنْ تكون إذا كنتُ أنا الجالسَ وأنت المارّ أن تبدأ أنتَ فتسلّم ، فأقول أنا حينئذٍ مجيباً لك : وعليكم السّلام ... فضلاً كبيراً ". ويتّصف الحوار أيضاً بسذاجته ، ووضوح معانيه ، وبعده من

---

(١) أنظر مثالاً آخر على اعتماد الجاحظ على هذه اللغة المحكيّة في الحوارات التي يُديرها بين شخصيّات مشاهده المسرحيّة ، في قصة المروزيّ مع الحسن البصري ، ص ٢٧ . خاصّة عبارات المروزيّ الأخيرة ، كقوله للحسن يُعاتبه على إغراقه بالإنفاق والصدقة : " هذا يحلّ لك ؟ اللّص كان يصنع بي أكثر من هذا ؟ " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغموض أو العمق الفكريّ ، فهو حوارٌ سطحيّ لا يتطلّب من القارئ جهداً لفهمه والاستجابة لـــه . ويعتمد المتحاورون في جدلهم على حُجج واستدلالات تبدو صحيحة في الظّاهر ، ويدهش المرء كثـــيراً لدقّتها ولطافتها ، ولكنّها مع ذلك تظلّ موصومةً بطابعٍ تسويغي متهافت ، هدفه تزيين خلق بغيـــض عند عامّة الناس .

ولعلّه يبدو واضحاً ما يعبّر عنه هذا المشهد والمشهدُ الذي سبقه من قيمٍ خلقيّة تخصّ تلك الفئة البرجوازيّة [١] التي غلبت على المراكز الحضاريّة للدولة العباسيّة ؛ مثل : بغـــداد والبصـــرة والكوفـــة وخراسان ... . وقد كانت هذه القيم في معظمها منطلقة من واقع الحياة الماديّة (الاقتصادية) لتلـــك الطبقة الاجتماعيّة ؛ ولذلك فهي تدور حول الضبط والاقتصاد في النفقات ، وتكوين عادات ســـلوكيّة محدّدة يمكن معها وضع برنامج صارم للإنفاق ، لا يترك مجالاً لرياح الكرم والجُود المُفاجئة أن تعصـــف بالوضع الماديّ للمرء أو أن تُدخل عليه أيّ خللٍ لم يكن في الحُسبان . وذلك دون أن يأبه المستمســـك بهذه القيم كثيراً ولا قليلاً بما يترك سلوكه من أثرٍ في نفوس الناس ، لا يلبث أن يُترجَم على ألســـنتهم ذمّاً وانتقاصاً ؛ لأنّه يُؤمن أنّ ذمّ النّاس له وانتقاصهم منه لن يضيره إذا استغنى ، وأنّ مدحهم له وثناءهم عليه لن ينفعه إذا افتقر ، وليس ذلك عنده إلاّ ضرباً من الغرور يتوصّل به بعض المتطفّلين إلى أمـــوال الناس بمخادعتهم والاحتيال لهم .

وقد حاول أصحاب تلك الطبقة أن يدافعوا عن أنفسهم ، وينتصروا لمذهبهم ، بإحداث نـــوع مـــن القَلْب أو التحويـــل في القيم والمفاهيم الخاصّة بالحياة الاقتصاديّة للأفراد فسمّـــوا البخـــل إصلاحاً ، والشحّ اقتصاداً ... وحامَوا على المنع ونسبوه إلى الحزم ... ونصبوا للمواســـاة وقرنوهـــا بالتضييع ... وجعلوا الجود سَرَفاً والأثرة جهلاً ... وزهدوا في الحمد وقـــلّ احتفـــالهم بـــالذمّ ... واستضعفوا مَنْ هشّ للذّكْر وارتاح للبذل ... وحكموا بالقوّة لمن لا يميل إلى ثناء ولا ينحـــرف عـــن هجاء " [٢]

وبالرغم ممّا قد يصحّ اعتقاده مِن أنّ الجاحظ قد تأثّر في " كتاب البخلاء " بنـــزعته العصبيّـــة ، متمثّلةً في الردّ على دعاة الشعوبيّة من الموالي ، والسخرية من بخلهم وتدنيقهم ، والتنـــدّر بأحاديثـــهم

---

(١) راجع البخلاء ، مقدمة المحقق ، ص ٣٦ . وانظر كذلك شارل بلات - الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ٣٠٨ ، حيث يقول في معرض وصفه للطبقات الاجتماعيّة التي تكوّنت في البصرة - : " وهكذا ظهرت طبقة بورجوازيّة تعتمد على المال ، وتضمّ في صفوفها أغلبيّة المسلمين الجدد الذين انضمّ إليهم اليهود والنصارى " .

(٢) البخلاء ، ص ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واحتجاجاتهم ؛ إذ كانوا من قبلُ يتنقّصون الأخلاق والقيم العربيّة ويطعنون عليها ، وفي مقدّمتها " فخرهم التقليديّ بالكرم ، ويقولون : إنّ أكثر هذا الفخر كلامٌ لا يفي به الفعل ، ونوع من النفّج لا حقيقة له في الواقع ، وفي سبيل ذلك يذهبون يتلقّطون من هنا وهنا أخبارهم ممّا يتعلّق بمآكلهم الغثّة ، ومطاعمهم الكريهة ، وهيئة معيشتهم الخشنة ، إلى غير ذلك ممّا هو في لوازم البداوة : ليغضّوا بذلك من قدْرهم في نظر جمهور الناس ، ويُحيطوهم في أخيلتهم بجوّ من الضّعة والمهانة ؛ وليقولوا لهم : أنّى تكون مع هذه الحياة الدنيئة التي يحيونها كلُّ تلك الدعاوى العريضة التي يتشدّق الشعراء بها ، ويتغنّى بها أنصار العربيّة المتافحون عنها ؟! " [1] – فإنّ الكتاب مع ذلك يظلّ محتفظاً بقيمةٍ موفورةٍ في الكشف عن أخلاق تلك الطبقة الاجتماعيّة التي ظهرت في ذلك العصر ، وتصوير ما يميزها من قيم خاصّة داخل المجتمع . ولقد بقيت النزعةُ الفنيّة – في النهاية – هي الغالبة على الجاحظ في هذا الكتاب ، وغيّبت وراءها ما سواها من النوازع السياسيّة أو الشخصيّة ، فكانت " هي حافزته إليه ، وباعثته فيه ، وصاحبة الأثر في تصريفه وتلوينه " [2]

وهذه الطّريقةُ في تناولِ الأخلاق – على شكل مشاهدَ تمثيليّةٍ – ليستْ مقصورةً في أدب الجاحظ على موضوع البُخل والبخلاء ؛ بل نستطيع أن نقف على أمثلةٍ عديدة لها في ثنايا كتبه المختلفة ، وخاصّة " كتاب الحيوان " ، الذي يمكن أنْ يُوصَف – بحقٍّ – بأنّه موسوعةٌ منوّعة ، تتضمّن نماذجَ ممثّلةً لأكثر فنون الجاحظ وأساليبه الأدبيّة مِنْ : مناظرة ، وقصّة ، وموعظة وسخرية... إلخ . وقد اخترتُ منه هذا المشهد الفكاهيّ الذي يُصوّر جُبْنَ شيخٍ مِن الأعراب ، تصويراً ساخراً ، يشتمل على أغلب مقوّمات المشهد المسرحيّ الأساسيّة مِنْ : مكان وزمان وحوار وشُخوص وحدثٍ وعقدة وحلّ .. إلخ . يقول :

" قال بشرُ بن سعيد : كان بالبصرة شيخٌ مِن بني هُمشل يُقال له : عروة بن مَرْثَد ، نزل ببني أُختٍ له في سكّة بني مازن ، وبنو أخته مِن قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيتِ النّساء يُصلّين في مسجدهم ، فلم يبقَ في الدار إلاّ كلبٌ يَعُسّ ، فرأى بيتاً ، فدخل، وانصفق البابُ ، فسمعَ الحركةَ بعضُ الإماء ، فظنُّوا أنّ لصّاً دخل الدارَ ، فذهبت إحداهنّ إلى أبي الأعزّ ، وليس في الحيّ رجلٌ غيره ، فأخبرته ، فقال أبو الأعزّ : ما يبتغي اللصّ منّا ؟! ثمّ أخذ عصاه ، وجاء حتّى وقف على باب البيت ، فقال : إيهٍ يا مَلأمان ! أمَا واللهِ إنّك بي لَعارفٌ ، وإنّي بك أيضاً لعارفٌ ؛ فهل أنتَ إلاّ مِن لصوص بني مازن ، شربتَ حامضاً حبيثاً ، حتّى إذا دارت الأقداحُ في

---

(١) البخلاء ، المقدمة ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأسك منّتْكَ نفسُك الأمانيّ ، وقلتَ : دورَ بني عمرو ، والرّجالُ خُلوف ، والنساء يُصلّين في مسجدهنّ ؛ فأسرقهنّ ! سَوْءةٌ والله ، ما يفعلُ هذا الأحرارُ ! لَبئسَ – واللهِ – ما منّتكَ نفسُك ! فاخرجْ ، وإلاّ دخلتُ عليك ، فصرمتْكَ منّي العقوبةُ ! لأيمُ الله لتخرُجَنّ أو لأهتِفَنّ هتفةً مشئومةً عليك ، يلتقي فيها الحيّان : عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تَباب ، ويجيء سعدٌ بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرّجالُ مِن هاهنا وهاهنا !! ولئن فعلت لتكونَنّ أشأمَ مولود في بني تميم !! فلمّا رأى أنّه لا يُجيبه ، أخذه باللّين ، وقال : اخرجْ يابنيّ ، وأنت مستور ، إنّي والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقد قنعتَ بقولي واطمأننتَ إليّ ؛ أنا عروة بن مَرثد ، أبو الأعزّ المَرْثديّ ، وأنا خال القوم وجلدةُ ما بين أعينهم ، لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمّة كفيلٌ خفير ، أُصيّرك بين شحمة أذني وعاتقي ؛ لا تُضارُّ ، فاخرجْ ، فأنتَ في ذمّتي ، وإلاّ فإنّ عندي قَوْصَرّتَيْنْ [وعاء من قصب يجعل فيه التمر]: إحداهما إلى ابن أُختي البارّ الوَصُول ، فخُذْ إحداهما فانتَبِذْها حلالاً من الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلّم . وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ ، وإذا سكتَ وثبَ يُريغُ المَخرج ، فتهافتَ الأعرابيّ – أي تساقط – ، ثمّ قال : يا ألأمَ النّاس وأوضَعَهم ، ألا يأني لك أنّا منذُ الليلةِ في وادٍ وأنتَ في آخرَ : إذا قلتُ لك السّوداءَ والبيضاءَ تسكتُ وتُطرِق ، فإذا سكتُّ عنكَ تُريغ المخرج ؟! واللهِ لتخرُجَنّ بالعفو عنك ، أو لألجنّ عليك البيتَ بالعقوبة ! فلمّا طال وقوفُه ، جاءتْ جاريةٌ مِن إماء الحيّ ، فقالت : أعرابيٌّ مجنون !! والله ما أرى في البيتِ شيئاً !! ودفعَت البابَ ، فخرج الكلبُ شدّاً ، وحاد عنه أبو الأعزّ مُستلقياً ، وقال : الحمدُ لله الذي مسخك كلباً ، وكفاني منك حرباً !! ثمّ قال : تالله ما رأيتُ كالليلةِ ، ما أُراه إلاّ كلباً !! أمَا واللهِ لو علمتُ بحاله لولجتُ عليه " (١).

ويمتاز الحوارُ في هذا المشهدِ – وهو العنصر الأساسيّ في العمل المسرحيّ – بأنّه يجري مِنْ طرَف واحد ؛ هو ذلك الشيخ الأعرابيّ ، ويأخذ شكل خُطبةٍ حماسيّة بليغة ، يتخلّلها استجاباتٌ بسيطة مِن قِبَل الكلب . وفي الحقّ أنّها خُطبةٌ مُحكَمةٌ ، متنوّعة الأساليب ، غزيرة المعاني ؛ فيها : الفخرُ والهجاء ، والترغيب والترهيب ؛ بالوعد تارةً وبالوعيد تارةً أخرى ، وفيها : الأمرُ ، والتعجُّب ، والاستنكار ، والنداء ، والقَسَم ، بالإضافةِ إلى الحذف وقِصَر الجُمَل واتّساقها في نظام الخُطبة ، واستخدام العبارات الفخمة ذات الجَرْس القويّ في مواضع الترهيب ، ثمّ ترقّ عباراتُها وتلين ويخِفّ وقْعُها في مواضع الترغيب . وكلُّ هذا مِن شأنه أن يُضاعف سخريةَ القارئ مِن ذلك الشيخ ، الذي حَمَلَ الأمرَ على غير محمله ، وبالغ في تقديره ، وذهب مع الظّنون كلَّ مذهب ، وجعَل مِن نفسه فارساً بطلاً دونَ موجبٍ حقيقيّ ، فكلّما زادَ مِنْ حِدّته وحماسته ، أغرقَ القارئَ في الضّحك ؛ لأنّه يعلمُ أنْ ليس ثمّةَ ما يستحقّ هذا كلّه ولا بعضَه ، وإنّما هو دليلٌ على جُبن ذلك الشّيخ وشدّة فَرَقه ، ليس غير .

---

(١) كتاب الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٣١ – ٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

سمات أسلوب الجاحظ في خطابه الأخلاقي

اولاً : أسلوب الجاحظ في تنظيم رسائله الخلقية .

ثانياً : وصف المفاهيم الأخلاقيّة وصفاً بلاغيّاً ينأى عن الحدود المنطقيّة .

ثالثاً : تضمين الأحاديث الخلقيّة ألواناً شتى من معارف العصر .

رابعاً : الدقّة في اختيار الألفاظ الدالّة على المعاني الأخلاقيّة .

خامساً : توجيه الحديث إلى المتلقي بصيغة الخطاب المباشر .

سادساً : الاستقصاء والتتبع .

سابعاً : الجنوح إلى الإطلاق والتعميم في تقرير بعض الأحكام المتصلة بالأخلاق .

ثامناً : تمثيل المفاهيم الخلقيّة في شكل أزواج من الأضداد :

١ – ثنائيّة العقل / الهوى .

٢ – ثنائيّة الجِدّ / الهزْل .

٣ – ثنائيّة الصداقة / العداوة .

* أصول نظرة الجاحظ الثنائيّة إلى المفاهيم الخلقيّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

درسنا في الفصل السّابق عدداً من الأساليب الأدبيّة التي وظّفها الجاحظ في عرض بعض القيم الخلقيّة مجسَّدةً في نماذج بشريّة تمثّل طوائف اجتماعيّة متمايزة في عصره ؛ كنموذج البخيل في شخصيّات المراوزة غالباً [١] ، ونموذج النفّاج المدّعي في شخصيّة ابن عبد الوهّاب [٢]، ونموذج الظّالم المتجنّي في شخصيّة الوزير الزيّات [٣] . كما أشرنا إلى طائفة من الخصائص التي امتازت بها تلك الطرائق الفنيّة في تمثيل القيم الخلقيّة عند الجاحظ . وننتقل في هذا الفصل إلى الحديث عن بعض السّمات التي امتاز بها أسلوبه في نوعٍ آخر من كتبه غلبتْ عليه صفةُ التنظير المباشر أو الوصيّة الأخلاقيّة ؛ كما في رسالة " المعاش والمعاد " ، ورسالة " فصل ما بين العداوة والحسد " ، ورسالة " كتمان السرّ وحفظ اللسان " – على سبيل المثال .

وربّما كان بعض هذه السّمات الأسلوبيّة – أو كثير منها – غيرَ مقصور على كيفيّة تناول الجاحظ للموضوعات الخُلُقيّة بالذات ، بل ينسحب على غيرها من الموضوعات ؛ كما في الاستطراد ، والعناية بالإيقاع ، والتلوين العقليّ ... إلخ [٤] . ولكنّ ما يعنيني هنا – على وجه الخصوص – هو الكشف عن تلك السّمات وتتبّع آثارها في نصوص الجاحظ المنتمية إلى هذا الموضوع بالتحديد – أعني موضوع الأخلاق – ، والتمثيلُ عليها من داخل تلك النصوص .

---

(١) انظر الجاحظ – كتاب البخلاء .

(٢) انظر الجاحظ – رسالة التربيع والتدوير .

(٣) انظر الجاحظ – رسالة في الجدّ والهزْل .

(٤) انظر في ذلك شوقي ضيف – الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ ، ص ١٦٠ – ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : أسلوب الجاحظ في تنظيم رسائله الخلقية :

يبدو الأمر فيما يتعلّق بأسلوب الجاحظ في ترتيب رسائله الخلقيّة وتقسيمها وبنائها الداخليّ – أو باختصارٍ فيما يتعلّق بمنهجه الشكليّ في صياغة تلك الرسائل ، والذي يحمل في طيّاته بالتأكيد دلالة معنويّة ما – مختلفاً كثيراً عمّا يُطالعنا به في كتبه الطّوال ؛ فقد عُرف عن تلك الكتب – كالحيوان مثلاً – قلّةُ الترتيب، وغيابُ التنسيق ، وكثرةُ الاستطراد ، والتداخل في الكلام . ولعلّ هذا يرجع إلى المنهج الذي اعتمده الجاحظ أصلاً في تلك الكتب ، والذي يقوم على التنويع وخلط الجِدّ بالهزْل والخروج من موضوعٍ إلى آخر مختلفٍ عنه في بابه ؛ اعتناءً بالحالة النفسيّة للقارئ ، لئلاّ يلحقه الملل أو الفتور بسبب طول تلك الكتب وجِديّة موضوعاتها ؛ حتّى لقد حمّله بعض الباحثين المحدَثين وِزر " الفوضى التي تسود كتب الأدب العربيّ ؛ فقد جرتْ على مِنواله ، وحذت حذوه ؛ فالمبرّد – تلميذه – قد تأثّر به في تأليفه ، والكتب التي أُلّفتْ بعد ُ ؛ كعيون الأخبار ، والعِقد الفريد ، فيها شيء من روح الجاحظ ، وإنْ دخلها شيء من الترتيب والتبويب " [١] .

على أيّة حال ، وبغضّ النظر عن مسوّغات غياب النظام والاتّساق في كتب الجاحظ المطوّلة ، ومدى تسليمنا بوجاهة تلك المسوّغات ، فلقد كان الأمر في رسائله الخلقيّة – موضوع حديثنا – مختلفاً بدرجة كبيرة ، كما أسلفتُ . فإنّ الجاحظ يتّبع في رسائله منهجاً شكليّاً على مستوى عالٍ من النظام والترتيب . وللتدليل على مبلغ نضج ذلك المنهج وتقدّمه سوف أعمد فيما يلي إلى عقد موازنة – من هذه الناحية فقط – بين ما تسير عليه إحدى رسائل الجاحظ من جهة ، والطريقة الحديثة في الترتيب والتقسيم التي ينتهجها المؤلّفون والباحثون في كتبهم وأطروحاتهم العلميّة ؛ علماً بأنّني قد راعيتُ المحافظة على ترتيب الفِقَر كما وردت في الرسالة ، حتّى تكون الموازنة صادقة ، ولا يكون في الأمر أيّ نوع من التكلّف أو القَسْر . وهذه الرسالة هي رسالة " المعاش والمعاد أو الأخلاق المحمودة والمذمومة " [٢]

---

(١) أحمد أمين – ضحى الإسلام ، ج١ ، ص ٣٩٢ .

(٢) ارجع إلى نصّ الرسالة في رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص ٩١ – ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : عنوان الرسالة :

" رسالة المعاش والمعاد أو الأخلاق المحمودة والمذمومة " .

ثانياً : الإهداء :

إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ؛ قاضي بغداد والأعمال لأربع سنين من عهد المتوكّل (٢٣٣ – ٢٣٧ هـ). (١)

يقول : " وكان من تمام شكري لربيّ وليّ كلّ نعمة ، والمبتدئ بكلّ إحسان – الشكرُ لكَ ، والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى نظّم الشكر له بالشكر لذي النعمة من خَلْقه ، وأبَى أن يقبلهما إلاّ معاً ؛ لأنّ أحدهما دليلٌ على الآخر ، وموصول به . ... فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش " . (٢)

ثالثاً : المقدمة ، وتتضمن :

١ – **الدراسات السّابقة** : وقد أشار إليها إشارة مجملة ، وبيّن ما فيها من نقص أو خلل ، وكيف سيتداركه في رسالته .

يقول : " ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقّ ، وأحسنوا فيها الدلالة . إلاّ أنّي رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعاً لم يبيّنوا عللها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها .

فإن كان ما فعلوا من ذلك رواياتٍ رَوَوْها عن أسلافهم ، وورِاثات ورِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، و لم يبلغوا فضيلة من استنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة على عِلَل الأمور التي بمعرفة عللها يُوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعْدُوا في ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلاّ مبيّنةَ الأسباب ، مكشوفةَ العلل ، مضروبةً معها الأمثالُ " (٣).

---

(١) انظر تقديم المحقّق للرسالة ، ص ٨٩ .

(٢) كتاب المعاش والمعاد ، ص ٩٤ – ٩٥ .

(٣) كتاب المعاش والمعاد ، ص ٩٦ – ٩٧ ، وانظر مأخذ الجاحظ على من كتبوا في موضوع الأخلاق قبله ، إذ كانوا يكتفون بتعداد الفضائل والرذائل غُفلاً من عللها ، ودون عناية ببيان الأصول والفروع – الفصل الأوّل من هذا البحث ؛ النزعة التعليليّة ، ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يبدأ الجاحظ رسالته بالإشارة إلى الدراسات السّابقة – مع ما في هذه الإشارة من إجمال وعموميّة – ، وبيانِ مواضع الإجادة ومواضع القصور فيها ، ثمّ يَعِد بجبر ذلك القصور . ولكنّه – مع كشفه عن جوانب النقص والخلل – لا ينسى أن يعترف للقوم بفضلهم وسابقتهم في موضوع البحث ، ولا يغضّ أبداً من قيمة جهودهم . وهذا أدبٌ رفيع من آداب البحث ، وملمحٌ منهجيّ متقدّم .

٢ – أهميّة الرسالة ومسوّغاتها ، والأسئلة التي ستحاول الإجابة عنها ، وفكرة موجزة عن موضوعها :

يقول : " ثمّ رأيتُ أنّ قد بقي عليّ أمرٌ من الأمور يمكنني فيه برُّك ، وهو عندي عتيد ، وأنت عنه غير مستغنٍ ، والمنفعة لك فيه عظيمةٌ ؛ عاجلة وآجلة إن شاء الله ".(١)

" فألّفتُ لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائعَ التي رُكّب عليها الخَلْقُ ، وفُطِرت عليها البرايا كلّهم ؛ فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرّون ، وفي المعرفة بما يتولّد عنها متّفقون . ثمّ مبيّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالاتُ ، وتفاوتُ بهم المنازل ، وما العلل التي يوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ؛ متى كان الأوّل كان ما بعده ، وما السّبب الذي لا يكون الثاني فيه إلاّ بالأوّل ، وربّما كان الأوّل ولم يكن الثاني . وفرْقَ ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولِمَ اختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتّى تُستمال ، وحتى تُؤنس بعد الوَحشة ، وتَسكنَ بعد النِّفار ؟ وكيف يُتأتّى ليُنتقَض ما فيهم من الطبائع المذمومة حتّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك في ذلك أصولاً ، ومبيّنٌ لك مع كلّ أصلٍ منها علّتَه وسببه ".(٢)

٣ – منهج الرسالة : يتلخّص في بيان العِلَل والأسباب ، وإقامة الأدلة والحُجج ، ورسم الأصول ، واستقصاء الفروع ، والوصول إلى قواعدَ وتعميماتٍ تنطبق على جميع الناس ، واعتمادِ المقايسة بين أمور الدين وأمور الدنيا .

يقول : " وقد علمتَ أنّ في كثيرٍ من الحقّ مشبّهاتٍ لا تُستبان إلاّ بعد النظر ، وهناك يختِل الشيطان أهل الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلاً إلى اختداعهم عن الأمور الظّاهرة . فلم أدَعْ من تلك

---

(١) كتاب المعاش والمعاد ، ص ٩٥ .

(٢) كتاب المعاش والمعاد ،ص ٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المواضع الخفيّة موضعاً إلاّ أقمتُ لك بإزاء كلّ شُبْهةٍ منه دليلاً ، ومع كلّ خفيٍّ من الحقّ حُجّةً ظاهرة تستنبط بها غوامض البرهان ، وتستبين بها دقائق الصواب ، وتستشفّ بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيّنة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وَحشةٌ إلى معرفة كثيرٍ ممّا يغيب عنك ، إذا عرفتَ العِلل والأسباب ، حتّى كأنّك مشاهد لضمير كلّ امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما رُكّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثَمَّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أتقصّى لك ما بلغه علمي من الفروع . ثمّ لا أرسم لك من ذلك إلاّ الأمرَ المعقول في كلّ طبيعة ، والموجودَ في فِطَر البرايا كلّها . فإن أحسنتَ رعاية ذلك ، وأقمته على حدوده ، ونزّلته منازله ، كان عمرك – وإن قصرتْ أيّامه – طويلاً ، وفارقتَ ما لا بدّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

واعلمْ أنّ الآداب إنّما هي آلاتٌ تصلح أن تُستعمل في الدين وتُستعمل في الدنيا ، وإنّما وُضعتْ الآداب على أصول الطبائع . وإنّما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدةٌ ؛ فما فسدتْ فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكلّ أمرٍ لم يصحّ في معاملات الدنيا لم يصحّ في الدين . وإنّما الفرق بين الدين والدنيا اختلافُ الدّارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحُكْم هاهنا الحكمُ هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ، ولا ثبتت دولةٌ ، ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك قال الله – عزّ وجلّ – : " وَمَنْ كانَ فِي هذهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً " [1]. قال ابنُ عبّاس في تفسيرها : مَنْ كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبّرتْ أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنّما ينتقل بذلك العقل ؛ لأنّ هذه شاهدةٌ وتلك غيب ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل ".[2]

رابعاً : محتوى الرسالة :

ويأتي محتوى الرسالة بعد ذلك مرتّباً ترتيباً منطقيّاً متسلسلاً ، تترابط فيه الفِقَر ، وتُسلِم كلُّ واحدة إلى التي تليها بطريقة تلقائيّة سَلِسَة ، مع مجانبة الاستطراد ، والمحافظة على وَحدة الموضوع .

ولم أُرِد من هذه الموازنة أنْ أقول : إنّ الجاحظ قد أوْفى على الغاية في اصطناع منهجٍ علميّ رصين ومطّرد في رسائله ، فهذا كلامٌ لا يخلو من مبالغة ظاهرة ؛ وإنّما أردتُ أن أدلّل على أنّ الجاحظ كان يحاول أن يصطنع في رسائله منهجاً يغلب عليه النظام والتنسيق والتسلسل المنطقيّ ووَحدة الموضوع ووضوح الغرض ، بخلاف ما هو شائعٌ عنه في الطّوال من كتبه . ولعلّ هذا راجعٌ إلى قِصَر رسائله نسبيّاً ، وتخصّصها في قضايا جزئيّةٍ محدّدة .

---

(١) الإسراء ، الآية ٧٢ .

(٢) كتاب المعاش والمعاد ، ص ٩٨ – ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً : وصف المفاهيم الأخلاقية وصفاً بلاغياً ينأى عن الحدود المنطقية :

من خصائص أسلوب الجاحظ في تناول الأخلاق – حتّى وهو أقرب ما يكون من الموقف التنظيريّ المباشر – أنّه لا يعمد إلى تعريف المصطلحات والمفاهيم الأخلاقيّة تعريفاً فلسفيّاً منطقيّاً ؛ أعني التعريف الذي يحدّ المفهوم من أطرافه ، ويتقصّى جميع سماته الخاصّة التي تُبينه من غيره ، وتجعله متمايزاً واضحاً في الذّهن . ولكنّ غاية ما يفعله هو أن يصف المفهوم بعبارات بليغة أو يجسّدَه في صور بيانيّة مبتكَرة ، أو يضربَ له الأمثال ، أو يُعيّن له مؤشّرات ودلائلَ تُنبئ عنه ، أو يرشدَ إلى سُبُل علاجه إن كان مذموماً ، مستنداً في ذلك إلى قُدرة تعبيريّة فائقة ، وبراعةٍ في التصوير والوصف ، وسيطرةٍ على مفرداتِ حقولٍ دلاليّة واسعة ومتنوّعة ، وحافظةٍ متضلّعة من النصوص الدينيّة والأخبار والأشعار والأمثال . يتبدّى ذلك واضحاً في النصّ التالي الذي يصف الجاحظ فيه خلُقَ الغضب بقوله : " والغضبُ يغلب العزمَ على قدْر ما مُكّن ، ويُحيّر اللُّبَّ بقدْر ما سُلّط . والغضبُ يصوّر لصاحبه مثلَ ما يُصوّر السَّكْرُ لأهله . والغضبانُ يُشعله الغضبُ ، ويَغلي به الغيظُ ، وتستفرغه الحركة ، ويمتلئ بدنه رِعدة ، وتتزايل أخلاطُه ، وتنحلّ عُقَده ، ولا يعتريه من الخواطر إلاّ ما يزيده في دائه ، ولا يسمع من جليسه إلاّ ما يكون مادّة لفساده ، وعلى أنّه ربّما استُفرغ حتّى لا يسمع ، واحترق حتّى لا يفهم .

ولولا أنّ الشيطان يريد أن لا يخلو من عمله ، ولا يُقصّر في عادته ، لَما وسوس إلى الغضبان ولا زيّن له ، ولما أغراه ولا فتح عليه ؛ إذ كان قد كفاه ، وبلغ أقصى مُناه .

وليس يُصارع الغضبَ أيّام شبابه وغَرْب نابه شيءٌ إلاّ صرعه ، ولا يُنازعه قبلَ انتهائه وإدبارِه شيءٌ إلاّ قهره . وإنّما يُحتال له قبلَ هَيْجه ، ويُتوثّق منه قبلَ حركته ، ويُتقدَّم في حسم أسبابه وفي قطع عِلَله . فأمّا إذا تمكّن واستفحل ، وأذكى نارَه واشتعل ، ثمّ لاقى ذلك من صاحبه قدرةً ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو سَعَطْتَه بالتوراة ، ووجَرْتَه بالإنجيل ، ولَدَدْتَه بالزَبور [1] ، وأفرغتَ على رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيتَه بآدم عليه السلامُ شفيعاً – لَما قصّر دون أقصى قوّته ، وليتمنّى أن يُعار أضعافَ قدرته .

وقد جاء في الأثر : أنّ أقربَ ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب .

---

(١) سعطه الدواء : ادخله في أنفه ، وأوجره الدواء : أدخله في فمه بالمِجر ، ولدّه باللدود : صبّه بالمُسْعُط في أحد شقّي الفم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال قتادة : ليس يُسكِن الغضبَ إلاّ ذِكْرُ غضب الرحمن عزّ وجلّ .
وقال عمرو بن عُبيد : ذكرُ غضب الربّ يمنع من الغضب ، إلاّ أن يريد الذكر باللسان ".[١]

فالغضب جمرٌ تُؤثّر في عقل الغضبان ، ونارٌ تحترق بها نفسُه ، وداء يفتك ببدنه . وللغضب أطوار كأطوار الكائن الحيّ ، وهو أقوى ما يكون في شبابه ؛ إذ يصير عندئذٍ كالوحش ذي الأنياب الحادّة ، الذي لا سبيل إليه متى هاج ، إلاّ أنْ يُحترس له بشدّ وَثاقه في حال سكونه . وليس له من علاج متى استَفحل حتّى لو رُقِي صاحبه بخلاصة ما في كتب الله من هداية وسكينة ، ولا يُرتجى للغضبان التوقّفُ دون الغاية ولو جيء بآدم أبي البشر شفيعاً عنده .

ويصوّر الجاحظ ما يجده الإنسان من مشقّةٍ وكَرْب شديدَين في كتمان الأسرار ، وستر الأخبار ؛ فيقول : " وكانت مزاولةُ الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مجاذبةِ الطباع ؛ فلاعتراه [أي الإنسان] الكربُ لكتمان السرّ ، وغشيه لذلك سُقم وكَمَدٌ يُحسّ به في سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكّة الجَرب ، ومثلِ لسع الدَّبْر ، ووخز الأشافي [٢]، على قدْر اختلاف مقادير الحُلوم والرزانة والخِفّة . فإذا باح بسرّه ، فكأنّه أُنشط من عِقال " [٣].

ثمّ يحذّر من إفشاء السرّ ، ويصوّر سوءَ عاقبة من يبوح بسرّه لغيره ، فينتشر حتّى يتداوله الناس . ويرى أنّه أحقّ باللّوم من الذي ائتُمن عليه فلم يحفظه ؛ " لأنّه كان مالكاً لسرّه ، فأطلق عِقاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قَيْده ووَثاقه ، وصار هو العبدَ القِنّ المملوك لمن ائتمنه على سرّه ، وملّكه رِقّ رقبته ؛ فإن شاء أحسن مَلَكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيتَه ، وجعله رهينةَ ليوم عَتْبه عليه ... . وإنْ أساء المَلَكة وختر الأمانة فأطلق السرَّ واسترعاه مَنْ هو أشدّ له إضاعةً ، فسَفك الدَّمَ وأزال النِّعَم وكشف العَوْرة وفرّق بين الجميع . وإن كان المضيّعُ لسرّه ألْوَمَ ؛ فَمنْ أسوأُ حالاً ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، مّمن كان حرّاً مالكاً لنفسه ، فصيّر نفسَه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً للرِّقّ ، من غير أسْرٍ ولا قَسْر والعبيدُ لم يصبروا على الرِّقّ إلاّ بِذُلّ الأسْر والسِّباء ".[٤]

---

(١) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ .
(٢) جمع الإشفى ؛ وهو المثقب يُخرز به .
(٣) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي النصّ الأوّل يمثّل الجاحظ لما يعانيه مُحتمِل السرّ من ألم نفسيّ يدفعه إلى إفشائه ، بدبيب النمل وحِكّة الجرب ولَسْع النحل ووَخْز المثاقب ، ويشبّه صاحبَ السرّ بعد إذاعته بالبعير وقد رُفع عنه عِقالُه فشعر بالراحة والحرّيّة . وفي النصّ الثاني يصوّر مَنْ يبوح بسرّه بعد كتمانه ، ويأتمن عليه غيرَه ، بالحُرّ الذي يُملّك نفسَه لغيره بإرادته ، فيُصيّر نفسَه عبداً تحت رحمة سيّده الذي أفضى إليه بسرّه ؛ إن شاء أحسن ملكته ، وإن شاء أساءها . ويتخلّل هذا المثلَ مجموعةٌ من الاستعارات والكنايات ؛ كقوله : " أطلق عقاله [أي السرّ] " ؛ فشبّه السرّ – بعد إذاعته – بالبعير المعقول يُطلَق من عِقاله ، وكذلك في قوله : " وسرّحه فأفلتَ من قيده ووَثاقه " . وفي قوله : " وفتح أقفاله " ، شبّه إفشاء السرّ بفتح القُفل . وأمّا قوله : " جَزّ ناصيته " ففيه كنايةٌ عن إخفاء السرّ وستره إلى حين .

والملاحَظ فيما يخصّ تلك الصورَ – عند الجاحظ – أنّها في غالبيّتها تنحو منحى حسيّاً ؛ بمعنى أنّها تجسّد المفاهيم والمعاني المجرّدة في تمثيلات ماديّة محسوسة . والهدفُ من ذلك – فيما يبدو – هو تبسيط تلك المعاني وتقريبها من فهم القارئ ، ومضاعفةُ أثرها في نفسه ؛ إذ إنّ أثر المحسوس أبلغ في النفس وأعمق من أثر المُجرَّد . يقول الجاحظ في سياق تفصيله أنواعَ الذنوب التي ربّما يقترفها خُلطاء صاحب السلطان في حقّه ، ودرجاتِها ، وما تستحقّ من العقوبات وَفقاً لذلك ، في خطاب موجَّهٍ إلى الزيّات وإلى كلّ صاحب سلطان : " وإذا أردتَ أنْ تعرف مقدار الذنب إليك ، مِنْ مقدار عقابك عليه ، فانظرْ في علّته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نَجَم ، وعشّه الذي منه دَرَج ، ومغرِسه الذي منه نبت " [١].

ومن المُلاحظ – أيضاً – أنّ الجاحظ في بنائه تلك الصورَ الحسيّةَ يستمدّ عناصره من البيئة الماديّة المألوفة لمجتمع عصره ؛ حتّى يسهّل التواصل بينه وبينهم ، ويبلغَ بها ما يريد من وضوح في عقولهم وتأثير في نفوسهم . يقول في وصف العقل عندما يُزايله الغضبُ وينفكّ عنه ، وقبل ذلك عندما كان يستحوذ عليه ويستبدّ به : " وما أشكّ أنّ العقل حين يُطلَق من إساره كالمقيّد حين يُفكّ من قيوده ؛ يمشي كالطريف ، ويحجِل كالغراب . فإذا وجب عليك أنْ تحذَر على عقلك مخامرةَ داء الغضب بعد تخلّصه ، وأن تتعهّده بالعلاج [٢] بعد مباينته له وتخلّصه من يده ، فما ظنّك به وهو أسير في ملكه ، وصريع تحت كَلْكَله ، وقد غطّه في بحره ، وغمره بفضل قوّته " [٣].

---

(١) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٣٧ .

(٢) في الأصل " تتعمّده " ، ويبدو أنه خطأ طباعة .

(٣) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمثلة المعبّرة بوضوح عن مَيْل الجاحظ إلى اعتماد لغة أدبيّة إنشائيّة مجازيّة في بسط معانيه الأخلاقيّة ، والاستكثارِ من الصور الحسيّة المستقاة عناصرُها من البيئة المادّيّة المألوفة لتجسيد تلك المعاني وتقريبها — ما نُلفيه في الفِقرة التالية من رسالته " فصل ما بين العداوة والحسد " ، التي يصوّر فيها ببراعةٍ لوناً خبيثاً ماكراً من ألوان الحسد ؛ حيث يقول : " والحاسدُ العارف الذي فيه تقيّة ، ومعه مُسْكة ، وبه طعمٌ [عقل] أو حياة ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفّح أوراقه ، ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصرَه ، وراجع فكره ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته وجُلَسائه مِن التثبُّت والتأنّي حِيالةً يقتنص بها قلوبَهم ، وسبباً يسترعي به ألبابَهم ، وسلّماً يرتقي به إلى مراده منهم ، وبِساطاً يفرش عليه مصارعَ الخُدَع . فيُوهم به القصدَ إلى الحقّ ، والاجتباء له . فربّما استرعى بهذه المَخايِلِ والخُدَع قلبَ السيّد الحازم " (١)

وما نُلفيه — أيضاً — في هذه الفقرة من رسالة " النَّبْل والتَّنبُّل وذمّ الكِبْر " ، في سياق إزرائه على المتكبّر ، وإنكار استحقاقه للسّيادة ، ونفي إمكان ظفره في الحروب ؛ بسبب استهانته بعدوّه وفَرْط ثقته بقوّته ؛ يقول : " وما رأيتُ عظيم الكِبْر صاحبَ حربٍ إلاّ كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً . ولا يشعر حتّى يكون عدوّه عنده . وخصمُه فيما يغلب عليه أسمعُ من فرس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذرُ من عَقْعَق ، وأشدّ إقداماً من الأسد ، وأوثب من فَهْد ، وأحقد من حَمَل ، وأروغُ من ثعلب ، وأغدر من ذئب ، وأسخى من لافظة ، وأشحّ من صبيّ ، وأجمع من ذرّة ، وأحرص من كلب ، وأصبر من ضَبّ ؛ فإنّ النفس إنّما تسمح بالعناية على قدْر الحاجة ، وتتحفّظ على قدْر الخوف ، وتطلب على قدر الطّمَع ، وتطمع على قدر السّبب " (٢).

فقد أخذ الجاحظ من كلّ حيوانٍ — معروف في بيئته — أغلبَ الخِصال عليه ، وأشدَّها رسوخاً في طبعه ، وجعلها طرَفاً في تشبيه تمثيليّ للدّلالة على ما يوازي تلك الخَصلةَ من أخلاق الخَصْم ؛ إظهاراً لها ، وتقريباً من تصوّر القارئ . ولكنّه قد يُؤخذ على تلك الصور أنّها — أحياناً — تأتي مقتضَبةً ومرصوفة إلى جوار بعضها في بناء مفتوح من المعطوفات ، يفتقر إلى كثير من روابط الوَحدة العضويّة التي من شأنها أن تشدّ طائفةً من العناصر المختلفة ، لِتَأتلِفَ في إطارٍ موحَّد ، وتشكّلَ صورة فنيّة متّسقة ومتكاملة . ويمكن أن نمثّل على هذا المأخذ بقوله الذي استشهدنا به فيما سبق : " وغَشيه لذلك [كتمان السرّ] سقمٌ وكَمَد يحسّ به في سويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبْر ، ووخز الأشافي " . وكما في النصّ الذي تلاه : " وأظهرَ عند السيّد الذي هو بحضرته وجُلسائه

---

(١) فصل ما بين العداوة والحسد ، ج١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) النبل والتنبل وذمّ الكبر ، في الرسائل ، ج٤ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من التثبُّت والتأنّي حِبالةً يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعي بـه ألبابَهم ، وسُلّماً يرتقي به إلى مُـراده منهم ، وبساطاً يفترش عليه مصارع الخُدَع " .

على أنّ الجاحظ – مع هذا – يبدو حريصاً على أن تتّضح دلالات المصطلحات الأخلاقيّة التي يستخدمها ، وتتميّز من بعضها في ذهن القارئ – وإن كانت عنايته متّجهة في أكثر الأحيـان نحو الجانب المجسَّد المحسوس من المفهوم ، والذي يمكن توظيف الأساليب البلاغيّة التي يُجيدها في تَجْليته وتصويره ، على حساب الجانب المفهوميّ المجرّد للمصطلح . ولعلّ هذا راجع إلى اهتمام الجاحظ – في الأساس – بالبُعد التطبيقيّ للأخلاق في الواقع العمليّ ، دون البعد التصوّريّ المَحْض – وسبيلُه في هذا الإيضاح المقابلةُ بين الألفاظ المتضادّة ، وإبرازُ الفوارق بين الألفاظ المشتبهة التي يمكن أن يقع بينها لَبْس . فتجده يفرّق بين " الرَّيْث " و " الأناة " ، وبين " العجلة " و " انتهاز الفرصة " ؛ بعدّه الأناة وانتهاز الفرصة خلُقين محمودين ، وعدّه الرَّيثَ والعجلة خلُقتين مذمومين [١]. وهذا التّمييز ، مع أنّه يساهم في إلقاء بعض الضَّوء على مؤدّى اللفظ ، ويساعد في تكوين فكرة عنه ، إلاّ أنّه يبدو من الصعب الاعتمادُ عليه في استخلاص تعريفٍ اصطلاحيّ شاملٍ له .

ويبلغ الجاحظ الذّروة في تأكيد ضرورة تحرّي الدقّة في استخدام الألفاظ ذات الدلالات الخلقيّة ، والالتفات إلى الفروقات المعنويّة اللّطيفة بينها – في قوله : " وربُّت كلمةٍ لا تُوضع إلاّ على معناها الذي جُعلت حظَّه ، وصارت هي حقّه والدالّة عليه دون غيره ؛ كالحزم والعلم ، والحِلْم والرِّفق ، والأناة والمداراة ، والقصد والعدل ، وكالانتهاز والاهتبال ، وكاليأس والأمل ، وكالخُرْق والعَجلة ، والمداهنة والتسرّع ، والغلوّ والتقصير . وربُّت كلمة تدور مع خُلّتها ، وتتقلّب مع جارحة ، وإزاءَ صاحبتها ، وعلى قَدْرِ ما تُقابل من الحالات ، وتُلاقي من الأسباب ؛ كالحُبّ والبُغض ، والغضب والرّضا ، والعَزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدّ والفتور " [٢]

١) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .
٢) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: تضمين الأحاديث الخلقية ألواناً شتى من معارف العصر:

لا تجد الجاحظَ في تناوله موضوعاتِ الأخلاق متعالياً على الواقع المعيش ، بل إنّه ينزل إلى ساحته ويغرف منه لبّ مادّته ؛ فتجده يشحن أحاديثه في الأخلاق بطائفة من المعارف الشعبيّة التي هي أقرب إلى الحياة اليوميّة لعامّة الناس ، منها إلى الحياة الخاصّة ؛ حياة النخبة المثقّفة . وهكذا كان الأدباء في كلّ عصر أقدرَ على تصوير الحياة الاجتماعيّة والشخصيّة وسَبْر أغوارها من جميع جوانبها : النفسيّة والأخلاقيّة وتعرُّف حالاتها الوجدانيّة من آلام ومسرّات ونقائصَ وأوهامٍ وأحلام وآمال — من الفلاسفة بلغتهم التجريديّة ونظَراتهم المثاليّة المتعاليّة . (١)

وقد أعان الجاحظَ على ذلك ثقافةٌ موسوعيّة متشعّبة ، تأخذ من كلّ فنّ بطرَف ، دون أن تزدري من ألوان المعرفة وصنوفها شيئاً ، مهما قلّ خطره في أعين الناس .(٢)

وللتّمثيل على هذه السّمة من سمات أسلوب الجاحظ أقتطف الفقرة التالية من رسالة " الجِدّ والهزْل " ، التي يصوّر فيها مقدار غيظ الزيّات منه وظلمِه له ، على سبيل الهزْل — يقول : " واللهِ لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلتُ بمر الباطل (كذا) ، ووردتُ الفظائع كلّها ، ونقضتُ الشروط بأسرها ، وأفسدتُ نتاجك ، وقتلتُ كلّ شِطرنجيّ لك ، ورفعت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروج كلّها حمى ، وكنتُ جُذام المُردان (٣) ، وبِرسام الأولاد ، ومَسختُ جميع الجواري في صورة أبي رملة ، ورَددتُ شَطاط خَلْقك إلى جُعودة أبي حنّة ، وكنتُ أوّل من سنّ بيع الرجال في النخّاسين ، وفتح باب الظُّلم لأصحاب المظالم ، وحوّلتُ إليك عقل أبي دينار ، وطُبعتُ على بيان مانويه ، وأعنتُ على موت المعتصم ، وغضبتُ لمصرع الأفشين ، واستحبتُ للديك الأبيض الأفرق ، وأحبتُ صالح ابنَ خنين ، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش ، وكان أبو الشمّاخ صديقي ، والفارسيُّ من شيعتي — لكان ما تركبني به سَرَفاً ، ولكنتَ في هذا العِتاب متعدّياً " (٤)

---

(١) انظر زكريا إبراهيم – مشكلة الإنسان ، الكتاب الثاني في مجموعة : مشكلات فلسفيّة ، ص ١٩٧ .

(٢) انظر حديثاً موجزاً عن سعة ثقافة الجاحظ في شارل بلا : أصالة الجاحظ ، ضمن كتاب الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ٣٧٦ وما بعدها .

(٣) في الأصل : صداق المرادين ، وأورد المحقّق في الحاشية قراءة هي أقرب إلى الصواب ؛ هكذا " جذم المردن " . وأظنّ ما أثبتُّه أليق بالسّياق ، وأشبه بالعبارات التالية .

(٤) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا قُلنا : إنّ الجاحظ كان يعبّر عن الثقافة العامّة أو الشعبيّة في مجتمعه ، فينبغي أن نتذكّر أنّ تلك الثقافةَ لم تكن بذلك المستوى المتهافِت الذي قد يُوحي به وصفُ : " عامّة " أو " شعبيّة " ؛ فلقد شاع في العصر الذي نحن بصدده جوٌّ علميّ مستنير متفتّح ، نشر أضواءه على غالبيّة الأوساط الاجتماعيّة في ذلك العصر ، الذي يُعَدّ بحقّ من أغنى العصور الإسلامية حضارةً وعلماً وأدباً ، وأشدّها خصوبةً وتزوعاً نحو المعرفة بشتّى صنوفها.

يقول الدكتور شوقي ضيف ، في نصّ طويل يصوّر فيه عِظَم اتّساع الثقافة في عصر الجاحظ وكثرةَ شيوعها بين شتّى طبقات المجتمع على اختلاف مستوياتها ، إذ زاد حظّ العامّة من الثقافة والعلوم في هذا العصر ، بما فيها تلك العلوم الخاصّة التي ربّما كانت فيما سبق دُوْلةً بين جماعات بأعيانها من العلماء ؛ كعلوم الدين واللغة وحتّى الفلسفة . كما يُشير إلى مساهمة الجاحظ نفسه في تذليل ألوان من فنون الأدب ، وجعلها في متناوَل عامّة الناس – يقول : " ويبدو أنّ الشّغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصّة من العلماء ومَنْ يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصّصين ؛ بل كان حظّاً مشتركاً بين الطبقات العامّة ؛ إذ كان العلم مطروحاً في المساجد مُباحاً للجميع ، وكذلك في المكتبات العامّة ، ولم يكن هناك كتابٌ طريف إلاّ وتَعرضه دكاكين الورّاقين . ويدلّ على ذلك أكبرَ الدلالة أنّ مَنْ يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامّة ، وتصور ذلك ألقابُهم ؛ مثل : الحدّاد والخزّار والقواريريّ والتمّار والقوّاس والنبّال والقلاّل والعطّار والطرّز.وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ في رسالته " الردّ على النصارى " يشكو من مناقشة العامّة للملحدين والزنادقة في آرائهم الضالّة ؛ لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفنّدها من الأدلّة السّاطعة ، حتّى لَيقول : " ومِن البلاء أنّ كلّ إنسان من المسلمين يرى أنّه متكلّم ، وأنّه ليس أحدٌ أحقّ بمحاجّة الملحدين من أحد " [١] ، وكأنّ كلّ فرد من أفراد العامّة لعصره كان يظنّ نفسَه نال حظّاً أو حظوظاً من مناهج المتكلّمين في جدال أصحاب المِلل والنّحل الضالّة . وظاهرةٌ ثانية تدلّ على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمّة بلا استثناء ؛ إذ نرى من النساء من يختلفْنَ إلى حلقات المتكلّمين [٢] والفقهاء وغيرهم .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمارَ اشتراك الطبقة الشعبيّة العامّة في العلم والثقافة ، فقد كانت هناك ثمرةٌ مهمّة غايةَ الأهميّة ؛ هي محاولة أن يصبح العلم شعبيّاً ، بحيث لا يعلو على أفهام العامّة ،

---

(١) رسالة الردّ على النصارى ، في الرسائل ، ج٣ ، ص٣٢٠ .

(٢) يُحيل المؤلّف على ترجمة الأشعريّ في ابن خلّكان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها . ويتّضح ذلك عند الجاحظ في كتابيه " البيان والتبيين " و " الحيوان " ، وعند ابن قتيبة في كتابه " عيون الأخبار " . ومرّ بنا أنّ الجاحظ أراد بكتابه " البيان والتبيين " أن يردّ على الشعوبيّة ردّاً مفحماً ببيان ما تحمله الثقافة العربيّة في الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغيّة رائعة ، ونضيف هنا أنّه أراد أن يذلّل هذه الثقافة بعرضها في أسلوب عصريّ يقرّبها من أفهام العامّة بحيث تُسيغها بدون أيّ عُسْر أو مشقّة . وبَوْنٌ بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويّين من أمثال الأصمعيّ وأبي عبيدة وأبي زيد وعرضِها عند الجاحظ في " البيان والتبيين " ؛ فهي عند الأوّلين جافّة جفافاً شديداً ، ولا يستطيع غير المتخصّصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة ؛ أمّا في " البيان والتبيين " فعذبةٌ سائغةٌ ، لا للطّبقة الوُسطى من المثقّفين فقط ، بل أيضاً للطبقة الشعبيّة الدنيا . وبالمثل عرضُه لهذه الثقافة في كتابه الثاني ؛ " الحيوان " ... . وهو لا يقرّب هذا العلمَ من العامّة وحدَه ؛ بل يقرّب أيضاً علم الكلام ونظريّات أصحابه من المعتزلة أمثال النظّام ؛ بل أدقّ الدقائق من هذه النظريّات وما حملتْ من براهينَ عقليّةٍ سديدة ، وكأنّما كان يريد للعامّة أن تتمثّل هذه البراهين ؛ حتّى تتسلّح عقليّاً في مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب المِلَل وخاصّة النصارى كما أسلفنا منذ قليل ... ".(١)

والجاحظ – بوصفه أديباً واقعيّاً (٢) – كان حريصاً على أن يعكس هذا الجوّ بكلّ ملامحه وخصائصه ؛ فتراه – لذلك – لا يُخلي أحاديثه في الأخلاق – وفي غيرها – من مصطلحات علميّة متخصّصة ، ولكنّها أصبحت شائعةً بين كثيرٍ من الناس في عصره ؛ كهذه المجموعة من المصطلحات الفقهيّة – الحقوقيّة التي يضمّنها قوله ، وهو يصف فظاعة العقوبة التي يريد أن يُوقعها بـه الزيّات ، ويصور مقدار ما فيها من جَوْر وتعدٍ ، في مزيج من الجِدّ والهَزْل : " وما ينبغي أن يكون هذا المقدار من النِّقَم إلاّ لباري النَّسَم في دار البقاء ، لا في دار الفناء . والذي يجوز بين العِباد إنّما هو تعزيرٌ أو حدّ ، أو قَوَد أو قصاص ، أو حبس أو تغريب ، أو إغرام أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ، أو عقابٌ يجمع الألَمَ والتقويم والتنكيل ؛ فيكون مَضَضُ الألم جزاءً له ، ومعدّلاً أسبابَه " (٣)

وانظر إليه كيف يفصّل كلامه على الغضب بجملةٍ من الإشارات التاريخيّة والدينيّة واللغويّة ، في قوله : " ولا تُنكرْ لنفسك أن تزلّ ، ولعقلك أن يهفو ؛ فقد زلّ آدمُ – عليه السلامُ – وهفا ، وعصى ربّه وغوى ، وغرّه عدوّه وخدعه خصمُه ، وعِيب باختلال عَزْمه وسكونِ قلبه إلى خلاف ثقته . هذا

---

(١) شوقي ضيف – العصر العباسيّ الثاني ، ص ١٢٧ – ١٢٩ .

(٢) انظر شارل بلا – الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ٣٥٣ ؛ إذ يُسبغ على بيئة البصرة كلّها ، وما أثمرته من نتاج فكريّ ، صفة الواقعيّة ، وانظر كذلك شوقي ضيف : الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ ، ص ١٦٢ – ١٦٦ ، وما قلناه عن نزعة الجاحظ الواقعيّة في هذا البحث ، الفصل الأول ص ٥٠ وما بعدها .

(٣) الجِدّ والهزل ، ص ٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمْنه ، وأسجَد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجتَه ، وعلّمه جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن يعلّمه الاسم ويدَعَ المعنى ، ويعلّمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسمُ بلا معنى لَغْوٌ ؛ كالظّرْف الخالي . والأسماءُ في معنى الأبدان ، والمعاني في معنى الأرواح : اللفظ للمعنى بَدَنٌ ، والمعنى للّفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حسّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده ".[1]

ثمّ يصوغ ذلك كلّه في سياق أدبيّ غير مباشر ، وكأنّ تلك المعلومات ليست هي المقصودةَ بالحديث ، وإنّما جاءت في عُرضه ، مستغلاً في ذلك قدرتَه الفائقة على اختيار الألفاظ والمسمّيات التي تخدم الغرض وتناسب السّياق ، وبراعتَه في المساواة الدقيقة بين الجُمل ، وحرصَه على الوفاء بالمعايير الفنيّة كافّةً للنصّ الأدبيّ في عصره .

---

(١) الجِدّ والهزْل ، ص ٢٦٢ ، وتتّصل مسألة اللفظ والمعنى في الصفحة التالية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : الدقة في اختيار الألفاظ الدالة على المعاني الأخلاقية :

أشرنا فيما سبق [١] إلى حرص الجاحظ على تحرّي الدقّة في استخدام الصطلحات الخلقيّة والتميز بين دلالاتها المختلفة ، خاصّة ما كان منها عُرضة للخلط والالتباس ، بسبب انتمائها إلى أصل خلقيّ واحد أو مصدر شعوريّ مشترك ؛ كالجُود والسَّرَف ، والاقتصاد والبخل ... . وفي ذلك يقول : " كما أنّ السَّرَف اسمٌ لما زاد على المقدار الذي يُسمّى جُوداً ، والبخلَ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذي يُسمّى اقتصاداً ، والجُبنَ اسمٌ لما قصّر عن المقدار الذي يُسمّى شجاعة " [٢] وسنأخذ الآن في تفصيل هذا الحرص عنده باعتباره سمةً أسلوبيّة تطبع تناوله للأخلاق بطابع خاصّ . ولا غرو في ميل الجاحظ نحو الدقّة في التعبير ؛ فإنّه نابعٌ أصلاً من دقّته في التصوّر والتفكير ، التي يُمليها عليه مِزاجه الاعتزاليّ العقليّ الصارم ، الذي لا يقبل الخلط أو الاضطراب أو التّعْمِية ؛ وإنّما يسعى إلى الوضوح والتحديد وإصابة الشّاكلة .

وقد صرّح الجاحظ في بداية كتابه " البيان والتبيين " بعنايته بهذه الفروق الدقيقة بين ألفاظ اللغة في شتّى حقولها الدلاليّة ، عندما أخذ على كثير من الناس خلطَهم في الاستعمال بين ألفاظ مختلفة في معانيها ، وإن كانت تبدو في الظاهر مترادفة ؛ كالمطر والغيث ، والجوع والسّغَب ... ؛ وذلك في قوله : " وقد يستخفّ الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرُها أحقّ بذلك منها . ألا ترى أنّ الله - تبارك وتعالى - لم يذكر في القرآن الجوعَ إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المُدقِع والعجز الظّاهر . والناسُ لا يذكرون السّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسّلامة . وكذلك ذِكْر المطر ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام . والعامّةُ وأكثر الخاصّة لا يفصلون بين ذِكْر المطر وبين ذكر الغيث " . [٣]

ومن أمثلة ذلك في موضوع الأخلاق تمييزُه بين خلقي التواني والتوكّل ؛ فيبيّن أنّ التوكّل إنّما يكون بعد استنفاد الأسباب واستيفاء جميع الوسائل المُتاحة ، وإلاّ فإنّه من التواني المذموم . يقول الجاحظ : " واحذرْ كلّ الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم ؛ فيمثّل لك التوانيَ في صورة التوكّل ، ويسلبك الحذر ، ويُورثك الهُوَينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنّ الله إنّما أمر بالتوكّل عند انقطاع الحِيَل ،

---

(١) راجع ص ١٠٠ من هذا الفصل .

(٢) رسالة النساء ، في الرسائل ، ج٣ ، ١٤٠ .

(٣) الجاحظ - البيان والتّبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١ ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزل كتابه ، وأمضى سنّته ، فقال : " خُذُوا حِذْرَكُم " [١] ، " ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلى التَّهْلُكَة " [٢]. وقولُ النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – : " اعقِلْها وتوكّلْ "[٣] ، وسُئل : ما الحزم ؟ فقال : الحذر . فتحفّظْ من هذا الباب ، وأحكِمْ معرفته إن شاء الله تعالى ".[٤]

ويعتني الجاحظ عناية خاصّة بالتمييز بين مفهوم " الحبّ " – الذي يدلّ على خبرة يمكن عدُّها " من أهمّ الخبرات الخلقيّة ، وأخطرها في حياة الإنسان " [٥] ، وأعصاها على التعريف ؛ لكثرة صورها وأنماطها وما يمكن أن يشتبه بها من تجاربَ وجدانيّةٍ أخرى [٦] – وبين غيره من المفاهيم التي قد تلتبس به ؛ كالعشق مثلاً ؛ إذ يُؤكّد – في غير موضع – أنّ " العشق اسمٌ لما فَضَل عن المقدار الذي اسمه حبّ . وليس كلّ حبّ يُسمّى عشقاً ؛ وإنّما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار " [٧] وهذا الفاضل عن مقدار الحبّ إنّما هو " الهوى " مضافاً إليه " المشاكلةُ " ، ثمّ " الإلف " الذي يعقِد العشق ويرسّخه ؛ وهكذا ، فإنّ العشق يتركّب – في النهاية – من اجتماع الحبّ والهوى ومشاكلة طبيعة الفحول لطبيعة الإناث [٨] ، ويثبت بالإلف والمواظبة . ولذلك كان اسم الحبّ غيرَ كافٍ للدلالة على معنى العشق ؛ " لأنّه قد يُقال : إنّ المرء يحبّ الله ، وإنّ الله – جلّ وعزّ – يحبّ المؤمن ، وإنّ الرجل يحبّ ولده ، والولد يحبّ والده ويحبّ صديقه وبلده وقومه ، ويحبّ على أيّ جهة يريد . ولا يُسمَّى ذلك عشقاً " [٩] . والأصلُ في لفظ العشق – كما يقرّر الجاحظ – أنّه يُستخدم لوصف هذا المركّب الشعوريّ الذي يسري بين الرجال والنساء ، ولكنّه – مع ذلك – ربّما استُخدم للتعبير عن المبالغة في حبّ أشياء أخرى كالرزق والشّرف ، على سبيل التوسّع أو استبدال بعض الألفاظ ببعض تنويهاً بها وتفضيلاً لها ؛ فقد رُوي عن عروة بنِ الزّبير قولُه : " والله إنّي لأعشق الشّرَف كما

---

(١) النساء ، من الآية ٧١ .

(٢) البقرة ، من الآية ١٩٥ .

(٣) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ . ورواه الطبراني " قيّدها وتوكّل " ، أسنى المطالب لمحمد بن درويش البيروتي ، ص ٤٤ ، انظر المعاش والمعاد ، ص ١١٢ ، حاشية رقم ٢ .

(٤) المعاش والمعاد ، ص ١١١ – ١١٢ .

(٥) زكريا إبراهيم – المشكلة الخلقيّة ، الكتاب السادس في سلسلة : مشكلات فلسفيّة ، ص ٢٣٨ .

(٦) زكريا إبراهيم – مشكلة الحبّ ، ص ١٣ – ١٤ ، وانظر الأبواب ؛ الأوّل : أشباه الحبّ ، والثاني : أشكال الحبّ ، والثالث : أنماط الحبّ .

(٧) رسالة النساء ، ج٣ ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ، وقابلْ بالقيان ، ج٢ ، ص ١٦٧ .

(٨) القيان ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

(٩) القيان ، ص ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تُعشق المرأة الحسناء " ، وقال بعضهم في وصف رجلٍ محروم منحوس الحظّ : " ما رأيتُ أحداً عَشِق الرزق عِشْقَه ، ولا أبغضه الرزقُ بُغْضَه ! "(١)

هذا ، وقد أفرد الجاحظ رسالةً بتمامها للتفريق بين خلُقين مشتبهين كثُر غلط الناس فيهما ؛ وهما : " النّبل " ، و " التّنبُّل " وما يخالطه من كِبْر وتعظُّم : فبيّن أنّ النُّبل لا يكون بالتكلُّف ولا بإيهام النفس به ، دون أن يكون المرء قد حصّل أسبابَه ، وشهد له الناس به (٢) . ومَنْ كان نبيلاً حقّاً فإنّه لا يتكلّف النبل ؛ لأنّ " النبيل يكفيه نبلُه عن التنبّل . . . . ولم يتزيّد أحدٌ قطّ إلاّ لنقصٍ يجده في نفسه ، ولا تطاول متطاولٌ إلاّ لوهْنٍ أحسّ به في قوّته " (٣) . وليس النبلُ بالمطلب السّهل ؛ وإنّما هو غاية خلُقيّة رفيعة تجمع أشرف الخصال وأسنى القِيَم ؛ فإنّ " المروءة خَصْلة من خِصاله ، وبُعد الهمّة خَلّة من خِلاله ، وبهاء المنظر سببٌ من أسبابه ، وجزالة اللفظ شُعْبةٌ من شُعَبه ، والمقامات الكريمة طريقٌ من طُرُقه (٤) . والنبْلُ وإن كان يقتضي التأهّبَ له ، والأخذَ بأسبابه ، فإنّه يستلزم حُسْنَ التأتّي إليه ؛ ذلك أنّه شديد النِّفار ممّن يتعرّض له ويُلِحّ في طلبه ، كَلِفٌ بالمُدبِر عنه غيرِ المكترث له (٥) . ومن شروطه أن يكون المرء " نبيل الرأي ، نبيل اللفظ ، نبيل العقل ، نبيل الخلُق ، نبيل المنظر ، بعيد المذهب في التنزّه [التعفُّف والترفُّع] ، طاهر الثّوب من الفُحْش . إنْ وافق ذلك عِرقاً صالحاً ، ومجداً تالداً " (٦) . ومن تلك الشروط – أيضاً – " أن تتواضع لمن هو دونك ، وتُنصفَ من هو مثلك ، وتتنبّلَ على مَنْ هو فوقَك " . (٧)

وأمّا التّنبُّل والتكبّر فإنّهما على العكس من ذلك تماماً ؛ إذ " لم ترَ العيونُ ، ولا سمعت الآذان ، ولا توهّمت العقول عملاً اجتباه ذو عقْل ، أو اختاره ذو علم ، بأوْبَاً مغبّةً ، ولا أنكد عاقبة ، ولا أوخم مرعى ، ولا أبعد مهوى ، ولا أضرّ على دين ، ولا أفسد لِعِرض ، ولا أوجب لسخط الله ، ولا أدعى إلى مَقْت الناس ، ولا أبعدَ من الفلاح ، ولا أظهر نفوراً عن التوبة ، ولا أقلّ دَرَكاً عند الحقيقة ،

---

(١) انظر النصّين في رسالة النساء ، ص ١٤٠ .
(٢) النبل والتنبّل وذمّ الكبر ، الرسائل ، ج٤ ، ص ١٧١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧١ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٧٣
(٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا أنقض للطبيعة ، ولا أمنعَ من العِلْم ، ولا أشدّ خِلافاً على الحِلْم – مِنَ التكبُّر في غير موضعه ، والتنبُّل في غير كُنْهه " [١].

ويدلّ على شدّة لؤم هذا الخُلُق ما يلازمه من أخلاق ذميمة تشترك معه في الأصل الذي يصدر عنه ، والمعدن الذي ينجُم منه ؛ فإنّ " العُجْب شقيقه ، والبَذَخ صديقه ، والنَّفْج أليفه ، والصَّلَف عقيده [صاحبه وحليفه] . والبذّاخ متزيّد ، والنفّاج كذّاب ، والمتكبّر ظالم ، والمُعجب صغير النّفس " [٢]

والكِبْر سببٌ في عظائم الذنوب ، وسبيلٌ إلى مُوبِقات المعاصي ؛ فـ " عنه لجّ إبليس في الطُّغيان ، وعتا على ربّ العالمين ، وخطّأ ربّه في التدبير ، وتلقّى قوله بالردّ . ومن أجله استوجب السَّخطةَ ، وأُخرج من الجنّة ، وقيل له : " مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها ... " . [٣] وعن ذلك قتل الناسُ بعضُهم بعضاً ، وظلم القويّ الضعيف ، ومِنْ أجله أهلك الله الأُمم بالمَسْخ والرَّجْف ، وبالخَسْف وبالطُّوفان ، والرّيحِ العقيم ، وأدخلهم النار ، وأقْنَطهم من الخروج " [٤].

ومن الأساليب التي يتوسّلها الجاحظ – أحياناً – لتوضيح الفروقات اللّطيفة بين المصطلحات الأخلاقيّة التي هو بصدد مناقشتها – بالإضافة إلى ما درج عليه من الاستشهاد بالنصوص الدينيّة والأقوال المأثورة – [٥] استعارتُه نماذجَ إنسانيّة تاريخيّة مشخّصة لتلك الفروقات في مواقفَ معيّنةٍ من حياتها ؛ كما فعل عندما استوحى قصّة آدم – عليه السّلام – للتمييز بين طائفة من المفاهيم المشتبهة ؛ كالسّخط والمَوْجدة والغضب والعَتْب ، ثمّ الإشارة إلى وجود فرق بين هذه جميعاً وبين ما من أجله أخرج اللهُ – سبحانه – آدمَ من جنّته ؛ يقول في ذلك : " وليس كلّ عقاب نتيجةَ سخط ، وقد لا يُسمّى ذلك المُوقِع والمعاقِب واجداً كما يُسمّى ساخطاً ، ولا يُسمّى عاتباً كما يُسمّى غضبان ، فيخرج – كما ترى – مِنْ أنْ يُسمّى سُخطاً أو مَوْجِدة وغضباً ، كما خرج عقاب آدم – عليه السلام – من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنّه كان إخراجاً من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ، ومع ما في ذلك من إعراء الجِلد ، والتّسمية بالظُّلْم ، مع الوصف له بضعف العَزْم ، والاغترار بيمين الخَصْم " [٦]

---

(١) النبل والتنبّل وذمّ الكبر ، ص ١٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٣) من الآية ١٣ من سورة الأعراف ، ونصّها " قال : فاهبط منها ؛ فما يكون لك أن تتكبّر فيها " .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٥) انظر أمثلة على هذه النصوص ما أوردناه في سياق الكلام الآنف ، ص ١٠٥ – ١٠٦ من هذا الفصل .

(٦) الجِدّ والهَزْل ، ص ٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يستعين في تَجْلِية الفروق الدقيقة بين درجاتٍ متفاوتةٍ أو صور متباينة من الخُلُق الواحد أو فروعٍ متعدّدة ترجع إلى أصل قيميّ مشترك ، بما يرويه عن كبار اللغويين المشهورين في عصره ؛ كـهذه الرواية التي ينقلها عن أبي عبيدة في تفصيل الأسماء الدالّة على مستوياتِ الشّجاعة – يقول : " كمـا أنّ الرَّجُل إذا قاتل في الحرب وأقدم و لم يُحجِم فهو الشّجاع ، فإن زاد فهو البطل ، فإن زاد قالوا : بُهْمه ، فإن زاد قالوا : أَلْيَس " [1] وكما في قوله : " يُقال : فلان أحمقُ ، فإذا قالوا : مائق ، فليس يريـــدون ذلك المعنى بعينـــه ، وكذلك إذا قالوا : أَنُوك ، وكذلك إذا قالوا : رقيع . ويقولون : فـــلان سـليم الصّدر ، ثـــمّ يقولـــون : عَيِيّ ، ثمّ يقولـــون : أَبْلَه . وكذلك إذا قالـــوا : معتوهٌ ومسلوس وأشـــباهَ ذلك " [2].

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص ٢٩١ ، وقابله بما في البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٢٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامساً : توجيه الحديث إلى المتلقي بصيغة الخطاب المباشر :

ومن سمات أسلوب الجاحظ – خاصّة في مؤلفاته التي تتّخذ لون الوصايا الأخلاقيّة ؛ كرسالتي : " المعاش والمعاد " و " كتمان السرّ وحفظ اللسان " – توجيهُ الحديث إلى المتلقّي بصيغة الخطاب المباشر ، وهنا يتبدّى الجاحظ في زيّ المرشد الأخلاقيّ ، ولكنّ الإرشاد يأخذ عنده نمطاً مختلفاً عن ذلك النوع السّائد من الوعظ القائم على إلقاء النصائح الجاهزة وتدعيمها بكلّ أسباب الترغيب والترهيب ، دون احترام لعقول السامعين ؛ ولكنّه إرشادٌ مبنيّ على الحُجّة والبرهان العقليّين ، المشفوعَين بأدلّة من النصوص الدينيّة ، أو نتائج المشاهدات والتجارب العمليّة ، أو آراء ذوي الخبرة وأصحاب الاختصاص .

يقول – في معرض التفريق بين ما يصحّ في معاملة الصديق وما يصحّ في معاملة العدوّ – :" واعلمْ أنّ الذي تُعامل به صديقَك هو ضدُّ ما تعامل به عدوّك ؛ فالصديقُ وجه معاملته المسالمة ، والعدوّ وجه معاملته المداراة والمواربة . هما ضدّان يتنافيان ؛ يُفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلّما نقصتَ من أحد البابين زاد في صاحبه ؛ إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإن كثير فكثير . فلا تسلمُ بالمواربة صداقة ، ولا تظفر بالعدوّ مع الاستسلام إليه . فضع الثّقة موضعَها ، وأقم الحذر مُقامه ، وأسرعْ إلى التفهّم بالثّقة ، ولا تبادر إلى التصديق ، ولا سيّما بالمحال من الأمور ".[1]

ثمّ يضيف – مبيّناً أنواع الأخبار ، ومنازلها في الصدق والكذب ؛ حتّى يُقيم ما دعا إليه من " الحذر في التصديق " و الإسراع إلى التفهّم بالثّقة " على أصول واضحة – :

" واعلمْ أنّ كلّ علمٍ بغائب ، كائناً ما كان ، إنّما يُصاب من وجوه ثلاثة ، لا رابع لها ، ولا سبيل لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تهنأ بعيشٍ مع شدّة التحرّز ، ولن يتّسق لك أمرٌ مع التضييع . فاعرفْ أقدار ذلك :

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١١٨ – ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما غاب عنك مـــمّا قد رآه غيرك مّما يُدرَك بالعِيان ، فسبيل العلم به الأخبار المتواترة ، الـتي يحملها الوليّ والعدوّ ، والصالح والطالح ، المستفيضةُ في الناس ، فتلك لاكُلْفة على سامعها من العلـــم بتصديقها ، فهذا الوجه يستوي فيه العالمُ والجاهل .

وقد يجيء خبرٌ أخَصُّ من هذا ، إلاّ أنّه لا يُعرَف إلاّ بالسؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ؛ كقـــوم نقلوا خبراً ، ومثلُك يُحيط علمُه أنّ مثلهم – في تفاوت أحوالهم ؛ وتباعدهم من التعارف – لا يمكـــن في مثله التواطؤ ، وإنْ جهل ذلك أكثرُ الناس . وفي مثـــل هذا الخبر يمتنع الكذب ، ولا يتهيّأ الاتّفـــاق فيه على الباطل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا يحملـــه الرّجل والرجلان مـــمّن يجوز أن يصـــدُق ويجـــوز أن يكذِب ، فصِدْقُ هذا الخبر في قلبك إنّما هو بحُسْن الظنّ بالمُخبِر والثّقةِ بعدالته . ولن يقوم هذا الخبرُ من قلبك ولا قلب غيرك مقامَ الخبرين الأوّلين أبداً . . . .

فهذه الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأمّا العلمُ بما غاب مّما لا يدركه أحدٌ بعِيان ؛ مثل سرائر القلوب وما أشبهها ، فإنّما يُـــدرَك علمُها بآثار أفاعيلها وبالغالب من أمورها ، على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العِلْم بكلّ غائبٍ الظّنونُ ، والظّنون إنّما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلّما زاد الدليـــل قوي الظنّ ، حتّى ينتهي إلى غايةٍ تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، ولترادفها .

فهذا غايةُ علم العباد بالأمور الغائبة " [1]

يتبدّى أسلوب الخطاب المباشر في النصّ السابق بوساطة تلك الطّائفة من أفعال الأمر وصيـــغ النّهي المبثوثـــة في ثناياه ؛ (واعلـــمْ ، فضعْ ، وأقِمْ ، وأسرِعْ ، ولا تبـــادر ، فاعرف) ، وكذلـــك بوساطة ضمير المخاطَـــب الذي يغلب عليـــه ، ويبرز في معظـــم عباراتـــه ؛ (لا ســـبيل لـــكَ ولا

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١١٩ – ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لغيرك ... ، لن تهنأ [أنتَ] بعيش ... ، لن يتّسقَ لكَ ... ، فما غاب عنكَ مّما قد رآه غيرُكَ ... ، ومثلكَ يُحيط علمُه ...، ولن يقوم هذا الخبر من قلبكَ ولا قلب غيركَ ...)[1].

ولكنّ هذا النصّ ، وإنْ كان يحمل سمة الوصيّة الخلقيّة التي يتقمّص الجاحظ فيها شخصيّة المرشد النّاصح ، فإنّه لا يتوجّه بالإرشاد والنُّصح إلى تلك العواطف والمشاعر السّاذجة التي يحرّكها الترغيب والترهيب ، صنيعَ الوُعّاظ التقليديّين ؛ ولكنّه يُخاطب العقل الناضج المستنير الذي يتطلّع إلى تحصيل معرفة خلقيّة تقوم على أساسٍ علميّ متماسك ؛ ولذلك وجدنا الجاحظ لم يكتفِ بإلقاء النصيحة إلى القارئ بأن يُعامِل صديقه بعكس ما يُعامل به عدّوه ، حتّى أتبَعها ببيان السّبب ؛ وهو أنّ الصداقة والعداوة ضدّان في طبيعتهما ؛ ولذلك كان ما ينفع في معاملة الأصدقاء هو ضدّ ما ينفع في معاملة الأعداء ؛ فأساسُ معاملات الأصدقاء : الثّقة والمسالَمة ، بينما اساسُ معاملات الأعداء : المداراة والمواربة والحذر . ولكي يعرف المرء مواضع الثّقة من مواضع الحذر كان لا بدّ له من التمييز بين ما يُلقَى عليه من أخبار صادقة وأخرى كاذبة ، وأنْ يكون عنده المعيارُ العقليّ الذي يحكّمه فيها لِيُنزلها منازلها من الصدق والكذب ؛ حتّى يثق بالصادق منها ويحذر الكاذب . وهنا يشرع الجاحظ في شرح ذلك المعيار وتفصيل تلك المنازل في تسلسل منطقيّ ومنهجيّة علميّة مُحكَمة ، هي ذاتها منهجيّة علماء الحديث في عصره ؛ وذلك على النحو التالي :

أوّلاً : ما يغيب عن الإنسان ممّا قد رآه غيره ؛ كالحوادث التي وقعت في الماضي أو في بعض الأماكن النازحة ، فإنّه يُعرَف من الطّرق التالية :

١ – الأخبار المتواترة المستفيضة في الناس ، وهي صحيحة يقيناً ، وواجبة التصديق .

٢ – الخبر المحصور في جماعة من الناس ، وهو أخصُّ من الأوّل . فإنْ عُلِم أنّه من غير الممكن لحامليه أن يتواطؤوا على الكذب ، فإنّ هذا الخبر أيضاً صادق ويقينيّ .

٣ – خبر الواحد ، وهو ما ينقله الرجل والرجلان . فهذا يتوقّف التّصديق به على مقدار الثّقة بحامله والائتمان له ، ولا يقوم في الصدور مقام الخبرين الأوّلين ؛ لأنّه مبنيّ على حُسْن الظنّ ، أمّا الخبران الأوّلان فمبنيّان على اليقين الموضوعيّ .

ثانياً : ما يغيب عن الإنسان ممّا لا يُدرَك بالعِيان ؛ كأسرار القلوب . فهذه يُنال علمُها بمراقبة آثارها الظاهرة ، وتتبّع الغالب من أمورها ، ولا يبلغ العلم بها حدّ الإحاطة ، كإحاطة الله . كما أنّ

---

(١) يشيع هذان الملمحان بشكل واضح – يُعفي من كثرة التمثيل – في رسالتي : (المعاش والمعاد) و (كتمان السرّ وحفظ اللسان) ؛ إذ فيهما مَيْلٌ واضح إلى الخطاب المباشر ، وكذلك فيما بلّغنا من رسالة (البيان والتبيّن وذمّ الكِبْر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلم بها يبدأ بالظنّ ، ثمّ لا يزال الظنّ ينمو كلّما ترادفت الدلائلُ وتظـــاهرتْ ، إلى أن تـــزول عنـــه الشكوكُ . ولا سبيل غير هذا لإدراكها .

فتأمّلْ كيف فسح الجاحظ في هذه الوصيّة الأخلاقيّة مجالاً واسعاً لنوعٍ من المعرفـــة العقليّـــة ، تطلّبتها تلك الوصيّة ؛ وهي المعرفة بطرق الأخبار ومراتب صحّتها ، مّما قد لا نقع على مثله في موعظة أو وصيّة تقليديّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادساً : الاستقصاء والتتبع :

من سمات أسلوب الجاحظ في تعاطيه للأخلاق [١] أنه يدأب على استقصاء المسألة التي يطرحها من جميع أطرافها ، والاسترسالِ مع جزئيّاتها كافّةً ، ومطاردةِ شـواردها ، والتعمّـق إلى لطائفـها ؛ بعبارات دقيقة مستوفية للمعاني ، وسَلِسَة ليس فيها أثرٌ للغموض أو التعقيد كالذي قد نجده عند بعـض المنظّرين للأخلاق إذا دقّت نواحي المسألة التي يخوضون فيها وعُسرت مداخُلها . يقول مصرّحاً بهـذه النزاعة الاستقصائيّـة ، في أوّل رسالـة " المعاش والمعاد " ، في سيـاق شرح المنهج الذي سيسـلكه فيها : " غيرَ راضٍ لك بالأصول ، حتى أتقصّى لك ما بلغه علمي من الفروع " [٢] . والأمثلةُ على هذه السّمة عند الجاحظ ، في أحاديثه عن الأخلاق كثيرةٌ ومتنوّعة . ولعل أكثرها وضوحاً وتعبيراً عنها مـا نقع عليه في رسالة : " كتمان السر وحفظ اللسان " ؛ فإنّ الرسالـة بتمامها تكاد تكـون مطبوعـة بطابعها ؛ إذ يبدأ الجاحظ فيستقصي كلّ ما يتهيّأ له من أدلّة وشواهدَ عقليّةٍ ونقليّة تؤكّد صعوبة كتمان السرّ وصَوْن اللسان عن فضول الكلام ؛ ومن ذلك استشهاده بقصّة طريفة عن بعض الفقهاء ، كـان يضيق صدرُه بما عنده من أخبار يضِنّ بها على العوامّ ، فيَخرج إلى العَراء ، ويحفر حفرة ، ثمّ يُفضي إليها بما عنده [٣] . ويسوق قصّة أخرى أشدّ من هذه طرافة ، عن الأعمش ، الذي كان يستبدل بالحفرة شاةً عنده ، يُسرّ إليها بالأخبار والأحاديث ؛ مـمّا دفع بعض المحدّثين إلى القول : " ليت أنّي كنتُ شـاة الأعمش " [٤] ويُتبعهما بحكاية لهشام بن عبد الملك ، وأخرى لمعاويةَ في المعنى نفسه . [٥]

ثمّ يتتبّع الحالاتِ والأساليبَ التي يمكن أن ينتشر بها السرُّ ويَذيعَ فـي الناس ؛ ليحذّر متلقّـي الرسالة من مثلها ، إذ يُعقبها بقوله : " فاستيقِظْ عند هذه الأحوال ، واستعمِلْ سوء الظنّ بجميع الأنام ؛ فإنّه رُوي عن النبيّ — صلى الله عليه وسلّم — أنّه قال : " الحزمُ سوء الظنّ ". وقيلَ لثقيف : بِمَ بلغتـم ما بلغتم من الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنّ ". [٦] ويمكن تلخيص تلك الحالات والسُّبُل — كما يتقصّاها الجاحظ — في النقاط التالية [٧] :

---

(١) كما قد يكون في غيرها من الموضوعات التي تخرج عن إطار بحثنا .

(٢) المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج١ ، ص ٩٨ .

(٣) كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤٥ .وسأكتفي لاحقاً بإثبات الجزء الأوّل من العنوان .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ١٤٦ — ١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ – أن يتعمّد المؤتَمن على السرّ إذاعتَه ؛ إمّا غِشّاً أو اضطغاناً ، وإمّا اجتلاباً لمنفعةٍ أو دفعاً لضرر ، وإمّا سُخفاً وضعفاً .

٢ – إذا لم ينكشف السرّ عن طريق الكلام ، فإنّه لا يخلو أن ينكشف بالإشارة أو الإيماءة غير المقصودة ؛ كنظرة العين ، وسَحنة الوجه ، وتغيُّر اللون والتبسّم أو القطوب ، عندما يخطر ذلك السرّ ببال المؤتَمن عليه ، أو يجري ذكرُه في المجالس ، أو يَرى مَنْ له صلةٌ به .

٣ – ربّما اطّلع بعض المتعقّبين على طرَفٍ يسيرٍ من السرّ ، فيُوهِم صاحبَ السرّ أنّ سرّه قد انكشف له كلّه ؛ ليخدعه بهذه الحيلة عن سرّه ، فيبوحَ له ببقيّته .

٤ – إذا كان السرّ مسطوراً في رسالة أو ما شابهها ، فإنّه قد ينكشف مصادفةً ؛ بلمحةِ عين ، أو جزءٍ ينقشر من الكتاب ، أو كلمةٍ تبدو من ظهره ؛ فيَظهر للمطّلع جُملةُ مضمون الكتاب ، ويقف منه على ما قد يكون فيه غايةُ الضّرر لصاحبه .

أمّا الدوافع والأسباب التي تبعث النّاس على إفشاء الأسرار ، وإرسال ألسنتهم بفضولِ الكلام ، فإنّ الجاحظ يستقصيها فيما تتضمّنه النّقاط التالية :

١ – ما يجدون في ذلك من لَذّة ؛ بسبب موافقته لما طُبعوا عليه من حبّ الإخبار والاستخبار[١]

٢ – أنّ الحثّ على كتمان السرّ وصيانة اللسان عن اللغو ضربٌ من التكليف ، وكلُّ تكليف تترتّب عليه مشقّة ، والصبرُ على المشقّة شديد . كما أنّ النهي عن إذاعة السرّ وإطلاق اللسان بفضول القول مَنْعٌ وحَظْر ، ونفسُ الإنسان ميّالةٌ إلى انتهاك كلّ محظور ، ومقارفة كلّ ممنوع . وكفى بالنّهي إغراءً للمرء بإتيان المنهيّ عنه ، وإنْ لم تكن له رغبةٌ في إتيانه من قبلُ ، لولا ذلك النهي .[٢]

٣ – قد يكون محرَّماً على المؤتَمن كتمانُ ذلك السرّ ، فيضطرّ إلى البَوْح به صيانةً لدينه .[٣]

ومن تجلّيات هذه السّمة الأسلوبيّة في رسالة " كتمان السرّ وحفظ اللسان " – أيضاً – كثرةُ إلحاح الجاحظ على الفكرة التي يطرحها – بالشّرح والتبسيط ، واضطلاعُه أحياناً بتفسير ما يُورده في سياق ذلك الطّرح من أقوال والتعليقِ عليها تعليقاً مطوّلاً ؛ حتّى يتحقّق من بلوغها إلى القارئ على الوجه الذي يريده . ومن ذلك ما فعله عندما استشهد بقول سليمان – عليه السلام – : " ليكنْ صدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك واحداً من ألف " ، في معرض تحذيره من إفشاء الأسرار ، ودعوته

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٤١ – ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى إساءة الظنّ بالناس في هذا الموضع بالذات ؛ إذ عقّب عليه – موضّحاً – بأنّه ليس معنى الكلام أن يعدّ المرء من أصدقائه ألفاً ، ثمّ يُفضي إلى واحدٍ منهم بسرّه ،إذا لم يكن ذلك الواحد عاقلاً وناصحاً لصاحب السرّ ؛ وإنّما المقصود منه أنّ من يستحقّ الثّقة ويُعوّل عليه في الاستحفاظ قليلٌ ، على كثرة ما تُعُدّ من النّاس ، أو لعلّه أن يكون معدوماً . فكأنّ سليمان – عليه السلامُ – أراد من تلك الحِكمة أن يقول : " لا تُودعنّ سرّك أحداً " ؛ إذ كانت الشروط المطلوبة لحفظ السرّ لا تكاد تنطبق على أحد [١] . فلم يكتفِ الجاحظ بمجرّد إيراد القول ، حتّى أردفه بشرحٍ لمغزاه الحقيقيّ ؛ لكيلا يذهب القارئ مع ظاهر العبارة ، ويغفل عن المعنى العميق الذي هو المعنى المراد .

ومن شواهد هذا النزوع نحو الاستقصاء في رسالة " المعاش والمعاد " ما ذهب إليه الجاحظُ من تتبّع لمراتب الأخبار من حيث الصدقُ والكذب ؛ فتجده لا يكتفي بأن يُوصي قارئه بوضع الحذر والثّقة مواضعَهما فيما يَرِد عليه من أخبار ، حتّى يستقصي له طرق تلك الأخبار ، ودرجاتِها في الصحّة والاختلاق ، والمعيارَ الذي ينبغي أن يتّبعه في الحكم عليها . [٢]

ويندرج تحت هذه السّمة – أيضاً – تفصيلُه القولَ في أخلاقٍ أربعة ، يرى أنّها أساس كلّ شرّ ومنبع كلّ رذيلة ؛ وهي الكذب والغضب والجزَع والغدْر ، فيذكرها ، ويبيّن أسبابها ، وما يتفرّع عنها ، ثمّ يقابلها بأضدادها ؛ وهي الصدق والحِلْم ، والصبر ، والوفاء ، ويُسهب في الكلام عليها ؛ فيمتدحها ، ويبيّن أقسامها ، ويدلّ على ما بينها من صلاَت – وذلك في قوله :

" واعلمْ أنّ الحكماء لم تذمّ شيئاً ذمَّها أربعَ خلال : الكذب ؛ فإنّه جماع كلّ شرّ ... ، والغضب ؛ فإنّه لؤم وسوء مقدرة ... ، والجزَع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ... ، وزعموا أنّ ذلك من إفراط الشَّرَه ، وأنّ أصل الشّره والحسد واحدٌ ، وإن افترق فَرعاهما ... ، وذمّوا الحسد كذمّهم الجزع ... ، وزعموا أنّه لم يغدِر غادرٌ قطّ إلاّ لصغر همّته عن الوفاء ، وخُمول قَدْره عن احتمال المكروه في جَنْب نَيْل المكارم .

وبقدْر ما ذمّت الحكماء هذه الأخلاقَ الأربعة ، فكذلك حمِدت أضدادها من الأخلاق ؛ فأكثرتْ في تفصيلها الأقاويلَ ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنّها أصلٌ لكلّ كرم ، وجِماعٌ لكلّ خير ، وأنّ بها تُنال جسام الأمور في الدنيا والدين .

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٢) المعاش والمعاد ، ص ١١٩ – ١٢٠ . وانظر كذلك ، ص ١٠٩ – ١١٢ من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

... والصبرُ صبران : فأعلاهمـــا أن تصبر على ما ترجو فيـــه الغُنمَ في العاقبـــــة . والحِلْـــمُ حِلْمان : فأشرفهما حُلمك عمّن هـــو دونك . والصدقُ صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضـــرّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .

... فالصدق والوفاء توأمان ، والصّبر والحِلْم توأمان . فهنّ تمام كلّ دين ، وصلاح كلّ دنيا . وأضدادهنّ سبب كلّ فُرقة ، وأصل كلّ فساد " [١].

وفي رسالـــة " النُّبل والتَّنبُّل وذمّ الكِبْر " – بعـــد أن يفرّق الجاحـــظ بين مفهومي " النُّبـــل " و " التَّنبُّل " ، ويُسهبَ في ذمّ الكِبْر وتقريع المتكبّرين – يُفضي إلى استقصاء المواضع الـــتي يمكـــن أن يَسوغ فيها الكِبْرُ ويُستحسَن ، استثناءً من الأصل في قُبحه واستحقاق صاحبه للذمّ .وتلك المواضع هي:

١– " أن يكون المتكبّر صعباً بدويّاً ، وذا عُرضيّة وحشيّاً [٢] ، ولا يكون حضريّاً ولا مدَرِيّـاً . فيُحمل ذلك منه على جهة الصُّعوبة ومذهب الجاهليّة ، وعلى العُنْجُهيّة والأعرابيّة .

٢– أو يكونَ ذلك منه على جهة الانتقام والمُعارَضة ، والمكافأة والمقابلة .

٣– أو على أن لا يكون تكبُّره إلاّ على الملوك والجبابرة ، والفَراعِنة وأشباه الفراعنة " . [٣]

ومن الأمثلة الدالّة على إمعان الجاحظ في استقصاء جميع الجوانب والاحتمالات المتعلّقة بالمسألة الأخلاقيّة التي يُناقشها – هذا الذي نقله عن أحد الحكماء في الحضّ على طول الصّمت ؛ وهو يصـــوّر حالة دقيقة جدّاً ، يتعرّض المرءُ فيها لضُروب من العنَت والمماحَكة ؛ بسبب الخَوْض فـــي أمورٍ لا نفـــع له فيها . وخُلاصة ذلك : أنّ الرجل ربّما يتكلّم بكلام ، فيُنقل عنه محرّفاً ، فيضطرّ إلى أن يدافع عـــن نفسه ؛ بنفي ما نُسب إليه وإنكاره ، وإعادة ما قاله كما قاله في المرّة الأولى . فيكون في إنكاره اعترافٌ ضمنيّ بأنّه قد خاض في ذلك الأمر ، وتوكيدٌ لما نُقل عنه ، وحُجّة كافية لمن وشَى به . ويُصبح قولـــه الثاني ادّعاءً غير مقبـــول حتّى يأتي عليه ببيّنة . فكفى بهذا وأمثالـــه داعياً إلى الصمت ، ومُزَهّـــداً في كثرة الكلام . [٤]

---

(١) المعاش والمعاد ، ص ١٢٣ – ١٢٦ .

(٢) العُرضيّة : العجرفيّة والصعوبة ، وركوب الرأس من النخوة .

(٣) النبل والتنبّل ، الرسائل ، ج٤ ، ص ١٧٦ .

(٤) كتمان السرّ ، ص ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ هذه النـزعة الاستقصائيّة ، وإن استدقّت مسالكها في بعض الأحيان ، فإنّها لا تُخرج الجاحظ عن نطاق الواقع التجريبيّ ، ولا تُدخله في آفاق من الخيال والافتراضات النظريّة الجائزة في منطق العقل المجرّد ، دون أن تكون أشباهها متعيّنةً في الحياة العمليّة . فهو يستقصي ويتعمّق ، ولكنّه مُلتزم — دائماً — بالواقع . ومن الأمثلة التي تُؤكّد هذه الفكرة — بالإضافة إلى المثال السّابق — هذه الحالة التي يسوقها الجاحظ في معرض ترغيبه في الصّمت ، وتتّسم بالدقّة في الملاحظة والميل إلى التقصّي ، وبالالتزام بالواقعيّة في الوقت نفسه ؛ وهي تتلخّص في قوله : " وربّما ذكر رجلٌ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذكرُ إثماً له ؛ لأنّه قد يُدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتحريض ؛ فيسفك الدم الحرام ، أو يعظّم الجرح الصغير . بل ربّما ضحك وتبسّم ؛ فأغرى وحرّض ، وأثم وأوبق ".(١)

والدليلُ على واقعيّة هذه الحالات — بالرغم من دقّتها — أنّ الجاحظ يستلهمها إمّا من تجاربه الخاصّة ، وإمّا من تجارب غيره التي ضمّنوها أشعارَهم وأقوالَهم ؛ ولذلك تجده لا يُخلي كثيراً من الحالات التي يُوردها من شواهدَ من أقوال الشعراء والحكماء ، أو نماذجَ من تجاربه الذاتيّة . وممّا استشهَد به على الحالة السّابقة قولُ الشاعر : (٢)

فإنْ شئتُ أدْلَى فِيكما غيرُ واحدٍ مُجاهَرةً ، أو قال عندي في سِرِّ

فإنْ أنا لم آمُرْ و لم أنْهَ عنكما ضحكتُ له ؛ حتّى يَلِجّ ويَسْتَشْرِي

ثمّ يتبع هذين البيتين بسلسلة من الوقائع التاريخيّة المشهورة التي تشهد جميعُها بفضل الصمت على الكلام ، وأنّ أكثر الشّرور وأعظمَها إنّما ينتج عن كلمةٍ تُفلت من صاحبها عن قصد أو غير قصد ؛ كحرب بكر وتغلِب ، وعبس وذُبيان ، والأوس والخزرج ، والفِجار الأوّل والثاني . ويُحيل قارئه على التاريخ لكي يتصفّح أخبار الماضين ، ويتبيّنَ " عدد مَنْ قتله لسانُه ، وكان هلاكه في كلمة بدرتْ منه " (٣). وهذه كلُّها — كما ترى — أمثلة من صُلب الواقع ؛ لا أثر فيها للخيال أو التصوّرات الذهنيّة المجرّدة .

أمّا الاستشهاد بتجاربه الذاتيّة فنجد أمثلته تتردّد في رسالة " فصل ما بين العداوة والحسَد " — وهي ، على كلّ حال ، نموذجٌ جيّد على إلحاح الجاحظ في استقصاء الموضوع الذي

(١) كتمان السّرّ ، ص ١٦٩ ..

(٢) كتمان السرّ ، ص ١٦٩ . وقابل بما ورد في الحيوان ، ج١ ، ص ١٤ — ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتناوله من جميع نواحيه — ؛ فإنّ جُل الأفكار التي يطرحها في هـذه الرسالة إنّما هو مستقى ممّا عاناه — بالفعل — من ضروب الحسد والنفاسة التي كان يقابله بها معاصروه ، ويبلغ بعضها مـن اللطـف والغرابة حـدّاً بعيداً . يقول في وصف بعض تلك التجارب : " وقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بـن خالد بالتجربة والابتلاء [١] . وإنّي ربّما ألّفتُ الكتاب المحكَم المتقَن في الدين والفقـه ، والرسـائل والسِّيَر ، والخُطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ؛ بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته . . . . وربّما ألّفـت الكتاب الذي هو دونـه في معانيه وألفاظـه ، فأترجمه باسم غيري ، وأُحيله على من تقدّمني عصرُه ؛ مثل : ابن المقفّع ، والخليل ، وسَلْم صاحب بيت الحكمة ، ويحيى بن خالد ، والعتّابيّ ، ومَنْ أشبه هؤلاء من مؤلّفي الكتب ؛ فيأتيني أولئك القـومُ بأعيانهم الطّاعنون على الكتاب الذي كان أحكمَ من هـذا الكتاب ؛ لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويُصيّرونه إماماً يقتدون بـه ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونـه عنّـي لغيرهم من طلاّب ذلك الجنس . فتثبتُ لهم به رياسةٌ ، ويأتمّ بهم قومٌ فيه ؛ لأنّه لم يُترجَم بـاسمي ، و لم يُنسَب إلى تأليفي . ولربّما خرج الكتاب مـن تحت يدي مُحصَفاً كأنّه مَتْن حجرٍ أملَسَ ، بمعان لطيفة مُحكَمة ، وألفاظ شريفة فصيحة . فأخاف عليه طعن الحاسدين إنْ أنا نسبتُه إلى نفسي ، وأحسُد عليـه مَنْ أهُمّ بنسبته إليه ؛ لجوْدة نظامه وحسن كلامه . فأظهره مُبْهماً غُفْلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرَف وُضّاعهـا ؛ فينهالون عليـه انهيالَ الرّمل ، ويستبِقون إلى قراءتـه استباقَ الخيل يـومَ الحَلْبـة إلى غايتها ".[٢]

ونجد مثالاً آخر على الاستقصاء الواقعيّ فيما يفعله الجاحظ عندما يأخذ في شرح الحالات التي يحتاج المرءُ فيها " إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم " ممّن ربّما كان كثيرٌ منهم دونَه في المنزلة . وينتج عن تلك المداراة — إنْ لم تكلّف صاحبها حَرَجاً في دينه أو عِرضه أو بدنـه — أن يخرج فاضِلَ الوقـار موفور المهابة . أمّا تلك الحالات [٣]:

— " فمنها أن تأتي مَحفِلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقّه ، حتّـى يكون أهله الذين يرفعونك ؛ فتظهر جلالتُك وعِظَم قدْرك .

---

(١) انظر قول يحيى الذي يشير إليه الجاحظ ، ص ٣٤٩ — ٣٥٠ من الرسالة .

(٢) كتاب فصل ما بين العداوة والحسـد ، الرسـائل ، ج١ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ . وانظـر وصفـه لتجربة أخرى وقعت لـه مع الحسّاد ، ص ٣٦٨ — ٣٧١ .

(٣) المعاش والمعاد ، ص ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– ومنها : أن يُفيض القومُ في حديث ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستهم كنتَ واحداً منهم ، وإنْ أمسكتَ اقتضَوْك ذلك ؛ فصرتَ كأنك مُمتَنّ عليهم بحديثك ، وأنصَتوا لك ما لم يُنصِتوا لغيرك .

– ومنها : أن يتمارى جُلَساؤك – والمِراء نِتاج اللّجاجة ، وثمرةٌ أصلُها الحميّة – فإنْ ضبطتَ نفسَك كان تحاكمهم إليك ، ومُعوَّلهم عليك ".

ولكنّ رغبة الجاحظ في الاستقصاء والتتبّع ربّما تُؤدّي به – أحياناً – إلى الخروج عن موضوعه الأصليّ والعدول إلى موضوعات أخرى ضعيفة الصّلة به . وهو نفسُه يُقرّ بهذا في غير موضع من كلامه ، و يعتذر عنه ، ولكنّ بعد أنْ يكون قد أمعن فيه . ومن ذلك قولُه في آخر رسالة " كتمان السرّ " ، بعد أن شعر بأنّه قد خرج عن موضوع الرسالة : " وهذا بابٌ لولا أن نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدْنا إليه وعزمْنا عليه ، لأتينا عليه ".[1]

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعاً : الجُنوح إلى الإطلاق والتعميم في تقرير بعض الأحكام المتصلة بالأخلاق :

من خصائص أسلوب الجاحظ التي تترك أثرها في شكل عباراته وأنماطه اللغويّة – المَيْلُ إلى التعميم في الأحكام التي يُطلقها في بعض القضايا والمواضيع الخلقيّة . وهذا التعميم يكون أحياناً مُسوَّغاً ؛ باستناده : إمّا إلى بديهيّات عقليّة ؛ كما في قوله : " وكلّ سرّ في الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طَيٌّ عن إنسان " [١] ، فهذا الحكم يمكن أن يُتوصّل إليه بمنطق العقل . وإمّا إلى معرفته بطبائع النفوس المفطورة عليها ؛ كما في قوله : " واعلمْ يقيناً أنّ الصّمت سرمداً أبداً ، أسهلُ مَرامياً – على ما فيه من المشقّة – من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز والقصدِ للصّواب ؛ لِما قدّمنا ذِكْرَه من عِلَل مجاذبة الطّباع ؛ ولأنّ من طَبع الإنسان محبّةَ الإخبار والاستخبار " [٢] ، فهذا الحكم مبنيّ على معرفة طبائع النفوس التي جُلبت عليها . وإمّا إلى تواتر التجارب العمليّة المؤيّدة لحُكمه في القضيّة التي هو بصددها ؛ كما في قوله – يسوّغ حكمه بأنْ ليس في الناس من هو أهل لاستيداع السرّ ، ومَنْ يقدر على حفظه من الذيوع – : " والذي جرّبناه ووجدناه : أنّ مَنْ يُفضَى إليه بالشيء ، يبلغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفَظ المعيّنُ بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المُجازَى على أدائها ؛ حتّى ربّما كان يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاّغة من الرجال المعروفِ بالنميمة والتّقْتيت ، فيوهمه أنّه قد استحفظه السرّ ، فيَشيع على لسانه كما يشيع الضّوء في الظُّلمة . وهذا فعلُ عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – حين أحبّ أن يُشيع إسلامه ، فقال : مَنْ أنمّ أهل مكّة ؟ قيل له :جميل بن النُّحَيت . فأتاه ، فأخبره بإسلامه ، وسأله أن يكتمه عليه . فلم يُمسِ وبمكّة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر – رضي الله عنه – " [٣] ، فهذا الحكم العامّ قائمٌ على الملاحظة الذاتيّة ، واستقراء التجارب التاريخيّة .

ولكنْ ، لئن كان بعض التعميمات التي يُرسلها الجاحظ في المسائل الخلقيّة مشروعاً أو مسوَّغاً بتلك الاعتبارات العلميّة ، فإنّ بعضها الآخر – وهو ليس بالقليل – يفتقر إلى سند متين يمكن أن يُعتدّ به . كما أنّه يصعب على الباحث أن يلتمس عذراً لتلك اللهجة الواثقة إلى حدّ المبالغة في كثير من المواضع . ولعلّ عبارة " واعلمْ يقيناً " التي تضمّنها أحد النصوص المُستشهَد بها في الفقرة السّابقة ، وتكرارَ الفعل نفسه أو غيره من الأفعال المشابهة له بصيغة الأمر – مثل : " اعرِف " و " تحفّظ "

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– في أكثر فِقَر رسالة " المعاش والمعاد " [(١)] – لعلّ في ذلك تعبيراً صريحاً عمّا نأخذه على الجاحظ من شدّة ثقته بصحّة ما يقرّره من أحكام ، ممّا لا يليق كثيراً بالمباحث الإنسانيّة عموماً ؛ إذ إنّ أكثر القضايا التي تتناولها محلٌّ للخلاف ، وقليلاً ما يُتوصَّل فيها إلى إرساء مبادئ وحقائق أو حتّى نظريّات ثابتة ؛ وإنّما هي – في الغالب – فرضيّات تحتمل الصواب والخطأ ، كما أنّها قابلة للتعديل والتصحيح والاستبدال ؛ ولذلك ينبغي أن تكون لغتها دالّة على ما فيها من جوازٍ واحتماليّة ، وأن يُتحاشَى فيها الإطلاقُ والجزم .

وهذه اللهجة الواثقة التي يُطالعنا بها الجاحظ من شأنها أن تطبع أحكامه بطابعٍ ذاتيّ ، ينأى بها عن الموضوعيّة العلميّة . ويمكن – بسهولة – ملاحظةُ ما يخامر كثيراً من تعميماته من ذاتيّة وانطباعيّة شخصيّة بارزتين ، بتأمّل الأحكام المطلقة التالية ، المنثورة في رسائله وخاصّة في رسالة " كتمان السرّ ، وحفظ اللسان " ، على سبيل التمثيل وليس الحصر :

– " وأنا لا أعرف في دهري – على كثير عدد أهله – رجلاً واحداً مّمن ينتحل الخاصّة ، ويُنسب إلى العِلْية ، ويطلب الرّياسة ، ويخطِب السيادة [(٢)] ، ويتحلّى بالأدب ، ويُديم الثّخانة والزّماتة ، والحِلْم والفخامة – أرضى ضَبْطَه للسانه ، وأَحْمَد حِياطته لسرّه " . [(٣)]

– " لا شيء أصعبُ من مكابدة الطّبائع ، ومغالبة الأهواء " [(٤)].

– " فإنّ الدولة لم تزلْ للهوى على الرأي طولَ الدّهر " [(٥)].

– " واستعمِلْ سوء الظنّ بجميع الأنام " [(٦)].

– " وهذه صفاتٌ [كتمان السرّ وصيانته عن الذيوع] موجودةٌ بالأقوال ، معدومة بالأفعال " [(٧)].

– " واغتياب الناس جميعاً خُطّةُ جَوْرٍ في الحكْم ، وسقوط في الهمّة ، وسخافة في الرأي ، فلستَ ترى منها ناجياً " .[(٨)]

---

(١) راجع في هذا الفصل من البحث : توجيه الحديث إلى المتلقّي بصيغة الخاطب المباشر ، ص ١٠٩ – ١١٢ .

(٢) في الأصل بضمّ الطاء ، والصواب كسرها ؛ من الخِطبة بمعنى الطلّب .

(٣) كتمان السرّ ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ١٥٣ .

(٨) المصدر نفسه ، ١٥٩ – ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- " وهـذا [اغتياب الناس وتتبُّع أسرارهم] جُلّ حديث البشـر ، وشغلُهـم في الليـل والنهار " (١).

- " ولو أردتَ أن تعرّفني مِن جميع العالَمين رجلاً لَما قدرتَ على أحد يحتمل الغِنى " (٢).

- " والخطاء مع الجماعة خيرٌ من الصواب مع الفرقة . وإن كانت الجماعـة لا تُخطـئ ، والفرقة لا تصيب. " (٣).

- " وليس الأمر بالمعروف والنّهيُ عن المنكر إلاّ مع السيف والسّوط " (٤).

وأحياناً يتّسع تعميم الجاحظ حتّى يشمل أمّة من الناس بتمامها أو طوائف كاملة منها ؛ كمـا في ذلك الحكم الذي يُطلقـه على نساء الصقالبة وصبيانهم ؛ حيث يقول : " فأمّا نسـاء الصّقالبـة وصبيانهم ، فليس إلى تحويل طبائعهم ، ونقل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة ، وإلى الحركة الموزونـة ، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة – سبيلٌ " (٥) . فتجده يُعمّم الخُرْق وقِلّة الحِذْق على تلك الأمّـة مـن الصقالبة بكاملها ، وبالتحديد : على نسائها وصبيانها ، ويجعل من ذلك صفات ثابتةً فيهم ، لا سـبيل إلى تحويلها ، وكأنّها أصبحت خصائص متوارَثة . والواقع أنّ هذا الحكم قـد أصبـح في حاجـة إلى المراجعة وإعادة النظر ، انطلاقاً من معطيات العلم الحديث ، التي تؤكّد أنّ الناس جميعـهم يُولـدون متساوين في قدراتهم العقليّة وسماتهم البيولوجيّة . وإنّما يأتي الفرق بينهم من اختلاف المؤثّـرات الـتي يتعرّض لها كلٌّ منهم في بيئته الماديّة والاجتماعيّة . فهذا العامل الأخير هو الأدنى من الصواب والأشـبه بالنظرة العلميّة الموضوعيّة في تعليل ما يصف به الجاحظ نساء الصقالبة وصبيانهم من بَلادة وخُرْق . أمّا من جهة الطبيعة والخَلْق فلا تفاضل بين الأمم ولا بين الأفراد ، إلاّ في حالات الإعاقـة التي لا يُقـاس عليها . كما أنّ مثل هذا الحكم العامّ ، إن كان يمكن أن يصحّ بناء على اعتبار المؤثّرات البيئيّة وليـس الطبيعيّة البيولوجيّة ، فإنّه يصعب على الملاحِظ – في عصر الجاحظ – أن يستوفي شروط تلك الصحّة ، التي أوّلها استقراءُ العينات موضوع الحُكم استقراءً كافياً لتسويغه ، وهي خطوة لا نستطيع أنْ نرجّح أنّ الجاحظ قد أنجزها قبل إصدار هذا الحكم .

ويندرج تحت هذا اللون من التعميم في الأحكام حُكْمٌ آخر يرسله الجاحظ في حـق رجـال العجم ، عندما يُفاضل بينهم وبين نساء العرب في قوّة العقل وحسن التدبير ؛ في قوله : " وفيما يُحكَى

---

(١) كتمان السّر ، ص ١٦٠ .

(٢) رسالة في الجِدّ والهزْل ، الرسائل ، ج١ ، ص ٢٧٢ .

(٣) النبل والنبّل ، في الرسائل ، ج٤ ، ص ١٨٥ .

(٤) كتمان السرّ ، ص ١٦٣ .

(٥) الحيوان ، ج١ ، ص ١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن امرأة من عُقلاء نساء العرب — وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقلَ من رجال العجم ، فما ظنّك بالمرأة منهم [من العرب] إذا كانت مقدَّمةً فيهم ؟! — فَرَوَوْا جميعاً أنّ أمّ تأبّط شرّاً قالت : والله ما وَلَدْتُه يَتْناً ، ولا سقيتُه غَيْلاً ، ولا أبتُّه على مَأْقةٍ " (١).

فخلاصة رأي الجاحظ — إذن — في رجال العجم أنّهم — في الجملة — أضعف عقولاً من نساء العرب المغمورات . فكيف بالمتقدّمات ؟! .

ولا أدري كيف سجّل الجاحظ على نفسه هذا الحكم العامّ ، خاصّةً وهو يعرف ما كان عليه رجالُ العجم في وقته مِنْ حُسْنِ التدبير في السياسة ، والقدرةِ على التصرّف في أنواع الفنون ، والحِذْق لأصناف الصناعات ؟! كيف ورجالُ العجم هم الذين أعانوا العرب في سياسة دولهم ، وإنشاء دواوينهم ، وبناء مدنهم ، ودلُّوهم على ألوان الحِرَف ، وضروب الارتفاقات . ومِنْ كتبهم استفادوا الفلسفة والطبّ والهندسة وشتّى العلوم ؟! ولو لم يكونوا عقلاء حقّاً لما اعتمد عليهم الخُلَفاء في إدارة شؤون البلاد ، ولا أوكلوا إليهم جسائم الأمور ! ونحن نعلم — من كتب التاريخ والتراجم — أنّ أكثر الوُلاة والقادة في العصر العبّاسيّ خاصّةً هم من الموالي ، وليسوا من العرب الخُلّص ؛ بل هم الذين قامت على عواتقهم هذه الدولة من أساسها ، وهم الذين حملوا رايتها ، من دون العرب : ابتداء بأبي مسلم الخراسانيّ الذي قاد جيوش الثورة على الأمويّين ، ومروراً بالبرامكة ، صفوة الرشيد وآبائه ، قبل أن ينكبهم ، ثمّ ذي الرّياستين : الفضل بن سهل ، قائد جيوش المأمون في حربه على أخيه الأمين ، ثمّ وزيره . ومِنْ بعده أخوه : الحسن بن سهل .

ولعلّه ممّا لا يَخفى أنّ عصبيّة الجاحظ للعرب ضدّاً على العجم هي التي دفعته إلى إرسال هذا الحكم العامّ في حقّ رجالهم ؛ للتقليل مِنْ شأنهم ، ورفع العرب فوقهم درجات في العقل والتدبير . ويمكن الرجوع إلى كتب التاريخ والأدب لتبيّن ما كان للعجم — وخاصّة الفرس — مِنْ دور مؤثّرٍ في الدول الإسلاميّة على اختلاف عصورها ، وخاصّة الدولة العباسيّة التي عاش الجاحظ في ظلّها (٢).

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص ٢٨٦ ، وانظر تفسير الجاحظ لقولها في الصفحة نفسها والتي تليها ، حيث يقول : " فأما اليَتْن : فخروج رجل المولود قبل رأسه ، وذلك علامة سُوء ، ودليل على الفساد . وأمّا سَقي الغَيْل : فارتضاع لبن الحبلى ، وذلك فساد شديد . وأما قولها في المأقة فإنّ الصبيّ يبكي بكاء شديداً متعباً موجعاً ؛ فإذا كانت الأمّ حاهلة حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار أو نوّمته بأن تضرب يدها على جنبه ، ومتى نام الصبيّ وتلك الفزْعة أو اللّوعة أو المكروه قائمٌ في جوفه ، و لم يُعلّل ببعض ما يُلهيه ويضحكه ويسرّه ، حتّى يكون نومه على سرور ... فإنّ ذلك ممّا يعمل في الفساد " .

(٢) انظر في ذلك — على سبيل المثال — ما ذكره د . شوقي ضيف في كتابه : العصر العباسيّ الأوّل ، ط٦ ، ص ١٩ — ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنصافاً للجاحظ نقول : إنّه يلجأ في بعض المواضع إلى اصطناع شيء من الاحتراز فيما يُصدره من أحكام . على أنّ هذا الاحتراز ليس هو السّمةَ البارزة في كتاباته المتّصلة بالأخلاق ، ولا يشكّل مبدأً منهجيّاً مطّرداً عنده ؛ ولكنّ السّمة البارزة هي عكسُ ذلك ممّا بيّناه آنفاً ، واستشهدنا عليه . فضلاً عمّا يُلمَح من هشاشةٍ وعَرَضيّة في بعض ما يحاوله من وسائل الاحتراز . ومن الأمثلة على احترازاته قولُه :

" والحديث كلّه – إلاّ ما لا بال به – ذِكْرُ النّاس ، ولَغْوٌ وخَطَلٌ ، وهُجْر وهُذاء ، وغيبة وهمز ولمز " [١] . وقوله : " وأنتَ إذا تأمّلتَ أكثر ما يتناجى به المتحدّثون ، وجدتَ أكثر السّائلين يسأل عمّا لا يعنيه وأكثرَ المجيبين يُجيب و لم يُسأل " [٢] . وقوله : " ولِمَ نرى حبّ الطّعْن على الملوك ، والتجسّس على أخبارهم ، وعشق نشر المعايب ، واستحلال الغيبة – ظاهراً في طباع الناس ، لا يكاد ينجو منه أحدٌ منهم ، إلاّ من رجح حِلْمُه ، وعظُمت مروءتُه " [٣] . وكذلك قوله : " وكلّ شيء مِن أمر الدنيا قد يحظى به غيرُ أهله ، كما يحظى به أهلُه " [٤].

هذا ، ويمكن أن نضيف أنّ سمَة التعميم في إطلاق الأحكام ليست خاصيّة للمضمون فحسب ، بل إنّها تتجاوز ذلك إلى الشكل ؛ إذ تفرض نفسها وتترك انعكاساتها على تحديد أنماط العبارات والألفاظ التي يستخدمها الجاحظ في إرسال أحكامه الخلقيّة . من ذلك – مثلاً – كثرةُ استخدامه لعبارات الإطلاق والتوكيد والقَسَم ؛ مثل : (لا شيء ، وكلّ ، وجميع ، وجُلّ ، وأبداً ، وليس ... إلاّ ، ولعمري ، ولا أعرف أحداً (يتّصف بصفة كذا)) [٥].

---

(١) كتمان السرّ ، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٥٩ .

(٤) البيان والتبيّن وذمّ الكبر ، ج٤ ، ص ١٧١ .

(٥) انظر كتمان السرّ ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثامناً : تمثيل المفاهيم الخُلقية في شكل أزواج من الأضداد :

" ألا ترى أنّ فيه [أي الإنسان] طبائع الغضب والرّضا ، وآلة اليقين والشكّ ، والاعتقاد والوقف ، وفيه طبائع الفطنة والغباوة ، والسلامة [سلامة الصدر والحفيظة] والمكر ، والنصيحة والغِشّ ، والوفاء والغَدْر ، والرياء والإخلاص ، والحبّ والبُغض ، والجِدّ والهَزْل ، والبخل والجُود ، والاقتصاد والسَّرَف ، والتواضع والكِبْر ، والأُنس والوَحشة ، والفِكْرة والإمهال ، والتمييز والخَبْط ، والجُبن والشّجاعة ، والحزم والإضاعة ، والتبذير والتقتير ، والتبذُّل والتعزُّز ، والادّخار والتوكّل ، والقناعة والحِرْص ، والرغبة والزُّهد ، والسُّخط والرّضا ، والصّبر والجزَع ، والذّكر والنسيان ، والخَوْف والرّجاء ، والطّمَع واليأس ، والتنزّه والطّبَع ، والشكّ واليقين ،والحياء والقِحَة ، والكتمان والإشاعة ، والإقرار والإنكار ، والعِلْم والجهل ، والظُّلم والإنصاف ، والطّلَب والهَرب ، والحِقْد وسُرعة الرّضا ، والحِدّة وبعد الغضب ، والسّرور والهمّ ، واللذّة والألم ، والتأميل والتمنّي ، والإصرار والنّدم ، والجِماح والبَذَوات ، والعِيّ والبلاغة ، والنُّطق والخَرَس ، والتصميم والتوقّف ، والتغافُل والتّفاطُن ، والعفو والمكافأة ، والاستطاعة والطبيعة (كذا) ، وما لا يُحصَى عددُه ، ولا يُعرَف حَدّه " [١].

يُورد الجاحظ هذا النصَّ في سياق تَعداد ما يشتمل عليه الإنسان من طبائعَ متنوّعةٍ ومتباينةٍ تُسوّغ تسمية العلماء له بـ " العالَم الصغير ؛ إذ كان فيه جميعُ أجزاء العالَم الكبير وأخلاطه وطبائعه " [٢] . ولعلّنا نستطيع – بتأمُّل المنهج الذي سلكه المؤلّف في سَرْد تلك الطّبائع – أن نخرج بفكرةٍ ما عن تصوّره للبناء الخُلُقيّ للإنسان ، الذي يتّخذ من تلك الطّبائع أساساً له ؛ فنقرّر : أنّ الجاحظ يتعامل مع كثير من المفاهيم الخُلقيّة على أنّها مجموعةٌ من الثنائيّات ، تشتمل كلُّ ثنائيّة منها على خلُقين متضادّين أو كالمتضادّين ؛ أحدهما يُعدّ فضيلة ، والآخرُ رذيلة . يُؤكّد هذا الاستنتاجَ قولُه في بعض وصاياه الخُلقيّة : " فَلْتكن المساهلةُ في أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة ، والحِلْمُ أولى بك من العجلة ، والصبرُ الحاكمَ عليك دونَ الجزَع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذنوب والمكافأة بالسُّوء . وكذلك سائر الأخلاق المحمودةُ والمذمومة ؛ فَلْتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكّمةً في أمورك " [٣].

---

(١) كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ويبدأ الكلام في هذا المعنى من ص ٢١٢ .

(٣) رسالة المعاش والمعاد ، ص ١٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكلّ خلُق من الأخلاق داخلَ أيّ من هذه الثنائيّات حدٌّ ينبغي أن يقف الإنسان عنـــده ولا يتعدّاه ؛ بإفراط أو تفريط ، حتّى تستقيم أموره ، ولا يُفضيَ إلى ما يُذَمّ من العواقب . يقول الجـــاحظُ موضّحاً ذلك : " ولكلّ شيء من هذا إفراطٌ وتقصير ، وإنّما تصحّ نتائجُها إذا أُقيمت على حدودهـا ، وبقدْر ما يدخل من الخلَل فيها يدخل فيما يتولّد منها ؛ لا بدّ منه ، ولا مَزْحَل عنه ؛ عليه عادةُ الخَلْق ، وبه جرتْ طبائعهم ، وتمامُ المنفعة بها إصابةُ مواضعها : فالإفراط في الجُوْد يُوجب التبذير ، والإفـراط في التواضع يوجب المَذلّة ، والإفراط في الكِبْر يدعو إلى مَقْت الخاصّة ، والإفراط في المؤانسة يدعو خُلَطـاء السُّوء ، والإفراط في الانقباض يُوحِش ذا النصيحة ، وآفةُ الأمانة ائتمانُ الخانة ، وآفةُ الصدق تصديـقُ الكَذَبة ، والإفراطُ في الحذر يدعو إلى أنْ لا يُوثَق بأحدٍ – وذاك ما لا سبيل إليه – ، والإفراطُ في المضرّة مَبْعثة على حربك ، والإفراطُ في جرّ المنفعة غَناءٌ لمن أفرطتَ في نفعه عنك ".[١]

وهنا يقتربُ الجاحظ كثيراً من نظريّة أرسطو في الأخلاق ، التي تنصّ على أنّ : الفضيلة وسطٌ قيِّمٌ بين رذيلتين واقعتين على طرفين متناقضين بالنسبـــة إلى ذلك الوسط القيِّم ؛ إحداهما مـــن جهـــة الإفراط ، والأخرى من جهة التفريط فيه .[٢]

ولكنّ هذا لا يعني أنّ الطرف الذي يمثّل الرذيلة – في ثنائيّة الجاحظ – مذمومٌ دائماً ؛ بل إنّـــه أحياناً يكون محموداً ، إذا اقتضته الحالُ . يقول الجاحظ في تقرير ذلك : " واعلمْ أنّه ليس من الأخـلاق التي ذَمّتها الحكماء خلُقٌ إلاّ وقد ينفع في بعض الحالات ، ويُردّ به شكلُـــه ، ويُقام بـــإزاء مثلـــه ، ويُدافَع بـــه نظيرُه "[٣] . وهذا – أيضاً – يُحيلنا على قول أرسطو في تأكيد المعنى نفسه : " إنّه لِتقـويم أنفسنا يلزمنا أن نميل تارةً نحو الإفراط ، وتارةً نحو جهة التفريط "[٤] ، فإنْ كنّا نمـــدح – أحيانـــاً – أولئك الذين يضبطون أنفسهم ويتّصفون بالحِلْم ، فإنّنا " تارةً أخرى نمدح أولئك الذين يغضبون ، ونجد فيهم حزماً حقيقاً بالرّجل ".[٥]

ومن الأمثلة البيّنة على هذه الطّريقةِ في تناول المفاهيم الخُلقيّة : حديثُ الجاحظ في سياق رسالة " المعاش والمعاد " عن أربعةٍ من الأخلاق المذمومـــة ، وبإزائها أضدادها الأربعة المحمودة ؛ وذلك قوله :

---

(١) رسالة المعاش والمعاد ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٢) انظر تفاصيل هذه النظريّة وتطبيقاتها في كتاب أرسطو : (علم الأخلاق إلى نيقوماخوس) ، ابتداءً بالكتاب الثاني حسبَ ترتيب المُصنّف ، وعنوانه : نظريّة الفضيلة ، المجلّد ١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) المعاش والمعاد ، ص ١٣٢ .

(٤) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ج١ ، ص ٢٦٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" واعلمْ أنّ الحكماء لم تذمّ شيئاً ذمَّها أربعَ خِلال : الكذب ... ، والغضب ... ، والجزَع عند المصيبة التي لا ارتجاعَ لها ... ، وزعموا أنّه لم يغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصِغَر همّته عن الوفاء ، وخمولِ قـدْره عـن احتمال المكاره في جنب نَيْل المكارم . وبقدْر ما ذمّت الحكماء هذه الأخـلاق الأربعـةَ ، فكذلـك حَمِدتْ أضدادها من الأخلاق " ؛ وهي : الصبر ، والحِلْم ، والصدق ، والوفاء ؛ " فهنّ تمامُ كلّ دِين ، وصلاحُ كلّ دنيا . وأضدادُهنّ سبب كلّ فُرقة ، وأصل كلّ فساد " [١].

وفيما يلي أعرض نماذج من الثنائيّات المتضادّة في أدب الجاحظ الأخلاقيّ :

١ – ثنائيّة (العقل / الهوى) :

يمكننا أن نعدّ من الثنائيّات المركزيّة في أدب الجاحظ الأخلاقيّ ثنائيّةَ (العقل) و (الهـوى) ؛ وهما مفهومان متضادّان ، يتجاذبانِ الإنسان في جميع مساعيه وتصرّفاته في هذه الحياة .

ومفهوم (الهوى) عند الجاحظ يعني : الانقياد للشّهواتِ والملاذّ ، وجعلَها موجّهاً لسـلوك الإنسان ، دون العقل والدين اللذين يشكّلان المصدر الأساس للتشريع عند الجاحظ – شأنه شأن غـيره من المعتزلة – سواء في الأخلاق وفي غيرها من الموضوعات . مع أنّ الاحتكـام إلى العقـل والديـن والتصرُّفَ بمقتضاهما لا يَحْرِم المرء من كثيرٍ من المتع والملذّات ، بل من شأنه أن يبلّغه حظّاً وافراً منـها ، وإن كانت مِن نوع مختلف عن تلك التي يصيبها مَن ، ينقاد لهواه – بشرط أن لا تصيرَ تلك المتـع والملذّات غايةً في ذاتها يسعى المرء إلى تحقيقها ، وأن تظلّ شيئاً يأتي تلقائيّاً دونَ القصد إليه . ويدلّ على ذلك قـولُ الجاحـظ ممتدحاً القاضي محمـد بن أحمـد بن أبي دؤاد ، في مطلع " رسـالة المعـاش والمعاد " : " وإنّي عرفتُك – أكرمك الله – في أيّام الحداثة ، و حيث سلطانُ اللّهو المُخْلِقُ للأعـراض غلبُ على نُظَرائك ، وسُكْر الشباب والجِدَةُ [اليسار والغِنَى] المتحيّفين للدين والمروءة مستولٍ علـى لِداتك [أترابك] . فاختُبرتَ أنت وهم ، فَفُقْتَهم ببَسْطَةِ المقدرة ، وحُمّيا الحداثة [حِدّتها] ، وطَـوْل الجِدَة [سعتها] ، مع ما تقدّمتَهم فيه من الوَسامة في الصورة ، والجمالِ في الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ تكاد أنْ تُوجب الانقياد للهوى ، ولُجَجٌ من المهالك لا يسلم منها إلاّ المنقطعُ القرين في صحّة الفِطـرة ، وكمال العقل . فاستعبدَتْهم الشّهواتُ حتّى أعطَوْها أزِمّة أديانهم ، وسلّطوها على مروءاتهم ، وأباحوها أعراضَهم ؛ فآلتْ بأكثرهم الحالُ إلى ذُلّ العُدْم [الفقر] ، وفَقْد عِزّ الغِنَى في العاجل ، والندامةِ الطّويلة

(١) المعاش والمعاد ، ص ١٢٣ –١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحسرةِ في الآجل . وخرجْتَ نسيجَ وحدِك ، أوْحديّاً في عصرك ؛ حكّمتَ وكيل الله عندك – وهو عقلك – على هواك ، وألقيتَ إليه أزمّة أمرك ، فسلك بك طريق السّلامة ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، و بلغ بك من نَيْل اللذّات أكثرَ مّما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثرَ مّما نالوا ، وصرّفك من صنوف النِّعَم أكثر مّما تصرّفوا ، وربط عليك من نِعَم الله التي خوّلك ما أطلقه من أيديهم إيثارُ اللّهو وتسليطُهم الهوى على أنفسهم ؛ فخاض بهم سُبُل تلك اللُّجج ، واستنقذك من تلك المعاطب ؛ فأخرجك سليم الدين ، وافرَ المروءة ، نقيّ العِرْض ، كثير الثراء ، بيّنَ الجِدَة . وذلك سبيلُ مَنْ كان مَيْله إلى الله تعالى أكثرَ من ميله إلى هواه " (١).

لقد كان تحكيم القاضي لعقله أيّام شبابه ، وميلُه إلى الله ، سبيلاً بلغتْ به إلى نَيْل اللذات والشّهوات والنِّعَم ، أكثرَ وأطولَ مدّةً مّما ناله أترابُه الذين اتّبعوا شهواتهم ، وجعلوها مقصداً لهم منذ البداية ، وأهملوا عقولهم ؛ فآل بهم ذلك إلى الفقر والذلّ والندم والحسرة . ومن هنا ، فإنّه ليس كلّ لذّة بمستنكَرةٍ في ذاتها ، ولا هي مخالفة للعقل ؛ ولكنّ المستنكَر هو الائتمار لها ، والذّهابُ معها كلّ مذهب – وهذا هو بالضبط معنى الهوى – ، ولقد جعلها الله سبحانه (أعني اللّذة) ، وسيلةً إلى كثير من المنافع في الدنيا ؛ فـ " لولا حلاوةُ الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحلّ ، (٢) ولكنّ الله – عزّ وجلّ – حبّبها إليهم لهذا السّبب ، كما جعل عِشق النساء داعيةً للجماع ، ولذّة الجِماع سبيلاً للنّسل ، والرقّةَ على الولد عوْناً على التربية والحضانة – وهما كان النُّشوء والنّماء – ، وحُبَّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ، والغذاءَ سبباً للبقاء وعمارةِ الدنيا ".(٣)

وليست مجاذبةَ الهوى ، وتغليبُ العقل عليه ، بالأمر السّهل ولا اليسير ؛ بل إنّه يتطلّب من المرء رياضةً شاقّة ، وممارسةً عسيرة . والحاصلُ أنّ أكثر الناس لا يقوى على احتمال هذه الكُلْفةِ الثقيلة ؛ فينحرف مع هواه بعيداً عن سبيل عقله . يُؤكّد الجاحظ هذا المعنى بقوله : " لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع ، ومغالبة الأهواء ؛ فإنّ الدولة لم تزلْ للهوى على الرأي طولَ الدهر . والهوى هو الداعيةُ إلى إذاعة السرّ ، وإطلاقِ اللسان بفضول القول . وإنّما سُمّي العقل عقلاً وحِجْراً ... ؛ لأنّه يزمّ اللّسان ويخطِمه ، ويَشْكُلُه ويَرْبُثه ، ويقيّد الفضلَ ويعقِله عن أن يمضي فُرُطاً في سبيل الجَهْل والخطأ والمضرّة ، كما يُعقل البعيرُ ، ويُحجَر على اليتيم ... . ومن شأن الصدر... أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل منه ؛ فيستريحَ إلى نبذه ، ويلذّ إلقاءه على اللّسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب

(١) المعاش والمعاد ، ص ٩١ – ٩٢ .

(٢) إذ قام بحيثها من غير تواطؤ مقام العِيان ، ووجب لذلك تصديقها . كتمان السرّ ، ص ١٤٣ .

(٣) رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

به نفسَه في خلَواته ،حتّى يُفضي به إلى غيره ممّن لا يرعاه ولا يَحُوطه . كلّ ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعملَ فضولَ النظر ، فدعتْ إلى فضول القول " [١].

والحِلْم هو أوْثقُ الأخلاق صلةً بالعقل ؛ إذ هو " الاسم الجامع لكلّ فضل ، وهو سُلطان العقل القامع للهوى " [٢] . فهذا الخُلُق يُعدّ – في نظر الجاحظ – أداة العقل الرئيسة في محاربة الهوى ومدافعته .

والجاحظُ ، إذ يُولي مفهوم " الحِلْم " كلّ هذه الأهميّة ، فإنّه يُوسّع من مجال وظيفته ؛ فلا تقتصر على " قَمْع الغضب ، وتسكين قُوّة الشِّرّة [الحِدّة والغضب] ، وإسقاط طائر الخُرْق [الحُمْق] " [٣] ؛ بل تتجاوز ذلك لتشمل أيضاً " قمع فَرْط الرّضا وغلبةِ الشّهوات ، والمنعَ من سوء الفرح والبطَر ، ومن سوء الجزَع والهلع ، وسرعةِ الحمد والذّم ، وسوءِ الطّبع والجشَع ، وسوءِ مناغزة الفُرصة ، وفَرْط الحِرْص على الطّلِبة ، وشدّةِ الحنين والرقّة ، وكثرةِ الشّكوى والأسَف ، وقرب وقت الرضا من وقت السّخط ، ووقت السّخط من وقت الرضا ، ومن اتّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزنٍ معلوم ، ولا تقديرٍ موصوف ، وفي غير نفعٍ ولا جَدًى [جَدْوَى وفائدة] " [٤].

والخُلاصة : أنّ الحِلْم – بمفهومه الواسع – من شأنه أن ينأى بالمرء عن التطرّف في جملةٍ من الأخلاق ، حتى يصل إلى حدّ التوازن والاعتدال .

ومّما لا شكّ فيه أنّ مكوّنات الثقافة الدينيّة ؛ من قرآنٍ وحديث صحيح قد ساهمت بنصيب كبير في صياغة مفهوم الهوى في فِكر الجاحظ ، وإقامته بإزاء العقل المتضمّن لمقاصد الشريعة . ونستطيع أن نتبيّن ذلك بسهولة مِن استقراء دلالات الألفاظ المشتقّة مِن مادّة (هـ و ى) في القرآن الكريم ، كما في قوله – تعالى – : " وأمّا مَنْ خاف مَقام ربّه ، ونَهى النفسَ عن الهَوى ، فإنّ الجنّةَ هي المأْوَى " [٥]. وقوله : " ومَنْ أضَلُّ ممّن اتّبع هواه بغيرِ هُدًى مِن الله " [٦] . وقوله : " ولا تتّبعْ

---

(١) رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه ، ١٤٢ – ١٤٣ .

(٥) النازعات ، آية ٤٠ .

(٦) القصص ، آية ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهواءهم عمّا جاءك مِن الحقّ " (١) . وقوله : " أفَمَنْ كان على بَيِّنَةٍ مِن ربّه كَمَنْ زُيّن له سُوءُ عملِه واتّبعوا أهواءهم " (٢). وقوله : " أفَرَأيْتَ مَن اتّخَذَ إلَهَه هَواه ، وأضَلّه اللهُ على عِلْمٍ ؟! " (٣). ومن أحاديث الرسول – ص – التي تذهب هذا المذهب في معنى (الهوى) ، قوله : " الكَيّس مَن دان نفسَه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز مَنْ أتْبع نفسَه هواها وتمنّى على الله ".(٤)

"ولعلّ حديث الجاحظ عن الشّهوات ، وتحذيرَه من اتّخاذها غايةً أو مقصداً في الحياة ، وحثّه على تحكيم العقل في طلبها – يذكّرنا بما سبق أن نبّه إليه أرسطو عندما قال : " إنّ الخطر الذي يلزم دائماً اتّقاؤه بغاية الانتباه هو ذلك الذي يُرضينا ، هو اللذّة ؛ لأننا لا نكون ألبتّة في هذه الحالة قُضاةً لا يرتشون . وإنّ العواطف التي كان يشعر بها شيوخ (طروادة) في حضرة (هيلينا) يجب أن تكون هي إحساساتِنا تلقاء اللذّة . فلْنعرفْ في كلّ ظرْف أن نكرّر لأنفسنا ما قالوه ؛ لأنّنا إذا وصلنا إلى دفع اللذّة فنحن في أمنٍ من أن نرتكب من الزّلل إلاّ أقلّه ".(٥) وعندما قال في موضع آخر : " إنّ كلّ تعاطٍ للذّة يزيد – أيضاً – العادة الأخلاقيّة التي تقابلها ، ومتى كبُرتْ هذه الشهواتُ واشتدّت قوّتُها إلى حدّ الإكراه فإنّها تطرد العقل نفسَه تماماً . فيلزم حينئذٍ أن تكون اللذّات معتدلةً قليلة العدد ، وأنْ لا يكونَ بها شيءٌ ما مضادٌّ للعقل . متى عرف الإنسان أن يُطيع أوامر العقل ، أمكن أن يُسمّى مطيعاً مؤدّباً معتدلاً . وهذه الطّاعة التي يجب على الطّفل أن يُظهرها في كلّ سلوكه بالنّسبة لأوامر مربّيه ؛ هي الطّاعة التي يجب على الجزء الشّهويّ للنّفس أن يُؤدّيها للعقل . على هذا ، فالجزء الشهويّ من نفس الإنسان المعتدل لا ينبغي ألبتّة أن يُبطِن إلاّ الرغباتِ المطابقةَ للعقل الذي يُقرّها ؛ لأنّ العاقل كالعقل ليس له غَرَضٌ آخرُ إلاّ الخيرَ ؛ فهو لا يرغب إلاّ فيما ينبغي ، ويرغب فيه كما ينبغي ، ومتى ينبغي أن يُرغَب فيه ، وذلك هو أيضاً بالضبط ما يأمر به العقلُ ".(٦)

ويذكّرنا – أيضاً – هذه الصورة التي رسمها أفلاطون من قبلُ ؛ لبيان تلك الضدّيّة التي تَسِمُ العلاقة بين العقل وبين الشّهوات والأهواء ؛ حين قال : " فَلْنتصوّرْ أنّ كلّ واحدٍ منّا هو آلةٌ حيّة خارجةٌ من يد الآلهة . فالشّهوات التي نحسّها هي كأنّها حِبالٌ أو خيوطٌ يجذبنا كلٌّ إلى ناحيته ، وبتعاكُس حركاتها تجذبنا إلى أعمالٍ متضادّة . وهذا ما يُقرّر الفرق بين الرذيلة وبين الفضيلة . ولكنّ

---

(١) المائدة ، آية ١٤ .

(٢) محمد ، آية ١٤ .

(٣) الجاثية ، آية ٢٣ .

(٤) رواه الترمذيّ في الجامع الصحيح ، ج ٤ ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٢٤ ، رقم ٢٤٥٩ .

513299

(٥) أرسطو – علم الأخلاق ، ج ١ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسّ السّليم يدّلنا على أنْ لا نُطاوع إلاّ أحد هذه الخيوط ، ونتبع اتّجاهَه ، ونقاوم شديداً كلّ ما عداه من الخيوط الأخرى ؛ ذلك هو خيط الذّهب المقدّس ؛ خيط العقل الذي هو القانون العامّ للممـــالك والأشخاص . ينبغي أن يكون الحُكم للعقل ما دام أنّـــه هو محلُّ الحِكْمة ، وأنّه تكلّف بأنْ يسهر علـى النفس بتمامها . ولا ينبغي ألبتّة أن يُصغي المرء في نفسه إلاّ إلى صوت العقل ؛ لأنّ العقل المستقيم إنّمـا هو صوت الله يُخاطب به أنفسنا ... " [١].

٢ – ثنائيّة (الجِدّ / الهَزْل) :

يؤمن الجاحظ بالهَزْل والضحك والجَمام إيمانه بالجِدّ والرصانة والوقار ، ويُؤكّد حاجة الإنسـان إليهما جميعاً ، على أن يأتي كلٌّ في موضعه المناسب ، وبما يقتضيه المقام ، وشريطةَ أن تُســتخدَم لـه الأدواتُ التعبيريّة الملائمة ؛ لأنّه " إذا كان موضع الحديث على أنّه مُضحِكٌ ومُلْهٍ ، وداخلٌ في باب حدّ المزح ، فأُبدلتْ السخافة بالجزالة [٢] انقلب عن جهته ، وصار الحديث الذي وُضع على أن يسرّ النفوسَ يكرُبها ويغمّها " [٣] ولا يزال الجاحظ يردّد العبارة القائلة : " لكلّ مقامٍ مقالٌ " [٤].

فأمّا الجِدّ والرزانة ، فلم يكن ثمّة خِلافٌ أو مشكلة في تقبّل الرأي العامّ في عصر الجاحظ لهما . وأمّا الهَزْل والضّحك والترفيه ، خاصّة إذا كانت تمسّ بعض الموضوعات الحسّاسة ؛ كموضوع الجنـس مثلاً ، فإنّ تسويغها – فيما يبدو – كان يتطلّب من الجاحظ حِجاجاً طويلاً وعسيراً مع طائفـةٍ مـن المتزمّتين في مجتمعه . وكعادته ، فإنّه سيلجأ في هذا الحِجاج إلى منابع المعرفة الثلاثة التي لا ينفكّ يمتـح منها في كلّ شأن ؛ وهي : العقل ، والنقل ، والتجربة العمليّـة ، بما يربط بينها من علاقـاتٍ تبـادُلٍ واثيقةٍ . والجاحظُ – عموماً – يبني جميع معارفه النظريّة والعمليّة على هذه الأسس الثلاثة [٥] . ومِنْ هنا لم يكن له مندوحةٌ عن أن يصدر في تسويغه للهَزْل والضّحك عن تلك الأسس جميعاً أو بعضها :

فأمّا من جهة العقـــل ؛ فإنّ القارئ متى كان مُدرّباً مُجرّباً مُطّلِعاً وناقداً مميّزاً ، فإنّه لن يضـيره النظر في كلّ فنّ من الجِدّ والهَزْل ؛ ليَخرجَ بذلك من شكلٍ إلى شكل ؛ فإنّ الأسماع قد تملّ الأصوات

---

(١) علم الأخلاق ، مقدّمة المترجم من اليونانيّة إلى الفرنسيّة ، ص ٣٣ – ٣٤ ، نقلاً عن غير واحد من مؤلفات أفلاطون ، مدرجـة في حاشية الصفحة نفسها .

(٢) الصواب : " فأبدلت الجزالة بالسخافة " ؛ لأن الباء في هذا التعبير تأتي مع المتروك .

(٣) رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان ، في رسائل الجاحظ ، ج٢ ، ص ٩١ . وقابله بما ورد في كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٩ .

(٤) انظر الجواري والغِلمان ، ص ٩٣ ، والحيوان ، ج٣ ، ص ٤٣ .

(٥) راجع في هذا البحث : " مصادر الأحكام الخُلقيّة عند الجاحظ " ، الفصل الأوّل ، ص ١٦ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المُطرِبة ، والأوتار الفصيحة ، والأغانيّ الحسنة ، إذا طال ذلك عليها ".[١] هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : فإنّ الألفاظ الصريحة أو الماجنة التي ربّما تُستخدَم في بعض الأحاديث الهَزْليّة ، والتي تدفع المتحفّظين إلى الإعراض عنها والاعتراض عليها ، هي ممّا لا يُعقل خطرُه – في نظر الجاحظ – على الإطلاق ؛ لأنه " إنّما وُضعتْ هذه الألفاظ ليستعملها أهلُ اللغة ، ولو كان الرأي أن لا يُلفَظ بها ، ما كان لأوّل كونها معنى ، ولكان في التحريم والصَّوْن للغة العرب أنْ تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها "[٢]، ولكنّ " لكلّ مقام مقالٌ " ؛ فمتى اقتضى المقام تلك الأسماء والألفاظ ، فلا بأس في استعمالها ؛ للتعبير عن المعاني المُضمَّنة فيها ، مَثَلُها مَثَلُ غيرها من الألفاظ .

وأمّا من جهة النقل ؛ فإنّ النصوص المأثورة التي تحمل ألفاظاً ومعانيَ صريحةً ومتحرّرة من قيود التزمّت والتشدّد ، وتُوصي بالمراوحة بين الجِدّ والهزْل ؛ للترفيه على النفوس ، والتخفيف عنها ، وتهيئتها لتقبُّل ما يُلقَى عليها من جِدّ – تُسعف الجاحظ بأكثر ممّا يحتاج . وقد نثر طائفة مُجزية منها في مطلع رسالة " مفاخرة الجواري والغِلمان " ،[٣] وفي أوّل المجلّد الثالث من " كتاب الحيوان "[٤] ؛ من بين حكايةٍ وخبرٍ وحديثٍ نبويّ شريف .

وأمّا من جهة التجربة ؛ فإنّها قضتْ – كما يجد الجاحظ – بأنّ أكثر المتزمّتين تجاه حديث الجنس والعلاقات الجنسيّة خاصّة ، من الذين يُظهِرون النُّسك والتقشّف ، إنّما يحملهم على ذلك التصنّعُ والرّياء ، وليس العفّة والاحتشام ؛ لأنّ هذا الموضوع – بالذات – مرتبط بغريزة شديدة الاستحكام في نفوس جميع الناس[٥] ، ولا يخلو إنسانٌ صحيحُ الجسم والنفس من أنْ يكون متعلّقاً منها بسبب ، ويتوقَ إلى سماع كلّ حديث له صلّةٌ بها . وعلى عكس ما يُظهر أولئك المتزمّتون ؛ فإنّه ليس مع الواحد منهم – في المحصول – " من المعرفة والكرم ، والنُّبل والوقار ، إلاّ بقدْر هذا التصنُّع "[٦].

هذا ، ولا نريد أن نُغفل أنّ للجاحظ في هذا الهَزْل أهدافاً منهجيّة متعلّقةً بطريقته الخاصّة في التأليف ؛ إذ دأب على أن يتّخذ من المراوحة بين الجِدّ والهزْل وسيلةً لتنشيط القارئ ، ودفع الملل

---

(١) رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان ، ص ٩١ .

(٢) رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان ، ص ٩٣ ، وقارِن بالحيوان ، ج٣ ، ص ٤٣ .

(٣) (٤) انظر رسالة (مفاخرة الجواري والغِلمان) ، الرسائل ، ج٢ ، ص ٩١ – ٩٥ .وقابل بـ (كتاب الحيوان) ، ج٣ ، ص ٤٠ – ٤٣ .

(٥) انظر (رسالة النساء) ، ج٣ ، ص ١٤١ .

(٦) مفاخرة الجواري والغِلمان ، ص ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسآمة عنه ، وحفزه لمتابعة قراءة الكتاب أو الموضوع الذي هو آخِذٌ فيه ، ثمّ استقطابِ فئات مختلفةٍ ومتنوّعةِ الاهتمامات من القُرّاء ؛ فصاحبُ الجِدّ يجد في كتبه غايتَه ، وطالبُ الهزْل يقع فيها على مُبتغاه ، وحتّى الظُّرَفاء وأصحابُ البَطالات لا يخطئون ضالّتهم في مؤلّفات الجاحظ ؛ وبذلك جاءت كتبُه متنوّعةً في موضوعاتها ، تُخاطب أهواءً شتّى ، وتتّجه إلى مستوياتٍ متفاوتةٍ من القرّاء . يقول في ختام رسالة " الشارب والمشروب " ، مذكّراً بمنهجه فيها ، وهو – على كلّ حال – المنهج الذي يكاد ينسحب على سائر كتبه ، ولا يَغفُل عن التصريح به في كثيرٍ منها – : " فخلطتُ لك جِدّاً بهزْل ، وقرنتُ لك حُجّةً بمُلْحة ؛ ليخفّ مؤونةُ الكتاب على القارئ ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع ؛ فجعلتُ الهزْل بعد الجِدّ جَماماً ، والمُلحةَ بعد الحُجّة مُستراحاً " (١).

والجاحظ – بعدُ – لا يَعدّ نفسَه مبتدعاً في هذا المنهج ؛ وإنّما يتّبع فيه سنّة مَنْ قبله من العلماء والحكماء ؛ ولذلك فإنّه لا يُسمّي ما يُوشّح به كتبه من ضُروب الهزْل والفكاهة سُخفاً ولا هَذَراً . يقول في معرِض بيان طريقته في التأليف : " ومتى خرج [القارئ] من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثمّ يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حِكَم عقليّة ، ومقاييسَ سِداد ، ثمّ لا يترك هذا البابَ – ولعلّه أن يكون أثقلَ ، والملالُ إليه أسرعَ – حتّى يُفضي به إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخفٍ وخُرافة ، ولست أراه سُخفاً ؛ إذ كنتُ إنّما استعملتُ سيرةَ الحكماء ، وآدابَ العلماء " (٢) . وكذلك قولُه معلّلاً تلك الطريقةَ ، خاصّةً في الطّوال من كتبه : " وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السِّيرةَ ، كان هذا التدبيرُ لِما طال وكثُر أصلَح . وما غايتنا من ذلك كلّه إلاّ أن تستفيدوا خيراً " (٣). وكان الجاحظ قد بدأ " كتاب الحيوان " بالردّ على مَنْ عاب كتبه وطعَن عليها ، وتقريعِ مَن اعترض على ما في كتابه مِن هزْلٍ وبَطالة ، بقوله : " وقد غلّطك فيه بعضُ ما رأيت في أثنائه مِنْ مَزْحٍ لم تعرف معناه ، ومِنْ بَطالةٍ لم تطّلع على غَوْرها ، ولم تدرِ لِمَ اجتُلبتْ ، ولا لأيّ علّةٍ تُكُلّفتْ ، وأيّ شيء أُريغَ بها ، ولأيّ جدٍّ احتُمل ذلك الهزْل ، ولأيّ رياضةٍ تُجُشّمَتْ تلك البَطالة ، ولم تدرِ أنّ المزاح جِدٌّ إذا اجتُلب ليكون علّةً للجدّ ، وأنّ البَطالة وقارٌ ورزانة إذا تُكُلّفتْ لتلك العاقبة " (٤). وتلك عِلّةٌ أخرى ؛ فإنّ الهَزْل قد يُتوَصّل به إلى

---

(١) يصف الجاحظ منهجه هذا في التأليف في مواضع شتّى من كتبه ؛ انظر – مثلاً – ما ورد في (الحيوان) ، ج١ ، ص ١٠ – ١١ ، ٢٥ ، ٣٧ – ٣٨ ، ٩٣ – ٩٤ ، وج٣ ، ص ٥ – ٧ ، وفي (البيان والتبيين) ، ج٣ ، ص ٣٦٦ ، و (رسالة مفاخرة الجواري والغلمان) ، ج٢ ، ص ١٢٥ ، وكذلك النصّ الذي استشهدنا به من (رسالة الشارب والمشروب) ، الرسائل ، ج٤ ، ص ٢٨١ .

(٢) كتاب الحيوان ، ج١ ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجِدّ ؛ فيصير حكمه حُكْمَ الجِـدّ ، كما أنّ البَطالة قد يُستعان بها على الوقار والرزانة ؛ فيصبح الحكم فيها كالحكم فيهما .

ومن أشدّ الأمثلة وضوحاً وأبلغها دلالةً على هذا التوجّه المنهجيّ عند الجـاحظ في مختلف مصنّفاته : تلك الطّائفةُ من الطُّرَف والنوادر الهازلة التي أثبتها مُلحَقةً بالمناظرة التي عقدها بين (صاحب الجواري) و (صاحب الغِلمان) [١] .

والحقُّ أنّ الجاحظ ، وإنْ كان معروفاً عنه نزعتُه التحرّريّة إلى حدٍّ ما في التعبير عن العلاقات بين الذُّكور والإناث ، والممارساتِ الجنسيّة المتّصلة بها ، ممّا يحرص الرأي العامّ في المجتمع على إخفائه والتستُّر عليه ، ولا يُحبّذ المحافظون من الكُتّاب التصريحَ به ، ويُفضّلون أنْ يظلّ قصيّاً عن النشر — فإنّه في هذه الرسالة خاصّة يتجاوز ما عُرف عنه في بقيّة كتبه — إذا استثنينا بعض الحكايات التي أودعها في ثنايا " كتاب الحيوان " ، والتي تصوّر طائفةً من الناس ، بلغت ميولهم الجنسيّة هـوّةً سحيقـةً مـن الشذوذ ؛ إذ لم يكتفوا بمخالطة أبناء نوعهم من البشر ، حتّى جاوزوهم إلى بعض أصناف الحيـوان ؛ كالكلاب [٢] — من تصريحٍ وتحلٍّ من كثيرٍ من القيود العُرْفيّة الضابطة للحديث في تلك الموضوعات ، ليس من وجهة نظر المتزمّتين فحسب ، بل حتّى من وجهة نظر أكثر الناس اعتدالاً .

وعلى أيّة حال ، فإنّ تلك الطُّرَفَ إنْ كانت حقيقيّةً أو من صناعة بعض الظُّرَفاء والمتماجنين في المجتمع ، فإنّ عناية الجاحظ بها إلى درجة حفظها وتضمينها بعضَ كتبه ، ربّما يدلّ على أنّها تشي بلـونٍ خاصّ من القِيَم والمذاهب الخلقيّة الموجِّهة لسلوكات شريحةٍ اجتماعيّة معيّنةٍ في عصره ، فيما يخصّ ذلك النوع من العلاقات والممارسات . وهي — بالتأكيد — قيمٌ ومذاهب منحرفةٌ ، أقلُّها الاستهانةُ بأفعـال تُعدّ دينيّاً وعرفيّاً من كبائر الفواحش ؛ كالزّنى واللّواط ، وغيرهما من صور الشذوذ الجنسي ، والمجـاهرةُ بها . وبذلك يُصبح لتلك الطُّرَف — بالإضافـة إلى قيمتها الفنيّة — قيمةٌ علميّة توثيقيّة عنـد الـدارس المحدَث ، الذي يريد أنْ يحصل على صورةٍ واقعيّة صادقة لمجتمع ذلك العصر ، خاصّـة مـن الناحيـة الأخلاقيّة .

---

(١) انظر تلك الطُّرَفَ في ذيل (رسالة مفاخرة الجواري والغِلمان) ، الرسائل ، ج٢ ، ص ١٢٥ — ١٣٧ .

(٢) انظر — على سبيل المثال — ج١ ، ص ٣٧٠ — ٣٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللتحقيق ، فإنّ تلك الطُّرفَ لا تدور جميعُها حول سلوكاتٍ جنسيّة شاذّة أو منحرفة ؛ إذ إنّ بعضها لا يُعدّ مضمونه كذلك ؛ فما يدور بين الرجل وزوجه أو مملوكته – مثلاً – ليس عيباً أو مستنكراً في حدّ ذاته ، ويظلّ الخلاف قائماً في تسويغ حكايته ووصفه للنّاس .[١]

غير أنّ تلك المجموعة من الطُّرَف – بالرغم من كلّ الملاحظات السّابقة – تظلّ تُلقي الضّوء على أنماطٍ من الأخلاق الاجتماعيّة غير تلك الأنماط الشاذّة التي وصفناها والتي تُلمح من ظاهرها للوهلة الأولى ؛ لقد كانت غالبيّة المجتمع البصريّ الذي نشأ فيه الجاحظُ – على اختلاف فئاته – تتمتّع بأخلاقٍ سهلةٍ دَمِثةٍ ، وتتعامل بتلقائيّة وعفْويّة ؛ حتّى فيما يتعلّق بأشدّ الأمور حرَجاً وأدْعاها للتحفّظ . كذلك كان الرجال والنساء والغِلمان والخِصيان والمخنّثون والحرائر والجواري ...الخ[٢] . وهذا ما أكّده شارل بيلاّ بقوله في وصف مجتمع البصرة في عصر الجاحظ : إنّه " وسطٌ سادتْ فيه الخِفّةُ والتهكّم ، وعمّه الميلُ إلى العبث والتندّر "[٣].

ولعلّي لا أُجانب الصّوابَ إذا قلتُ : إنّ أفضل نموذجٍ فنيّ يعبر عن النزعة التضادّيّة في كتابات الجاحظ الأخلاقيّة – وفي أدبه عامّة – هو ذلك المتمثّل في رسالته " في الجِدّ والهَزْل " ؛ ذلك أنّ المقابلة بين المفهومين تبلغ درجةً عالية من الفنّيّة عندما يمتزجان في الرسالة ، ولا يعود بإمكان القارئ أن يفصل بينهما بحدودٍ قطعيّة ؛ فمضمون الرسالة من قِيَمٍ وتوجيهات خلُقيّة ومعارفَ متنوّعةٍ – هو جِدٌّ بلا شكّ ، ولكنّ شكلها الذي اختاره لها الجاحظ ؛ أعني صياغتَها على هيئة رسالة عَتْب موجّهةٍ إلى الوزير الزيّات ، بكلّ ما فيها من مُبالغاتٍ ومزاعمَ وصورٍ من التظلّم والاستعطاف الفكاهيّين – يُضفي عليها صِبغةً هزْليّة ملموسة .

وبذلك يكون الجاحظ قد جسّد مفهومي : الجِدّ والهَزْل في هذه الرسالة بأسلوبٍ فنيّ غير مباشر ، وبطريقةٍ أدبيّة راقية ؛ إذ إنّه لم ينهج فيها النهجَ التقليديّ الذي سلكه في بعض كتبه ورسائله ؛ كرسالة " فصل ما بين العداوة والحسَد "[٤] و رسالة " النُّبل والتنبُّل وذمّ الكِبْر "[٥] ، والتي كان شأنه فيها أن يُفاضِل بين المفهومين المتقابلين في شكل مناظرةٍ سافرةٍ ؛ بهدف تقديم أحدهما

---

(١) انظر – على سبيل المثال – طرفة رقم ١١ / ص ١٢٩ ، وأخرى برقم ١٧ / ص ١٣١ – ١٣٢ .

(٢) يمكن الاستدلال على ذلك – بصفة خاصّة – من الحكايات : ٧ / ١٢٧ ، ١١ / ١٢٩ ، ١٥ / ١٣١ ، ١٧ / ١٣١ ، ٢١ / ١٣٤ – ١٣٥ .

(٣) انظر شارل بيلا – الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ص ٣٧٣ .

(٤) انظرها في (رسائل الجاحظ) ، ج١ ، ص ٣٣٧ – ٣٧٣

(٥) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٦٩ – ١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الآخر ، أو بيانِ محاسن كلٍّ منهما ومساوئه . ولكنّه في هذه الرسالة لا يعقد مثل ذلك النوع من المناظرة بين " الجِدّ " و " الهَزْل " ؛ ليُفاضلَ بينهما ؛ بل يجسّدهما في بنية الرسالة ومضمونها .

وفيما يلي أسوقُ فِقْرةً من الرسالة ، يتبدّى فيها تعاضُد مفهومي : الجِدّ والهَـزْل في شكل الرسالة ومحتواها . وتأتي هذه الفِقرةُ في سياق تصويره بعضَ مكايد الزيّات – المتخيَّلةِ – له :

يقول : " واللهِ لو دبّرها الإسكندرُ على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلّبُ على سفيانَ ابنِ الأبرد ، وفُتحتْ على هرثمةَ في مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبرّها لُقَيم بنُ لقمان على لقمانَ بنِ عاد ، ولو أراغها [أرادها] قيس بن زهير على حِصْن بن حذيفة ، ولو توجّهتْ لِكهّان بني أسد على دُهاة قريش – لقد كان ذلك من تدبيرهم نادراً بديعاً ، ولكان في مكايدهم شاذّاً غريباً . وإنّها لترتفع عن قصير في كيد الزّبّاء ، وعن جَذيمةَ في مشاورة قَصير . وما إخالها إلاّ ستدِقّ على ابن العاص ، وتغمض على ابن هند ، ويَكِلُّ عنها أخو ثقيف ، ويستسلم لها ابنُ سميّة .

هذا – واللهِ – التدبيرُ ، لا مخاريقُ العرّاف ، وتزاويق الكاهن ، وتماويل الحاوي ، ولا ما ينتحلها صاحبُ الرّئيّ ؛ بل تضلّ فيها رُقَى الهند ، وتقرّ بها سَحَرةُ بابل " [1].

فَمَنْ للقارئ بكلّ هذا الحشد من المعارف المتنوّعة ، في مثل هذا السّياق القصير المكثّف ، وفي هذا الإهاب الفنيّ الهازل المُمتع ؟ وليست كلّ المعارف التي ضمّنها الجاحظُ فِقَر هذه الرسالةِ هي من نوع المعارف التاريخيّة والأسطوريّة ؛ بل إنّها – أحياناً – تشتمل على تحليلات نفسيّة وفسيولوجيّة في غاية الطّرافة ، وبالأسلوب الفنيّ الهازل نفسه . يقول – مثلاً – في تحليل ما نستطيع أن نسمّيه " سيكولوجيا الخُصومة أو القطيعة " ؛ مبيّناً مراحلها وَفق تسلسل دقيق يتّسم بالإحاطة والاستقصاء : ابتداءً بإرادة الخصومة ، وانتهاءً بالإسراف والاعتداء – وأيّ أنواعها يكون أشدَّ إيلاماً ، وأشقّ على النفس : أبالتدرّج في تلك المراحل ، أم بالمفاجأة بها على غفلة – :

" فلو كنتَ [يعني الوزير الزيّات] – إذ أردتَ ما أردتَ ، وحاولتَ ما حاولتَ – رفعتَ قبلَ كلّ شيء المؤانسةَ ، ثمّ أثبتَّ المؤاكلةَ ، ثمّ قطعتَ البِرّ ، ثمّ أذنْتَ مع العامّة ، ثمّ أعملْتَ الحِرْمان ، ثمّ صرّحتَ بالجَفْوة ، ثمّ أمرتَ بالحِجاب ، ثمّ صرّمتَ الحبلَ ، ثمّ عاديْتَ واقتصدتَ ، ثمّ – مِنْ بعد ذلك

---

(١) انظر النصّ ، وتفسير الألفاظ والأسماء التي حفل بها في (رسالة في الجِدّ والهَزْل) ، ضمن (رسائل الجاحظ) ، ج١ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلّه – أسرفتَ واعتديتَ – لكنتُ واحداً مّمن يصبر أو يجزع ؛ فلعلّي كنتُ أعيش بالرَّفَق [١] ، وأتبلّغ بحُشاشَة النَّفْس ، وأُعلّل نفسي بالطّمَع الكاذب . ولكنّ فُجاءات الحوادث ، وبغْتات البلاء ، لا يقوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبلُ الراسي . فلم تَدَعْ غايةً في صرف ما بين طبقات التعذيب إلاّ أتيتَ عليها ، ولا فُضول ما بين قواصم الظّهْر إلاّ بلغتَها . فقد متُّ الآن ، فمع مَنْ تعيش ؟ بل قد قتلتني ، فمن الآنَ تُعاشِر ؟ كما قال ديوست المغنّي لكسرى حين أمر بقتله – لقَتْله تلميذَه بلهبذ – : قتلتُ أنا بلهبذ ، وتقتُلني ، فمن يُطربك ؟ قال : خلُّوا سبيلَه ؛ فإنّ الذي بقي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحُجّةِ " [٢].

٣ – ثنائيّة (الصّداقة / العداوة) :

عُني الجاحظ في أدبه عنايةً ملحوظة بمفهومي : الصداقة ، والعداوة ؛ فبسط الحديثَ عن العداوة في أوّل " كتاب الحيوان " ، وأفرد له رسالةً خاصّة ناظر فيها بينه وبين مفهوم الحسد ؛ سمّاها " فصل ما بين العداوة والحسد " ، وخصّ الصداقة – كذلك – برسالةٍ جعل عنوانَها " المودّة والخُلطة " ، وتطرّق إلى المفهومين – معاً – في " رسالة المعاش والمعاد " ؛ فبيّن أسبابَ العداوات وأنواعَها وطرقَ معالجتها ، وكذلك دواعي الصداقات، والسبيل إلى المحافظة عليها ، ثمّ ماز بين ما ينبغي في معاملة الصديق وما ينبغي في معاملة العدوّ ؛ فاتّخذ مِنْ كون الصداقة مضادّةً للعداوة في طبيعتها أساساً بنى عليه ما يجب أن يُعامِل به صاحب السلطان – وغير صاحب السلطان – صديقَه وعدوّه ، مِنْ أخلاق ؛ فلّما كانت الصداقة مضادّةً للعداوة ، كان ما يُصلح العلاقةَ بين الأصدقاء هو ضدّ ما تقوم عليه العلاقةُ بين الأعداء ؛ فإذا كانت الصداقة تصلح بالمُسالَمة والثّقة ، فإنّ العداوة تقوم على الحذَر والمداراة والمواربَة . والخلطُ بينهما في المعاملة يُفسِد الصداقة ، ويُتيح الفُرصة للعدوّ ؛ فلا تسلمُ صداقةٌ مع المواربة ، ولا يُظفَر بعدوٍّ مع موادعته والاستسلامِ إليه . [٣]

وقد قدّم الجاحظ في " رسالة الجِدّ والهَزْل " تصويراً تمثيليّاً للصّداقة ؛ إذ شبّه العلاقة بين الأصدقاء بالعلاقة بين أعضاء الجسد الواحد ؛ فهي وإن كانت متباعِدةً في أماكنها ، ومختلفةً في أخلاطها ، فإنّها مع ذلك تشكّل ذاتاً واحدة ؛ " لاستواء الخواطر ، ولائتفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافِق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المَحابّ ، متّفقان في الهوى ، متشاكلان في الشّهوة ؛ وتعاونُكما كتعاون جوارح أحدكما ، وتسالُمكما كتسالم المتّفِق من طبائعكما . فإذا بانَ

---

(١) قلّة المال . ورجّح المحقّق في حاشيته أن تكون " بالرّمق " بالميم ؛ وهو بقيّة الروح .

(٢) رسالة في الجِدّ والهَزْل ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ . انظرْ كذلك تحليلات فسيولوجيّة في ثوب هزليّ ص ٢٥١ – ٢٥٢ من الرسالة نفسها

(٣) رسالة المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج١ ، ص ١١٨ – ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منك صديقك فقد بان منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلُك فقد اعتلّ نصفك ، بل النفوس المضمَّنة كالمعاني المضمَّنة ، فذهابُ بعضها هو ذهاب جميعها ؛ فموتي هو موت صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي . فلا تُبعدنّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب ، ولعلّ بعض طبائعك المخالطَ لروحك أنْ يكون أعدى من كلّ عدوّ ، وأقطعَ من كلّ سيف ، وأخْوَفَ عليك من الأسد الضاري ، ومن السمّ السّاري ".[١]

ولكنّ الجاحظ لا يلبث أنْ يقرّر أنّ هذه الصورة المثاليّة للصداقة نادرةُ التحقّق في الواقع المعيش ، بل هي تكاد تكون معدومةً ، وإنّما تُعرَف بالوصف لا بالعِيان ، كالأسطورة تماماً ؛ " وقد صار – اليومَ – المعتمَد عليه في صحّة العُقدة ، وفي كرم الغيب والعِشرة ، عنقاءَ مُغْرِب [٢] . ولا أعلم الكبريت الأحمر [٣] إلاّ أوْجدَ منه . وإنّي لأظنّ القناعة أكثرَ منه . . . . لا والله ، إنْ تعرفُ على ظهرها [الأرض] موضعاً للسرّ ، ولا مكاناً للشكوى ، ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردتَ أن تُعرّفني من جميع العالَمين رجلاً لَما قدرتَ على أحدٍ يحتمل الغِنَى ، ومُحتمِل الفقر قليل ، ومحتمل الغِنَى عديم . إنّ الخير – أبقاك الله – في أيّام كثرته كان قليلاً ، فما ظنّك به في أيّام قلّته ؟! وإنّ الشرّ في أيّام قلّته كان كثيراً ، فما ظنّك به في أيّام كثرته ؟! " [٤].

والحقّ أنّ للصداقة عند الجاحظ قيمةً عالية ، فهي تُؤدّي وظيفة وجدانيّة مهمّة في حياة الإنسان ؛ ذلك " أنّك لا تزال في وَحشة إلى وحشة ، وفي غُربة إلى غربة ، وفي تنكُّر العيش ، وتسخُّط الحال ، حتّى تجد مَنْ تشكو إليه بَثّك ، وتُفضي إليه بذات نفسك . ومتى رأيتَ عَجَباً لم تُضحِكْك رؤيتُك له بقدْر ما يُضحكُك إخبارُك إيّاه . فمَنْ أغلبُ عليك ممّن كانت هذه حالَه منك ، ومَوْقعه من نفسك ؟! " [٥].

أمّا آفاتُ الصّداقة ؛ فإنّ مِن أشدّها فَتْكاً بها ، وإفساداً لها – المَلالةَ ، وتفضيلَ الصديق الحديث على الصديق القديم . ولعلّ الجاحظ لا يردّد ذكْر داءٍ من أدواء الصداقة ، ولا يجتهد في بيان ضرره ، بقدْر ما يفعل بخصوص هذا الدّاء ؛ فيُؤكّد أنّ الصديق الأوّل – بكلّ عِلاّته – يجب أن يكون مُقدَّماً

---

(١) رسالة في الجِدّ والهزْل ، ص ٢٧١ .

(٢) طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد في طيرانه ، أو من الألفاظ الدالة على غير معنى محسوس . وهو مَثَلٌ للندرة أو لما لا يكون .

(٣) معدن عزيز ، يُضرَب به المثل للندرة أيضاً .

(٤) رسالة في الجِدّ والهزْل ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ – " ومنهم من رأى كشفَ المُعاداة ، وترْكَ المُداراة والتأنّي ؛ كما قال الشاعر :

لا أتّقي حَسَكَ الضّغائن بالرُّقَى ... فِعْـلَ الذّليل ، ولـو بقيـتُ وحيـدا
لكنْ ، أُعِدّ لها ضغائن مثلهـا ... حتّـى أُداويَ بالحُقـود حُقـودا
كالخمر ؛ خيرُ دوائها منها بها ... تشفي السّقيم ، وتُبرِئُ المنجـودا " [1]

٣ – " ومنهم مَنْ رأى المُعاداة بعدَ الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أَبَتْ إلاّ المقارَنـة[2] قارنوها بمثلها ؛ كما قال الشّاعر :

إذا عـاداك مُحْتَنِـكٌ لبيـبٌ ... فعـادِ النومَ ، واحترس البَياتا
ولا تُثِرِ الرَّبـوضَ ، وخَلِّ عنهـا ... وإنْ ثارتْ فكُنْ شبحـاً مَواتا
تَجُزْكَ إلى سِـواك ، ونَحِّ عنهـا ... فخيرُ الشـرِّ أسرعُـه فَواتـا
وإنْ مالتْ عليكَ ، وخِفْتَ منهـا ... فواجِهْها مُجاهـرَةً صِلاتـا "

٤ – " ومنهم مَنْ أمر بقبول الإنصاف ، وتَرْكِ المُحاسَبة ؛ كما قيل :

منافَسَةُ العدوّ أو الصديـق ... تجـرّ إلى المذمـّة والمَلامـهْ
إذا أعطاك نصفـاً ذو وداد ... وبعضَ النّصف ، فانتهز السّلامهْ "

٥ – " ومنهم مَنْ قال : لا تَرْضَ من عدوّك إلاّ بالظُّلْم ، ولا تقبلْ إنصافَه ، ونافِسْه في ذلك ؛ كما قال العبّاس بنُ عبد المطّلب :

أبا طالبٍ ، لا تقبل النصف منهم ... ولو أنصفوا ، حتّى تَعُقّ وتظلِما "

٦ – " ومنهم مَنْ أمر بمعونة الدّهر على العدوّ ، إذا حَمَل عليه ؛ كما قيل :

للهِ درُّك ، مـا ظننـتَ بثائـرٍ ... حرّانَ ليـس على التـراب براقـدِ
أحقدْتَه ، ثمّ اضطجعتَ ، ولم ينـمْ ... أسفاً عليك . وكيف نـومُ الحاقدِ ؟!
إنْ تُمكن الأيّامُ منـك – وعَلّهـا ... يوماً – تُوَفّـك بالصُّـواع الرائـدِ
ولئن سَلِمْتَ لأتركنّـك عارِضـاً ... بعـدِي لكلّ مُسالـمٍ ومعانـدِ "

---

(١) المكروب .

(٢) المواجهة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ – " ومنهم مَنْ كان يرى جَبْر كسر العدوّ ، وإقالـةَ عثرته ، ونُصرتَه عند وُثوب الدهـر عليه ؛ كما قال بعضهم :

فلـو بـي بدأتـُم قبـلَ مـَنْ قد دعوتـمُ
لفرّجتُها – وحدي – ولو بلغتْ جَهْدي
إذا المرء ذو القُربَى وذو الحِقْـد أجْحفَـتْ
بـه سَنَةٌ ، سَلّتْ مُصيبتُـه حِقْـدي "

٨ – " ومنهم مَنْ رأى الإفضال على عدوّه ، وتَرْكَ مُجازاته ؛ كما قيل :

إنّي ، وإنْ كان ابنُ عمّيَ كاشحاً — لَمُراجِـمٌ مِنْ دونه وورائـه
ومُعيرُه نصري ، وإنْ كان امـرءاً — مُتزحزِحـاً في أرضـه وسمائه
وإن اكتسى ثوباً نفيسـاً لم أقُـلْ — يـا ليتَ أنّ عليَّ حُسْنَ ردائه
وإذا تخـرّق في غِناه وَفـرّتـه — وإذا تصعلكَ كنتُ مِن قُرَنائه " (١)

٩ – " ومنهم مَنْ أمر بالسَّفَه في العداوة ، واستعمال الخُرْقِ فيها ؛ كما قال النابغة الجعديّ في البادرة التي يُصان بها الحِلْم :

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكـن لـه — حليـمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لـم تكن لـه — بوادرُ تحمـي صَفْوَه أنْ يُكدَّرا (٢)

وكما قال الشّاعر الجاهليّ :

وفي الشرّ نجاةٌ حِيـ — نَ لا يُنجيكَ إحسانُ "

فالجاحظ – كما ترى – يصف أساليب الناس في معالجة " العداوة " ، بحسب مـا تقتضيـه الحالات المختلفة ، دون أن يتكلّف إصدار حُكْم قطعيّ على المفهوم في صورته المجرّدة .

---

(١) تخرّق : توسّع في الإنفاق . ووفره ماله : جعله وافراً لم ينتقص منه .

(٢) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصول نظرة الجاحظ الثنائية إلى المفاهيم الخُلُقية :

إنّ مبـــدأ الثنائيّات هذا لا يقتصر عند الجاحظ على معالجته موضوعَ الأخلاق ؛ بل يتعـدّاه إلى غيره من الموضوعات والمسائل المختلفة التي يناقشها في كتبه .[١] وربّما لا أعْدُو الصواب إذا قلـــتُ – متجاوزاً الجاحظ – : إنّ هذا المبدأ هو أحد أهمّ المبادئ المؤسِّسة للفكر العربيّ بجملته في ذلك العصـــر ، وإنّه كان له أثرٌ كبير في طريقة التأصيل التي أُتبعت في مختلف العلوم العربيّة – الإسلاميّة ؛ ففي الفقـــه هنالك : الأصل والفرع ، والرأي والأثرَ ، والسنّة والبدعة ... ، وفي النحو : العـــامل والمعمـــول ، والعُمدة والفَضْلة ، والسّماع والقياس ... ، وفي البلاغة والنقد : اللّفظ والمعنى ، والقديـــم والمحدَث ، والثابت والمنحول ... ، وهكذا في بقيّة العلوم تقريباً . بالإضافة إلى أنّ عدداً لا بأس بـــه مـــن هـــذه الثنائيّات يتكرّر في غير علمٍ ، بصورٍ مختلفة ، تتناسب ومقتضيات تلك العلـــوم ؛ فـــاللفظ والمعـــنى ، والشكل والمضمون ، والظّاهر والباطن ، والعَرَض والجَوْهر هي في حقيقتها ثنائيّات متناظرة في علـــومٍ متباينة ، يُعيد أصحاب كلّ علمٍ منها صياغةَ الثنائيّة بالطريقة التي تناسب طبيعته .

ولعلّ الاعتماد على هذه الثنائيّات ، وإنتاجَها المستمرّ في العلوم المختلفة ، يرجع إلى تأثُّر العلماء القدماء ببعض الثنائيّـــات الكونيّة : كالسّماء والأرض ، والإنس والجِنّ ، والذّكر والأنثـــى ، والـــبَرّ والبحر ؛ أو الثنائيّات الاعتقاديّة : كالجنّة والنّار ، والدنيا والآخرة ، والغيب والشهادة ؛ أو الثنائيّـــات الأيديولوجيّة : كالمؤمنين والكافرين ، والمخلَصين والمنافقين ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشِّـــمال ؛ خاصّة أنّ القرآن – وهو يمثّل أهمّ المصادر المؤسّسة للثقافة العربيّة الإسلاميّة – قد احتفل كثيراً بمثـــل هـــذه الثنائيّات . ويتبـــدّى ذلك في مواضعَ كثيـــرةٍ منه ؛ كما في قوله – تعالى – : " إنّ ربّكم الذي خلق الســـماواتِ والأرضَ في ســـتّة أيّـــام ، ثمّ استوى على العرشِ . يُغْشِي اللّيـــلَ النّهارَ ؛ يَطْلُبُـــه حَثِيثاً "[٢] ، و قولِه : " قُلْ : لَئِن اجتَمعتْ الإنسُ والجِنّ على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القـــرآنِ ، لا يـــأتُون بِمِثْلِه ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهِيراً "[٣] وقوله : " لا يستوي أصحابُ النّارِ وأصحـــابُ الجنّـــةِ ؛ أصحابُ الجنّةِ هم الفائِزون "،[٤] وقـــوله : " أمَّنْ يَهْدِيكـــم في ظُلُمـــاتِ البَرِّ والبحـــر[٥] ؟ " ،

---

(١) راجع – مثلاً – تقسيماته للعالَم والكائنات ، في بداية (كتاب الحيوان) ، ج١ ، ص ٢٦ – ٣٣ ، يجدْ أكثر تلـــك التقســـيمات يأخذ طابعاً ثنائياً .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٥٤ .

(٣) الإسراء ، آية ٨٨ .

(٤) الحشر ، آية ٢٠ .

(٥) النمل ، آية ٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله : " هُو الله الذي لا إله إلاّ هُـو ، عـالِمُ الغيبِ والشّهادةِ ، هـو الرحمـنُ الرحيـمُ " (١)، وقوله : " وسِيقَ الذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً ... ، وسيقَ الذين اتّقـوا ربَّهم إلى الجنّةِ زُمَـراً " (٢) ، وقوله : " وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظُّلماتُ ولا النُّور ، ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ ، وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ " (٣).

حتّى إنّ العرب – مِنْ قديم – اصطنعوا أسلوباً لغويّاً خاصّاً ؛ للتّعبير عن طائفةٍ من الثنائيّـات الشّائعة – بلفظٍ واحد ؛ كما في قولهم : الأسودان ؛ يعنون : التمر والماء ، والجديـدان ؛ أي الليـل والنهار ، والقمَران ؛ أي الشمس والقمر ، والأصغرانِ ؛ أي القلب واللسان ... وهلمّ جرّاً .

ومن الجدير بالتنويه الآن أنّ هذه النمطيّة الثنائيّة في تمثيل المفاهيم الخُلُقيّة تترك أثرها في أسـلوب الجاحظ في التعبير ؛ حين يتّخذ من المزاوجة بين العبـارات وسيلةً أثيرةً لتسجيل أفكاره والإبانة عـن معانيـه . وأكتفـي هنـا بإيـراد العبـارات التّاليـة من " رسالة المعاش والمعاد " ، علـى سـبيل التّمثيل – : " فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحِلْم توأمان ؛ فهنّ تمام كلّ دين ، وصلاح كلّ دنيا . وأضدادهنّ سبب كلّ فُرقـة ، وأصل كلّ فساد " (٤). وكذلك العبارات التالية من " رسالة في الجِـدّ والهَزْل " ، إذ يقول : " ولا خير في عقوبةٍ تُشمِّت العدوّ المتقادم ، ويُنادَى بها العدوُّ الحادث . والأنـاةُ أبلغ في الحزم ، وأبعدُ من الذمّ ، وأحمد مغبّةً ، وأبعد من خُرْق العجلة . وقد قـال الأوّل : " عليـك بالأناة ؛ فإنّك على إيقاعِ ما أنت مُوقعه أقدرُ على ردّ ما قد أوقعته " (٥).

والخُلاصة : أنّ مبدأ الثنائيّات المتضادّة مبدأٌ أساسٌ في فِكْر الجاحظ ، يلحّ عليه ، ويُوجّه نظرتَـه في كثير من الموضوعات التي يتطرّق إليها ؛ في الأخلاق وفي غير الأخلاق . وكأنّي به لا يتسنّى لـه أن يُناقش مفهوماً أو تصوّراً أو رأياً أو معتقَداً إلاّ وفي ذهنه ما يُقابله أو يُضادّه ، وإلاّ بوسـاطة الموازنـة بينهما ؛ فلا يرضى أن يُناقـش الجِدّ إلاّ بموازاة الهَزْل ، ولا يرضى أن يُناقش النُّبل إلاّ بمـوازاة التنبُّـل والكِبْر ، ولا يُناقش مسألة الجوَاري إلاّ بموازاة مسألة الغِلمان ، ولا يتهيّأ له أن يتحدّث عن الرافضة إلى بحضور العثمانيّة وهكذا دواليك .

---

(١) الحشر ، آية ٢٢ .

(٢) الزُّمَر ، الآيات ٧٠ – ٧٣ .

(٣) فاطر ، الآيات ١٩ – ٢٢ .

(٤) رسالة المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج١ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٥) انظر رسالة في الجِدّ والهَزْل ، الرسائل ، ج١ ، ص ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّه مِن أجل ذلك اختار أسلوبَ المناظرة للتعبير عن أفكاره أو الأفكار الشّـــائعة في عصـــره بخصوص تلك الموضوعات ؛ لأنّ أسلوب المناظرة – في الأصل – يقوم على وجود طرفـــين يحمـــلان أفكاراً وآراءً وقناعاتٍ متعارضة – أو على الأقلّ : مختلفة – تجاه قضيّةٍ ما . وبذلك تكـــون المنـــاظرة أفضل وسيلة للبحث في المفاهيم الثنائيّة المتضادّة ومناقشة جوانبها المختلفة ، وتكون رؤية الجاحظ هـــي التي تُملي عليه طريقتَه في التعبير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

وبعد ،فقد انتهيتُ مِنْ هذه الدراسة إلى أنّ تراث الجاحظ يشتمل على مادّة موفورة ذات صلة بموضوع الأخلاق ، وأنّ هذه المادّة تستحقّ أن تحظى بدراسةٍ متخصّصة من وجهة نظر أدبيّة ، تُعنى بالإبانة عن آثار نزعة الجاحظ الفنيّة في معالجته للآراء والمعاني والأحكام المتصلة بهذا الموضوع ، الذي يُعدّ – بحقّ – موضوعاً رئيساً في أدبه ؛ لما عُرف عنه مِن مَيْلٍ إلى نقد القيم والعادات والسلوكات السّائدة في المجتمع أو في فئات معيّنة منه . وقد فرضتْ عليّ طبيعةُ تلك المادّة أن أقسمها قسمين متمايزين إلى حدٍّ ما :

القسم الأوّل : يتضمّن الكتب والمواضع التي يتناول الجاحظ فيها موضوعات الأخلاق، بطرقٍ تصويريّة تمثيليّة ؛ إذ يعمد إلى تجسيد القيم والسلوكات الخلقيّة الملحوظة في مجتمعه في شخصيّات مِن أبناء عصره أو ما سبقه مِن عصور ، ويأتي ذلك غالباً في سياق النقد الاجتماعيّ – الأخلاقيّ ، ولكنّه نقدٌ مغلّف بأرديةٍ فنيّة ممتعة ؛ مِن قصّة ومناظرة ومشهد مسرحيّ ، تؤدّي رسالة صاحبها النقديّة من طرفٍ خفيّ ، دون أن تُفصح بها صنيعَ النقد أو الموعظة المباشرين . وهذا ما نلمسه بوضوح في (كتاب البخلاء) ، و (رسالة التربيع والتدوير) ، و (رسالة الجدّ والهزْل) على سبيل المثال .

القسم الثاني : يتضمّن الكتب والمواضع التي جاء حديث الجاحظ فيها عن الأخلاق بلغةٍ تقريريّة مباشرة على صورةٍ وصيّة تعليميّة تصل أحياناً إلى حدّ الموعظة التربويّة ، ولكنّها موعظة ذكيّة مستندةٌ إلى كثير من الحجج والبراهين العقليّة والنقليّة ، ولا تخلو من آثار النزعة الأدبيّة التي تغلب على الجاحظ ، حتّى في أكثر الموضوعات التي يخوض فيها اتّساماً بسيمى العلم . ويمكن أن نُدرج في هذا القسم – مثلاً – (رسالة المعاش والمعاد أو الأخلاق المحمودة والمذمومة) ، و (رسالة كتمان السرّ وحفظ اللسان) ، و (رسالة النبل والتنبّل وذمّ الكبر) .

فأما القسم الأوّل فقد أفردتُه لدراسته الفصل الثاني من هذا البحث ، وجعلتُ عنوانه (الطرائق الأدبيّة التي يترسّمها الجاحظ في عرض القيم الخلقيّة ، وأبرز سماتها الفنيّة) فعددتُ من تلك الطرائق : السخرية ، وبيّنتُ أنها – تتخذ عند الجاحظ – صوراً وأشكالاً متنوّعة ؛ منها المبالغة الفنيّة المعقولة ، و " السخرية اللطيفة التي تشير إلى مواطن العيوب وتصوّرها في جوٍّ مَرِح ؛ تتخلّله بَسمات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستحسان ، وتغمره ضحكات السرور ... [بعيدا] عن طريق الجد الصارم في النقد ، وما يكون في هذا الطريق – كثيرا – من الغضب والتسخط والبغضاء ، وما إليها من المعاني المباينة للحب ، المزورة عن سبيل الحياة " كما يقول د . طه الحاجري في مقدمة تحقيقه لكتاب البخلاء ، ومنها التحذلق على ألسنة النماذج الإنسانية موضوع السخرية ، واصطناع ضرب من التسويغ المنطقي الزائف لما يجسدونه من أخلاق وسلوكات . ومنها – أيضا – توظيف طائفة واسعة من معارف العصر في مختلف العلوم وكذلك الخرافات والمعتقدات الشعبية على ألسنة بعض الشخصيات الفكاهية في نوع من الأدب اللابطولي ، كما في حكاية خالد بن يزيد ، الذي وضع الجاحظ على لسانه – يوصي ولده – حديثا في غاية السخرية ، وقد جاء محتفلا بحشد كبير من المعارف التي كانت تشغل الطبقة المثقفة في عصره ، وأخرى كانت تشغل الطبقة الشعبية التي لم تنل حظا يذكر من الثقافة والعلم . والثانية من تلك الطرائق : المناظرة ، وقد بينت أن الجاحظ في مناظراته يعتمد على شخصيات افتراضية ، تمثل وجهات النظر المتباينة في المسألة المطروحة ؛ ولكن وجهات النظر تلك ليست افتراضية كشخصياتها ؛ وإنما هي واقعية مستقاة من داخل الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية ، وممثلة لاتجاهات فكرية أو أنماط سلوكية شائعة عند طوائف من الناس في عصره . فالجاحظ لا يتصور المسائل التي يطرحها ولا يخترعها من خياله ؛ بل يورد على السنة شخصياته الوهمية – التي هي بمثابة تجريد لفئات أو طبقات بأكملها – مجمل الأراء والمذاهب الشائعة في مجتمعه ، حول مسائل أو إشكاليات أثبتت وجودها بإلحاح في الواقع العملي ، ثم يقارع تلك الآراء ببعضها ، ليس – في أغلب الأحيان – بهدف الوصول إلى نتيجة حاسمة أو حل نهائي ؛ وإنما لمجرد بسط تلك الآراء ، وترك وظيفة محاكمتها والفصل فيها للقارئ نفسه . وتتمثل الطريقة الثالثة التي يصطنعها الجاحظ – فيما نحن بصدده – بالمشاهد المسرحية ، التي بلغت عنده درجة عالية من النضج والاكتمال ، وقد اتكأ الجاحظ على هذه الطريقة – بصورة رئيسية – في تناوله لخلق البخل ؛ فجاء (كتاب البخلاء) – في أكثره – سلسلة من المشاهد المسرحية ، التي يشتمل كل منها على موقف درامي يصور أحد نماذج البخلاء ، ويحكي مذهبه في البخل واحتجاجاته له ، بكل دقة وشمولية وعمق وإمعان في السخرية والإضحاك . وقد جاءت تلك المشاهد مستوفية لأكثر شروط هذا الفن ؛ من : حوار وشخصيات ومكان وزمان وأحداث ... . وكذلك – أيضا – فيما يتعلق بالطريقة الرابعة من طرق الجاحظ في تناول الأخلاق ، المتمثلة في أسلوب : القصة – الطرفة ؛ إذ اتخذ منها وسيلة لتصوير القيم والاتجاهات الخلقية في عصره ، في بناء فني طريف وممتع ، من شأنه أن يكسبها قيمة ترفيهية ، تعصم القارئ من الملل والفتور ، وهو يتصفح كتبه ، وخاصة الطوال منها .

وأما القسم الثاني ؛ وهو القسم التقريري من مادة الجاحظ المتصلة بالأخلاق ، فقد وقفت عليه الفصل الثالث من الرسالة ، وجعلت عنوانه (سمات أسلوب الجاحظ في خطابه الأخلاقي) ، وضمنته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما استطعتُ أن أستقرئه من سمات تميّز بها أسلوب الجاحظ في هذا القسم ؛ فنوّهتُ بما غلب عليه في معظم رسائله الخلقيّة من تنظيم وتنسيق ، بخلاف ما نجده في كتبه الطّوال ، وأنّ ذلك مردّه إلى قصر تلك الرسائل نسبيّاً وتخصّصها في جزئيّات معيّنة ؛ وذكرت وصفه للمفاهيم الأخلاقيّة وصفاً بلاغيّاً ينأى عن الحدود المنطقيّة ، فبيّنت أنّ الجاحظ لا يسعى إلى حدّ المفاهيم الخلقيّة ، وإبراز سماتها المميّزة بلغة علميّة مباشرة ، صنيعَ الفيلسوف ؛ ولكنّه يصف المفهوم بعبارات بليغة ويجسّده في صور فنيّة مؤثّرة ، وأنّه يعتمد في بناء صوره تلك — غالباً — على عناصر البيئة الماديّة المحسوسة ؛ تقريباً لها من عقل السّامع ، ولأن أثر المحسوس أبلغ في النفس وأعمق من أثر المُتخيَّل . وذكرتُ من تلك السّمات — أيضاً — تضمين الجاحظ أحاديثه الخلقيّة ألواناً شتّى من معارف عصره ؛ من تاريخيّة وأسطوريّة ونفسيّة ودينيّة ... ، وعزوتُ ذلك إلى صفة الموسوعيّة والشموليّة التي كان يتمتّع بها في ثقافته ؛ فكان يُفصّل أحاديثه في الأخلاق بجملةٍ من المعارف المتنوّعة ، سواء تلك التي تنتسب إلى ثقافة النخبة في عصره وتلك التي يتداولها العامّة من سواد المجتمع . ونوّهتُ — كذلك — بدقّة الجاحظ في اختيار الألفاظ الدالّة على المعاني الأخلاقيّة ، والحرص على التمييز بين ما كان منها عُرضة للخلط والالتباس ، وقد أرجعتُ هذا المَيْل نحو الدقّة في التعبير إلى الدقّة في التفكير والتصوّر التي يُمليها عليه مذهبُه الاعتزاليّ العقليّ الصارم ، الذي لا يقبل الخلط والتعمية . ثمّ ألمعتُ إلى توجيه الجاحظ حديثَه في الأخلاق — أحياناً — بصيغة الخِطاب المباشر ، وأنّه يفعل ذلك عندما يكون في معرض تقديم وصيّة أو فائدة تربويّة ، ولكنه — حتى وهو في هذا المعرض — لا ينسى وظيفته الأدبية ، ولا يخلي كلامه من ملامح الفن ، وإن كان ذلك على مستوى جمال العبارة ، وحسن اختيار الألفاظ ، واتساق إيقاعها . ومن السمات التي عددتها — أيضا — الاستقصاء والتتبع ؛ فقد دأب الجاحظ على استقصاء المسألة التي يطرحها من جميع جوانبها واستيفاء كل شاردة وواردة فيها ، والتعمق إلى دقائقها ، بعبارات سلسة ، متدرجة في عرض المعاني وتتبع تفاصيلها . وأشرت — بعد ذلك — إلى جنوح الجاحظ نحو الإطلاق والتعميم في تقرير بعض الأحكام المتصلة بالأخلاق ، وعقبت بأن هذا ليس عاما عنده ؛ إذ يحاول — أحيانا — أن يصطنع بعض أساليب الاحتراز ، ولكن السمة الأولى تظل هي الغالبة عليه في هذا الموضوع . ثم تحدثت عن أسلوبه في عرض المفاهيم الخلقية في شكل أزواج من الأضداد وأشباه الأضداد ، وعزوت ذلك إلى شيوع هذه الطريقة في تناول العلوم في الثقافة العربية الإسلامية على اختلاف موضوعاتها من فقه وتفسير وحديث ونقد وبلاغة ، فهناك : الجوهر والعرض ، والأصل والفرع ، والسنة والبدعة ، والسماع والقياس ، والعمدة والفضلة ... ، وربما يكون هذا الشيوع نفسه بأثر من الثنائيات الكونية والطبيعية والاعتقادية ؛ كالسماء والأرض ، والبر والبحر ، والجنة والنار... .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا ، و لم أزل أبتغي كلّ سبيل أستطيعها إلى الدقّة والاتّساق والموضوعيّة والوفاء بالمهمّ من جوانب البحث ، وتدعيم كلامي بنصوص مِن كتب الجاحظ في كلّ حكم أرسله أو نتيجة أصل إليها ، دون أيّ محاولة لِلَيّ تلك النصوص أو نزعها من سياقاتها الأولى أو تحميلها فوق ما تُطيق . فما أصبتُ فبتوفيق من الله ، وما أخطأت فعذري فيه أنّي قد بلغت جَهدي . وأسأله سبحانه الرشد وحسن العاقبة في الأمور كلّها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

أ - المصادر :

١ . القرآن الكريم .

٢ . أرسطو طاليس (ت ٣٢٣ ق . م) – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ٢ م ، نقله إلى العربيّة عن الفرنسيّة : أحمد لطفي السيّد ، دار صادر ؛ صورة عن نسخة دار الكتب المصريّة بالقاهرة ، ١٩٢٤ م .

٣ . الترمذيّ ؛ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت ٢٩٧ هـ) – الجامع الصحيح ، ٥ م ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي ، وكمال يوسف الحوت ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

٤ . الجاحظ ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) :

– البخلاء ، ط ٦ ، ١ م ، تحقيق طه الحاجريّ ، سلسلة ذخائر العرب – ٢٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .

– البخلاء ، ١ م ، ضبطه وشرحه وصحّحه : أحمد العوامري وعلي الجارم ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩١ م .

– البيان والتبيين ، ٤ م ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .

– الحيوان ، ٨ م ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .

– رسائل الجاحظ ، ط ١ ، ٢ م ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٩١م .

– رسالة التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلاّت ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربيّة ، ١٩٥٥م .

– مجموع رسائل الجاحظ ، ١ م ، تحقيق محمد طه الحاجريّ ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٥ . الشهرستانيّ : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨ هـ) – المِلَل والنِّحَل ، ٢ م ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٦٧ م .

٦ . ابن المقفع (ت ١٤٣ هـ) – الأدب الصغير والأدب الكبير ، ١ م ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

٧ . ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) – لسان العرب ، ط ١ ، ٧ م ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٧ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المراجع :

١ . أحمد أمين :

- ضحى الإسلام ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ظُهر الإسلام ، ط ٥ ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، بدون تاريخ .

٢ . زكريّا إبراهيم :

- مشكلة الإنسان ، الكتاب الثاني في مجموعة : مشكلات فلسفيّة ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- مشكلة الحبّ ، الكتاب الخامس ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- المشكلة الخلقيّة ، الكتاب السادس ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- مشكلة الفلسفة ، الكتاب الرابع ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

٣ . شارل بلاّ – الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ط ١ ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٥ م . وقد ألحق به المحقّق ترجمةً لنصّ محاضرة للمؤلّف نفسه ، بعنوان : أصالة الجاحظ .

٤ . شوقي ضيف :

- العصر العبّاسي الأوّل ، ط ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- العصر العباسي الثاني ، ط ٨ ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- الفن ومذاهبه في النثر العربيّ ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٥ . علي أبو ملحم – المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ ، ط ١ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٤م ، رسالة ماجستير أصلاً .

٦ . محمد عابد الجابري – نقد العقل العربيّ :

الجزء الأوّل : تكوين العقل العربيّ ، ط ٦ ، مركز دراسات الوحدة العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٤ م .

الجزء الثاني : بنية العقل العربيّ ، ط ٤ ، مركز دراسات الوحدة العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٢ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

Literature of Morals in al - Jahiz's Works

By

Imad M. A bu - Rahmeh

Supervisor

Brof. Dr. Hashim Yaghi.

This study deals with clarifying the Impact of al-Jahiz's artistic tendency on tackling some moral issues . It consists of three chapter ; the first of which aims at giving an approximative idea to al - Jahiz's methodology of research while exammining the moral issues. The more prominent characteristics of such a method are the explanatory tendency , the dependence on the spiritual and literary texts as well as on nature and mind, the inclination examine critically, and the realistic thinking

Chapter II is devoted to studying the salient literary methods followed by al - Jahiz in demonstrating his point of views regarding the values and morals. These methods are irony, argument , dramatic scene, and tale curiosity.

As for chapter III, it is devoted to an investigation to the main characteristics of al - Jahiz's style regarding his moral discourse, the predominent of which is the direct theorizing which assume the form of a moral exhortation or a an educational instructions .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit